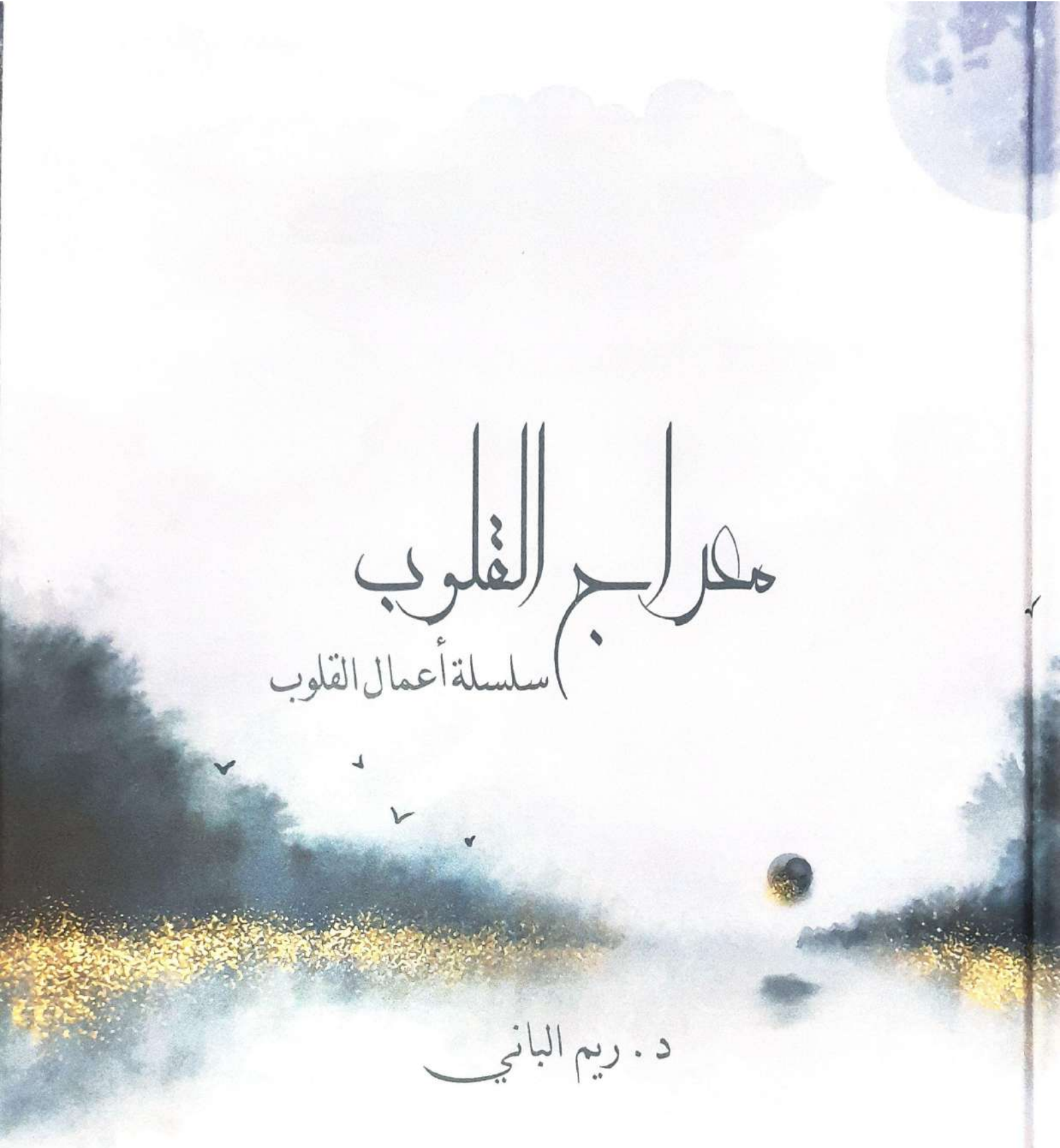


معالم القلوب

سلسلة أعمال القلوب

د. ريم الباني

مكتبة الرشد
RUSHD BOOKSTORE
ناشرون

مِعْرَاجُ الْقُلُوبِ

سلسلة أعمال القلوب

د. ريم البانيي




بسم الله الرحمن الرحيم

معراج القلوب

سلسلة أعمال القلوب

د. ريم البانى

مقدمة



الحمد لله الذي فطر القلوب على محبته، وزين قلوب أوليائه بمعرفته، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا محمدًا عبد الله ورسوله ﷺ.

أما بعد؛ فإن لله على العبد عبوديتين؛ عبودية باطنة، وعبودية ظاهرة، فله على قلبه عبودية وعلى لسانه عبودية وعلى جوارحه عبودية، ولكل منا مسير يوصل إلى الله، إن أعظم طريق يصل به العبد إلى الله هو معرفته، وطريق معرفته بتعظيمه وخشيته. وأعمال القلوب تصل قلب العبد إلى الله فتجعله ساجدًا، مخبتًا منيبًا مفتقرًا كلما ازداد له تعظيمًا.

تأمل أيها المحب هذا الحديث: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُود، قَالَ: **جَاءَ حَبْرٌ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ -أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ- إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخلقِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزهُنَّ، فيقُول: أَنَا الْمَلِك، أَنَا المَلِك. فضَحِك رَسُول الله صَلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَجبًا مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ؛ تَصْدِيقًا لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ:** «﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾»[1].

---

(١) سورة الزمر: ٦٧.

فالطريق إليه يقطع بسير القلوب لا بآثار الخطى والمسير، فقيام العبد بعمل الجوارح فقط، وإغفال عمل القلب جهل بأعظم الطرق التي تبلغ به المراتب والدرجات العلى.

والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم وحقائق الإيمان على بواطنهم، ولا يقبل واحدًا منهما إلا بصاحبه وقرينه، وفي المسند مرفوعًا: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب».

في ثنايا هذا الكتاب جمع لأعمال القلوب التي تستقيم بها أعمال الجوارح وتطيب بها حياة العبد مع ربه وتشفى بها جميع أمراضه وأدوائه، فليس للعبد من صلاح عمره إلا ما كان من صلاح قلبه وليس له من عمره إلا ما كان لله، قال ابن القيم رحمه الله: «من لم يكن وقته لله وبالله، فالموت خير له من الحياة، وإن كان العبد وهو في الصلاة ليس له من صلاته إلا ما عقل منها فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله».

هذا لمن كان له قلب اشتغل بالله عن الدنيا فزكت نفسه وطاب عيشه، والله أسأل أن يرزقنا قلوبًا سليمة عارفة به محبة له منيبة إليه مسلمة له.

وأصلي وأسلم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

المؤلفة

١٧ جمادى الأولى ١٤٣٩هـ

تمهيد

أمراض القلوب



(الرياء - الحسد - النفاق
حب الدنيا - العجب)

أولًا: الرياء



وهذا مرض خطير جدًّا لخفائه، ولأثره في إفساد العمل، وقليل من يسلم منه، وقد جاء في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1].

والرياء أدق من الشعرة السوداء على الصخرة السوداء في الليلة الظلماء، والعمل الذي يكون مبعثه الرياء يحبط أجره يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[2].

والرياء: مشتق من الرؤية، والسمعة: مشتقة من السماع.

والرياء: أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإظهار خصال الخير أمامهم ليروها، والمراءَى به كثير، وهو كل ما يتزين به العبد للناس.

والرياء يحصل بخمسة أشياء هي:

البدن.. واللباس.. والقول.. والعمل.. والأتباع والأشياء الخارجة.

وكذلك أهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب.

فالرياء في الدين بالبدن يكون بإظهار النحول، واصفرار اللون؛ ليوهم بذلك شدة الاجتهاد، وعظم الحزن على أمر الدين.

والرياء بالهيئة والزي يكون بترك الرأس مشعثًا، وإطراق الرأس في

---

(١) رواه مسلم: ٢٩٨٥.

(٢) سورة الفرقان: ٢٣.

المشي، ولبس غليظ الثياب، وترك تنظيف الثياب، وترك الثوب مخرقًا، كل ذلك يرائي به ليظهر أنه متبع للسنة، كما يظن، والسنة من ذلك براء.

وأما الرياء بالقول فيكون بالوعظ والتذكير، والنطق بالحكمة، وحفظ الأخبار والآثار لأجل البروز في المحاورة، وإظهارًا لغريزة العلم، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس.

وأما المراءاة بالعمل فكمراءاة المصلي مَن حوله بتطويل القيام والركوع والسجود، وإطراق الرأس، وكذلك بالصوم والصدقة، وإطعام الطعام.

وأما المراءاة بالأصحاب والزوار فكالذي يتكلف أن يستزير عالمًا من العلماء.

فالرياء محبط للأعمال، وسبب للمقت عند الله ﷻ، وهو من كبائر الذنوب والمهلكات.

وما يكون هذا وصفه فجدير بالعاقل التشمير عن ساق الجد في إزالته، وذلك بقلع عروقه، واستئصال أصوله.

وأصله: حب المنزلة والجاه عند الناس، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس.

ومن هنا يعلم أن طلب المنزلة والجاه عند الله بالطاعة أعظم وأولى من طلبها عند الناس بالرياء والنفاق.

وليعلم أن الله ﷻ هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق كلهم مضطرون إليه فلا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخلُ من

الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخلُ من المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله لذلك؟!

وأما ذمهم فلماذا يحذر منه؟ ولا يزيده ذمهم شيئًا ما لم يكتبه الله عليه، ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة.

وما يعرض من الرياء أثناء العبادة لا بدَّ أن يشمر لدفعه وقهره، بذكر ومراعاة باطن العبادة وظاهرها.

إن في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء.

وفي الإظهار فائدة الاقتداء، وترغيب الناس في الخير، ولكن فيه آفة الرياء.

والسر أَحْرَزُ العملين، ولكن في الإظهار فائدة الاقتداء، وفي كلٍّ خير، وذلك يختلف باختلاف الأحوال، والأعمال، والأشخاص؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾[1].

وقال الله ﷻ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾[2][3]، وبعض الأعمال حقها الإظهار ليقتدي الناس بها كما فعل الصحابة رضوان الله عليهم من إظهار الصدقة وفرح النبي ﷺ بها واغتبط لذلك.

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٧١.

(٣) الخلاصة في فقه القلوب، ١/ ١١٥-١١٦.

والله ﷻ يقول: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[1] ويقول: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[2] وإذا أظهرت السرائر فبدا منها ما لم يرجُ به العبد وجه الله، فكيف إذا حُصل ما في الصدور فكان ما فيه لغير الله، أين نذهب في ذلك اليوم.



(١) سورة الطارق: ٩.

(٢) سورة العاديات: ١٠-١١.

ثانياً: الحسد



الحسد لغةً:

مصدره حسد يَحْسِدُ ويَحْسُدُ، حَسَدًا وحُسودًا وحَسادَةً، وحَسَّدَه: تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته، أو يسلبهما، وحَسَدَهُ الشيءَ وعليه[1].

اصطلاحًا:

الحسد: إحساس نفساني مركب من استحسان نعمة في الغير، مع تمني زوالها عنه؛ لأجل غيرة على اختصاص الغير بتلك الحالة، أو على مشاركته الحاسد فيها[2].

وهو داء قلبي من أدوى الأدواء، وعلة من علل القلوب تفسد القلب، وهو يُذْهِبُ ما يجب على المؤمن من صفاء قلبه لإخوانه المسلمين، فالحاسد يتمنى أن تزول النعمة عن غيره، سواء وصلت إليه أم لم تصل إليه، فهو لا يحب قطعًا لإخوانه ما يحب لنفسه، وإلا فَلِمَ يحسدهم؟! فهذا يدل على اختلال في العمل القلبي الواجب من محبة الخير للمسلمين كما يحب لنفسه، فالحسد يذهب الحسنات، ويأكلها كما تأكل النار الحطب[3].

---

(١) القاموس المحيط، للفيروزابادي، ص ٢٧٧.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٣٠/ ٦٢٩.

(٣) أعمال القلوب، خالد السبت، (١/ ٣٢).

والحسد نوعان:

أحدهما: كراهة الإنسان للنعمة عند غيره مطلقًا، وهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضًا في قلبه، ويلتذ بزوال النعمة عنه، وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه.

الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه، فيحب أن يكون مثله، أو أفضل منه، فهذا حسد، وهو الذي يسمى الغبطة والمنافسة.

وهذا وإن كان مباحًا، إلا أن السالم من هذه الأمور أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة[1].

وفي الحديث يقول ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ! فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحطبَ**»[2]، ولا حسد إلا على نعمة، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان:

الأولى: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها.

والثانية: ألا تحب زوالها عنه، ولا تكره وجودها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، فالأولى حرام، والثانية جائزة[3].

ويقول ﷺ في الحديث: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»[4].

والحسد أول ذنب عُصِيَ الله به في السماء حين حسد إبليس آدم على ما

---

(١) الخلاصة في فقه القلوب، ١/ ١٠٠.

(٢) سنن أبي داود، قال عنه الألباني: ضعيف.

(٣) الخلاصة في فقه القلوب، ١/ ١٠٣.

(٤) صحيح البخاري: ٦٨٨٦.

فضله الله به، وهو أول ذنب عُصيَ الله به في الأرض حين حسد قابيل أخاه هابيل على اختيار الله له، ومن ثَم بادر بقتله.

والحسد من الأمراض العظيمة التي تصيب القلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل.

فالعلم النافع لعلاج مرض الحسد هو أن يعرف الإنسان أن الحسد ضرر عليه في الدنيا والدين.

أما في الدين فهو أنك سخطت قضاء الله تعالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بحكمته، فاستنكرت وكرهت وضاقت نفسك بما قضاه الله وقدّره واختاره لعبده.

وهذه جناية كبرى على التوحيد والإيمان والدين؛ فجنايته على التوحيد بعدم الثقة بفضل الله على عباده وعدله في قسمة الأرزاق لهم. وجنايته على الدين كونه من مفسدات الأعمال ومذهبات الحسنات، وأما على الإيمان فإنه يسلب حلاوة الطاعة والتلذذ بالعبادة وينقص إيمانه بالقضاء والقدر.

وأما كونه ضررًا عليك في الدنيا، فهو أنك تتألم في الدنيا، أو تتعذب به، فالذين تحسدهم لا يخليهم الله من نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتألم بكل نعمة تراها، وتتعذب بكل بلية تصرف عنهم، فتبقى مغمومًا محرومًا، قد نزل بك ما تشتهيه لأعدائك.

فهذه هي الأدوية القلبية، فإذا فكر الإنسان فيها بذهن صافٍ، انطفأت نار الحسد من قلبه، وعلم أنه مهلك لنفسه، ومفرح عدوه، ومسخط ربه، ومنغص عيشه.

وأما العمل النافع فيه، فهو أن يحكم الحسد، ويكلف نفسه نقيضه، فإن حمله الحسد على القدح في محسوده، كلف لسانه المدح له، والثناء عليه.

وإن حمله الحسد على التكبر عليه، ألزم نفسه التواضع له، والاعتذار إليه.

وإن بعثه على كف الإنعام عليه، ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه، فإذا عرف المحسود ذلك طاب قلبه وأحبه، وجاءت الموافقة التي تقطع مادة الحسد.

فهذه أهم أدوية الحسد العملية، وهي نافعة جدًا، إلا أنها مرة على القلوب جدًا، ولكن النفع في الدواء المر، فمن لم يصبر على مرارة الدواء، لم ينل حلاوة الشفاء[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب، فلا يخلص منه إلا القليل من الناس، ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه، ولذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2] وأمرنا بالتعوذ صباح مساء ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾[3].

وفي الحديث المتفق عليه «لا تباغضوا ولا تحاسدوا».

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» أو قال: «**العشب**»[4].

---

(١) المرجع السابق، ١/ ١١١-١١٢.

(٢) سورة النساء: ٥٤.

(٣) سورة الفلق: ٥.

(٤) سبق تخريجه.

ويقول الحسن البصري: عَمِّه في صدرك، فإنه لا يضرك، ما لم تَعْدُ به يدًا أو لسانًا.

وأما عن علاجه، فقد ذكر شيخ الإسلام كلامًا طيبًا في علاجه، حيث يقول: «من وجد في نفسه حسدًا لغيره، فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر، فيكره ذلك من نفسه»[1].



(١) انظر رسالة أمراض القلوب وشفاؤها لشيخ الإسلام.

ثالثًا: النفاق

النفاق لغةً:

اختلف علماء اللغة في أصل النفاق، فقيل: إن ذلك نسبةٌ إلى النفق وهو السَّرَب في الأرض، لأن المنافق يستر كفره ويغيبه، فتشبه بالذي يدخل النفق يستتر فيه.

وقيل: سمي به من نافقاء اليربوع، فإن اليربوع له جحر يقال له: النافقاء، وآخر يقال له: القاصعاء، فإذا طُلِب من القاصعاء قَصَّع فخرج من النافقاء، كذا المنافق يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي يدخل فيه[1].

اصطلاحًا:

القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد، أو هو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وإن كان أصله في اللغة معروفًا[2].

والنفاق قسمان:

الأول: النفاق الأكبر: وهو النفاق الاعتقادي، بأن يظهر صاحبه الإسلام، ويبطن الكفر، وجميع ما ذكر في القرآن المقصود به النفاق الأكبر، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار كما قال

(١) لسان العرب، ١٠/ ٣٥٨.

(٢) عارضة الأحوذي، ١٠/ ٩٧.

سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾[1].

الثاني: النفاق الأصغر: وهو النفاق في الأعمال ونحوها، وصاحبه لا يخرج من ملة الإسلام لكنه عاص، وله علامات.

قال النبي ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كانَتْ فِيهِ خَصْلة مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذا حَدَّثَ كذبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذا خَاصَمَ فَجَرَ**»[2].

والنفاق لم يكن موجودًا قبل هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت غزوة بدر، ونصر الله المؤمنين على الكفار، وأظهرهم وأعزهم، ذل من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفًا ومخادعة، ولتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، وتحفظ مكانتهم، وليسهل عليهم كيد المسلمين، وتمزيق وحدتهم، والمكر بهم وخداعهم.

فكانوا بين أظهر المسلمين، في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم، فنال المسلمين منهم شر عظيم، وبلاء مستطير.

ومن لطف الله ﷻ بالمؤمنين أن كشف أحوالهم، وجلى صفاتهم، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا عن كثير من فجورهم.

من أعظم صفات المنافقين:

أولًا: الكذب فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، كما قال الله ﷻ

---

(١) سورة النساء: ١٤٥.

(٢) متفق عليه.

عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ثانيًا: الخداع: فهم يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر مخادعة لله ولعباده المؤمنين، ولكنهم في الحقيقة لا يخدعون إلا أنفسهم، فما يعملون من المكر والكيد يهلكون به أنفسهم؛ لأن الله لا يتضرر بخداعهم، وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئًا ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

فسلمت أموالهم، وحقنت دماؤهم، ولكن صار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر حين يرون ما يحصل للمسلمين من القوة والنصرة، ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجع.

ثالثًا: الشك والتردد: ففي قلوبهم مرض الشك والشبهات والنفاق، كما قال سبحانه: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[3].

رابعًا: الإفساد في الأرض: فلا أعظم إفسادًا في الأرض ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأولياءه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وعمل بالكفر والمعاصي، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، وأي إفساد فوق هذا الإفساد، وأعظم منه شدة إنكارهم على من نهاهم عنه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

(١) سورة البقرة: ٨.

(٢) سورة البقرة: ٩.

(٣) سورة البقرة: ١٠.

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (١).

فجمعوا بين فعل الباطل وبين اعتقاده حقًّا، وهذا أعظم جناية ممن عمل بالمعصية مع اعتقاد أنها معصية، فإنه أقرب إلى السلامة، وأرجى للرجوع.

وصلاح الأرض أن تعمر بالإيمان بالله وعبادته، وطاعة الله ورسوله.

ولهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدر لهم الأرزاق ليستعينوا بها على طاعة الله وعبادته، فإذا عمل الناس فيها بضده، كان سعيًا بالفساد فيها، وتخريبًا لها عما خلقت من أجله.

خامسًا: تسفيه الناس: فهم يزعمون أن الصحابة والمؤمنين سفهاء، وأن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والتعرض للقتل والفقر، والحرمان من الشهوات: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢) (٣).

ولقد كان السلف الصالح من أشد الناس خوفًا من النفاق؛ فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (وهو من هو صحبةً وعلمًا وعملًا وإخلاصًا) يناشد حذيفة: هل عدني رسول الله ﷺ من المنافقين؟ فقال حذيفة: لا، ولا أزكي أحدًا بعدك.

---

(١) سورة البقرة: ١١-١٢.

(٢) سورة البقرة: ١٣.

(٣) موسوعة فقه القلوب، الشيخ محمد التويجري، ١٣ / ١٧٩-١٨٠.

وهذا ابن أبي مليكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو سيد من سادات التابعين يقول: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخشى النفاق على نفسه.

ونحن الآن نقول: هل نجد ثلاثين يخافون النفاق على أنفسهم؟!

ومن تأمل صفات المنافقين مما ذكره الله ﷻ في كتابه في مواضع كثيرة، وما ذكره النبي ﷺ علم أن الأمر جد خطير، خاصة ونحن نرى تساهل الناس في الاتصاف بصفاتهم، مع أمنهم من ذلك، فإن بعض الناس يتحدث عن القضاة وأخطائهم ومثالبهم بحق وبغير حق، ويتعدى الحديث إلى أقضيتهم وأحكامهم، ثم هو يُحسِّن للناس أحوال الغربيين، وأحكامهم، ومساواتهم، جاهلًا أو متجاهلًا ما هم فيه من شقاء، وتبرم، وضياع، بتركهم شرع الله ﷻ، وكفرهم بآياته.

والله ﷻ يقول: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[1].

وتتبع مثالب الآخرين وفضيحتهم ولا حول ولا قوة إلا بالله أصبح حديث بعض المجالس، فالحذر من التشبه بصفات المنافقين، والسير في ركابهم، من كره الدين، وبغض المتدينين، ونحو ذلك[2].



(١) سورة النساء: ٦٥.

(٢) امتحان القلوب، للشيخ ناصر العمر، ١ / ١٦.

رابعاً: حب الدنيا



وهو الداء العضال الذي أعيى الأولين والآخرين علاجه، فإخراجه من القلب شديد، ولا علاج له إلا بالإيمان بالله، واليوم الآخر، وتذكر الجنة وما فيها من نعيم.

ومتى ما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا.

وإذا رأى العبد حقارة الدنيا، ونفاسة الآخرة، استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها، ولو أُعطي مُلك الأرض من المشرق إلى المغرب، فإن حب العظيم هو الذي يمحو من القلب حب الحقير[1].

وحب الدنيا يقتضي تعظيمها (وهي حقيرة عند الله) ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقَّر الله ﷻ، وهي سجن المؤمن، وجنة الكافر.

وحب الدنيا فكرًا وطلبًا وتمتعًا، والإعراض عن الآخرة مرض عظيم، ومن اتخذ الدنيا ربًّا اتخذته عبدًا، والعاقل من يرضى منها بالقليل مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بقليل الدين مع سلامة الدنيا.

ومن أحب شيئًا أكثر من ذكره، وبقدر ما يحزن الإنسان للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبه، وبقدر ما يحزن العبد للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبه.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري، ١٤ / ٨٤.

فالدنيا والآخرة ضَرَّتان، فبقدر ما تُرضي إحداهما تسخط الأخرى، وبقدر ما تعمر إحداهما تهدم الأخرى، وبقدر ما تقدم إحداهما تؤخر الأخرى، وطالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا، حتى يقتله الشرب.

والدنيا سريعة الفناء، تَعِدُ بالبقاء، ثم تخلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيرًا عنيفًا، وهي كالظل فإنه متحرك ساكن، متحرك في الحقيقة، ساكن في الظاهر.

والدنيا كالأرض، إن مشيت عليها حملتك، وإن حملتها على رأسك قتلتك.

وهي دار ضيافة سُبِّلَتْ على المجتازين لا على المقيمين، ودار عارية لا دار ملك، ودار فناء لا دار بقاء، ودار زوال والآخرة هي دار القرار.

والعاقل من صرف همه عنها حتى لا يتألم عند فراقها، ويأخذ منها بقدر الحاجة ما يستعين به على عبادة ربه[1].

حب الدنيا رأس الخطايا، ومفسدة للدين من وجوه:

أحدها: أن الله ﷻ لعنها وأبغضها ومقتها إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض لغضبه ومقته ولعنته.

والثاني: أن حب الدنيا يقتضي تعظيمها، وهي حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقّر الله ﷻ.

الثالث: أن العبد إذا أحب الدنيا صيرها غايته، وتوسل إليها بالأعمال والطاقات التي جعلها الله ﷻ وسائل إليه وإلى الدار الآخرة.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري، ٥/ ٨٧.

فهذا عَكَس الأمر، وقَلَب الحكمة، وتردى في السفول، وهذا الذي قال الله تعالى عنه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[1].

والدنيا في الحقيقة لا تذم لذاتها، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار.

ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة، والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الإطلاق.

وإلا فالدنيا مبنى الآخرة ومزرعتها.. ومنها زاد الجنة.. وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله عَزَّوَجَلَّ.. ومحبة الله وذكره وابتغاء مرضاته[2].

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأيت سبب الهموم والغموم الإعراض عن الله عَزَّوَجَلَّ، والإقبال على الدنيا.

و كلما فات منها شيء وقع الغم لفواته.

فأما من رزق معرفة الله عَزَّوَجَلَّ استراح؛ لأنه يستغني بالرضا بالقضاء، فمهما قدر له رضي.

وإن دعا فلم ير أثر الإجابة لم يختلج في قلبه اعتراض، لأنه مملوك مدبر فتكون همته في خدمة الخالق، ومن هذه صفته لا يؤثر جمع مال، ولا مخالطة الخلق، ولا الالتذاذ بالشهوات؛ لأنه إما أن يكون مقصرًا في المعرفة، فهو

(١) سورة هود: ١٥-١٦.

(٢) المرجع السابق، ١٤ / ٢٩.

مقبل على التعبد المحض، يزهد في الفاني لينال الباقي. وإما أن يكون له ذوق في المعرفة، فإنه مشغول عن الكل بصاحب الكل.

فتراه متأدبًا في الخلوة به، مستأنسًا بمناجاته، مستوحشًا من مخالطة خلقه، راضيًا بما يقدر له، فعيشه معه كعيش محب قد خلا بحبيبه، لا يريد سواه، ولا يهتم بغيره.

فأما من لم يُرزق هذه الأشياء، فإنه لا يزال في تنغيص متكدر العيش، لأن الذي يطلبه من الدنيا لا يقدر عليه، فيبقى أبدًا في الحسرات مع ما يفوته من الآخرة بسوء المعاملة»[1].



(١) صيد الخاطر، ٢٥٢.

خامساً: العجب

قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾[2].

آفات العجب:

فإن العجب يدعو إلى الكبر؛ لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى، هذا مع العباد.

ومع الله ﷻ فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، وما يتذكره منها يستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه، بل يظن أنه يُغفر له.

وأما العبادات والأعمال فالمعجب يستعظمها، ويتحدث بها، ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق لها، والتمكين منها، ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها، ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعًا.

---

(١) سورة التوبة: ٢٥.

(٢) سورة النساء: ٤٩.

والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وأن له عند الله منَّة وحقًّا بأعماله التي هي نعمة وعطية من عطاياه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه، ويحمدها ويزكيها.

وإن أعجب برأيه وعقله وعمله منع ذلك من الاستفادة، والاستشارة، والسؤال، فيستبد بنفسه ورأيه، ويستنكف مِنْ سؤال مَنْ هو أعلم منه.

ومن أعظم آفات العجب أن يفتر العبد عن السعي؛ لظنه أنه قد فاز، وأنه قد استغنى، وهذا هو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه.

فهذا وأمثاله من آفات العجب، فلهذا صار من المهلكات.

أنواع العجب وعلاجها:

ومنه العجب بسبب شرف نسبه، وآبائه.

وعلاجه: أن يعلم أن شرف الإنسان بطاعة ربه وتقواه، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1].

وكذلك العجب بكثرة الأتباع من الأولاد والأنصار والعشيرة، ونحو ذلك.

وعلاجه: أن يعلم أن الكل ضعيف عاجز، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[2] لا يملك أحد منهم لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا، وأنهم يموتون ويتركونه، ويهربون منه يوم القيامة، فكيف يعجب بهم؟!

والعجب بالمال، كما قال صاحب الجنتين لصاحبه: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) سورة فاطر: ١٥.

لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾[1].

وعلاجه: أن يتفكر في آفات المال وغوائله، وكثرة حقوقه، وينظر إلى فضيلة الفقراء، وسبقهم إلى الجنة يوم القيامة، ويتذكر أن المال غاد ورائح لا أصل له.

والعجب بالرأي الخطأ كما قال ﷻ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾[2].

وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعُجْبهم بآرائهم.

والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة، مع ظن كونه حقًّا.

وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره؛ لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه، ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، والجهل داء لا يُعرف، فتعسر مداواته جدًّا؛ لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه، إلا إذا كان معجبًا برأيه وجهله فإنه لا يصغي إلى العارف بل يتهمه.

فمن سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة.. فكيف يمكن علاجه؟!

وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده؟!

وعلاجه: أن يكون متهمًا لرأيه أبدًا لا يغتر به، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب، أو سنة، أو دليل عقلي صحيح[3].

يقول الشيخ محمد الشنقيطي حفظه الله: «العجب داء قاتل ما بُلي به إنسان

---

(١) سورة الكهف: ٣٤.

(٢) سورة فاطر: ٨.

(٣) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري، ١٣/ ٤١-٤٣.

إلا هان عند الله عَزَّوَجَلَّ: ولذلك ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه أنه أهلك من ظلم، وأخبر أن سبب هلاكهم هو الغرور، فلذلك ينبغي للإنسان ألا يغتر، فإذا أنعم الله عليك بالمال فاكسر نفسك للكبير المتعال، وأعط الفقير واستعن بها على مراضي الله، وإذا أنعم الله عليك بالصحة فتذكر منّة الله عَزَّوَجَلَّ عليك بها، وأثن على الله عَزَّوَجَلَّ بما هو أهله، واحمده أن عافاك واستعمل جوارحك وعافيتك في طاعته، ولذلك كان أنبياء الله ورسله أعرف الناس بالله، وكان الواحد منهم إذا أعطاه الله نعمة خاف ألا يقوم بشكرها، فإذا كان عندك ذكاء، أو فهم، أو مال، أو غنى، أو جاه، أو غير ذلك فلا تغتر، فكم من إنسان اغتر بماله فأتلفه الله بذلك المال، وكم من إنسان اغتر بصحته فمكر الله عَزَّوَجَلَّ به، وجعل عاقبته من صحته التي اغتر بها وبالًا عظيمًا، ألا ترى الرجل الشجاع يغتر بشجاعته حتى يسلط الله عليه من هو أقوى منه فيعاديه ويظن أن شجاعته تنقذه فتهلكه تلك الشجاعة؟! إياك أن تغتر.

ولذلك كان النبي ﷺ هو أكمل الأمة إيمانًا يظهر لله عَزَّوَجَلَّ الفاقة والحاجة، وكان يقول: «**يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»، فلا تغتر بذكاء ولا بفهم ولا بحول ولا بقوة، ومن وصايا العلماء: (أن الإنسان إذا بلي بداء عالجه بضده) فإذا بليت بالعجب، عالج ذلك العجب باحتقار العمل، وبنسبة ذلك الفضل إلى المنعم فإنك لم تستحقها إلا بفضله وكرم عطائه. وإذا كان الإنسان معجبًا بالطاعة فعليه أن يعاشر الأخيار، حتى يحتقر طاعته في جنب طاعتهم، وأن يكثر من حضور حلق الذكر حتى يتأثر بالعلماء، فيحتقر صلاحه في جنب صلاحهم»[1].

---

(١) دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، للشيخ محمد المختار الشنقيطي، ٢٧/ ١٥.



المعراج الأول

أهمية
أعمال القلوب

المعراج الأول

أهمية أعمال القلوب



قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[1] وقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[2].

إنّ أعمال القلوب أعظمُ الأعمال وأكبرها، فثوابها أعظم الثواب، وعقابها أعظم العقاب، وأعمال الجوارح تابعةٌ لأعمال القلوب، ومبنيَّة عليها، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده**»[3].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيّ ﷺ قال: «**لا يستقيم إيمانُ عبد حتى يستقيم قلبه**»[4] ومعنى استقامةِ القلب توحيدُه لله تعالى، وتعظيمه ومحبَّته له، وخوفه منه، ورجاؤه فيه، ومحبّة طاعته، وبغض معصيتِه.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله لا ينظر إلى صورِكم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[5].

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٥.

(٢) سورة آل عمران: ٥.

(٣) السلسلة الصحيحة: ١٠٩.

(٤) السلسلة الصحيحة: ١٣٠٤٨.

(٥) صحيح مسلم: ٦٧٠٨.

وقال الحسن لرجل: «داوِ قلبك، فإنّ حاجة الله إلى العباد صلاحُ قلوبهم».

إنَّ من أعمال القلوب التي تبعَث على فعل الأعمال الصالحةِ، وترغِّب في الدار الآخرة، وتزجر عن الأعمال السيئة، وتزهِّد في الدنيا، وتكبَح جماحَ النفس العاتية، الإخلاص باعتباره أعظم أعمال القلوب، بل هو أصل من أصول الدين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[1] فإذا ابتغى الإنسان بعمل الدنيا والآخرة وجه الله عَزَّوَجَلَّ كانت نتيجة هذا العمل في الدنيا إحسانًا وإتقانًا، ورضًا وقناعة بما قسم الله ﷻ، فلا يسأل الناس حاجة إلا أعطاهم، ولا يريد منهم رد ما قدم إليهم. وهذا المقام لا يكون في قلب أحدٍ إلا من قلب رجل أخرج الدنيا منه، وجعل فيه الله والدار الآخرة، فتجد المخلص لا ينازع في عز الدنيا، ولا يسأل لماذا فاته حظه منها، وإنما عينه معقودة بما أعده الله ﷻ له في الجزاء الأبدي السرمدي عنده ﷻ.

وكذلك الخوف من الله ﷻ سائقٌ للقلب إلى فعل كلِّ خير، وحاجز له عن كلّ شر، والرجاء قائد للعبد إلى مرضاة الله وثوابه، وباعث للهمم إلى جليل صالح الأعمال، وصارف للنفس عن قبيح الفعال، فأعمال القلوب آكد وأهم من أعمال الجوارح، ويكفي أنّ العمل القلبي هو الفرق بين الإيمان والكفر، فالساجد لله والساجد للصنم كلاهما قام بالعمل نفسه، لكن القصد يختلف، وبناء عليه آمن هذا، وكفر هذا. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أهمية أعمال القلوب: «وهي

(١) سورة البينة: ٥.

من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبته لله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين لله، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك». أ. هـ.

فهذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق باتفاق أئمة الدين، والناس فيها على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات.

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعمال القلوب هي الأصل، وأعمال الجوارح تبع ومكملة، وإنّ النيّة بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء، الذي إذا فارق الروح فمواتٌ، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح» أ. هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسّط عمل القلب، فإن القلب ملكٌ، والأعضاء جنوده، فإذا خبث خبثت جنوده، ولهذا قال النبي ﷺ: « **ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» أ. هـ.

إذًا، فالاهتمام الأول لا بد أن يكون منصبًّا على إصلاح قلبك، على المنزلة الأعلى والأعظم.





المعراج الثاني

الإخـــلاص

قل للذي لا يخلص لا تتعب نفسك

المعراج الثاني

الإخـــلاص



قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾[1].

الإخلاص مفتاح الدين وهو لب العبادة وروحها، قال ابن حزم: النية سر العبودية، وهي من الأعمال بمنزلة الروح من الجسد، ومحال أن يكون في العبودية عمل لا روح فيه؛ إذ هو بمنزلة الجسد الذي لا روح فيه، فهو جسد خراب.

والإخلاص هو أساس قبول الأعمال أو ردها، فهو الذي يؤدي إلى الفوز أو الخسران، وهو الطريق إلى الجنة أو إلى النار، فإن الإخلال به يؤدي إلى إحباط العمل، لأنه ﷻ هو الغني الذي قال: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[2].

ربِّ قلبك بهذا الحديث، وَضَعْهُ نصب عينيك.

معنى الإخلاص:

خلص خلوصًا وخلاصًا، أي صفا وزال عنه شَوْبُه، وخلص الشيء صار

---

(١) سورة البينة: ٥.

(٢) صحيح مسلم: ٧٦٦٦.

خالصًا، وخلصت إلى الشيء وصلت إليه، وخلاص السمن ما خلص منه[1].
فكلمة الإخلاص تدل على الصفاء والنقاء والتنزه من الأخلاط والشوائب.
والشيء الخالص هو الصافي الذي ليس فيه شائبة مادية أو معنوية. وأخلص الدين لله قصد وجهه وترك الرياء. وقال الفيروزابادي: أخلص لله ترك الرياء.

كلمة الإخلاص هي كلمة التوحيد، والمخلصون هم الموحدون والمختارون، وأما تعريف الإخلاص في الشرع فكما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو إفراد الحق ﷻ بالقصد في الطاعة» أي أن تقصده وحده لا شريك له.

ومما قيل في الإخلاص:

- نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.
- إفراد الحق ﷻ بالقصد والطاعة.
- استواء عمل الظاهر والباطن.
- أن يكون العمل لله تعالى، لا نصيب لغير الله فيه.
- تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين.
- تصفية العمل من كل شائبة.
- إنه سر بين الله والعبد، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده والله قد يعلم الملائكة ما يشاء من أحوال العبد.
- الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدًا إلا الله، وإذا داوم عليه الإنسان رزقه الله الحكمة، وهذا غاية فقه العبد في معاملته مع ربه، ألا يطلب شاهدًا من الناس على عمله لأن الناس لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا ولا حياةً ولا نشورًا.

(١) القاموس المحيط، الفيروزابادي ١/ ٧٩٦، والمعجم الوسيط، ص: ٢٤٩.

أهمية الإخلاص:

- الإخلاص من أهم أعمال القلوب، وأعظمها قدرًا، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعمال القلوب هي الأصل».
- الإخلاص أحد شرطي قبول العمل الصالح، قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾[1] فمقياس حسن العمل وقبوله عند الله الإخلاص والمتابعة، لذلك يقول تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠﴾[2].
- الإخلاص يعظّم العمل حتى يزن عند الله جبلًا، والرياء يحقر العمل وإن كان عظيمًا حتى لا يزن عند الله جناح بعوضة، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾[3] يقول ابن القيم في تفسير هذه الآية « وهي الأعمال التي كانت على غير السنة، أو أريد بها غير وجه الله تعالى».
- الإخلاص حصن للمؤمن من نزغات الشياطين، وفتن المضلين، ألم تر إلى الشيطان لّما توعد أن يضل عباد الله قطع الله عليه الطريق فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾[4] فالله ﷻ لّما يأس الشيطان من قلوب المخلصين قال الشيطان: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾[5] فلا يستطيع غوايتهم لأن قلوبهم قد تعلقت

---

(١) سورة الملك: ٢.

(٢) سورة الكهف: ١١٠.

(٣) سورة الفرقان: ٢٣.

(٤) سورة ص: ٨٣.

(٥) سورة ص: ٨٣.

بالله، والله ﷻ يقول: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾[1].

- الحديث عن الإخلاص ضرورة عظيمة كان السلف يعتنون بها، فقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه كتابًا قال فيه: «من خلَصت نيته لله كفاه الله ﷻ ما بينه وبين الناس».
- فغاية الحمق أن يصلح العبد ما بينه وبين الناس، ثم يعمد إلى ما بينه وبين الله فيجعله خرابًا فيطلب رضا الناس بسخط الله، ويطلب مدح الناس بذم الله له، لأن الله لا يحب عمل المرائين، نسأل الله السلامة والعافية.
- ومن تعظيم السلف للإخلاص أنهم كانوا يبتدئون مؤلفاتهم وكتبهم ودروسهم بشرح حديث «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى**»[2].
- وبعضُ الناس يخلط بين النية والإخلاص، والحقيقة أن النية شيء والإخلاص شيء آخر.

الفرق بين النية والإخلاص:

النية: هي العزم على العمل، ومحلها القلب، والتلفظ بها بدعة.

ينبغي استحضار النية في كل عمل، ونية العمل لا تقتصر على عمل الخير، فحتى عمل الشر له نية، فالنية في العمل غير الإخلاص، مثال ذلك الوضوء، عمل يحتاج إلى نية، فأنت تتوضأ لرفع الحدث، ولأن صلاتك لا تصح إلا به، وباعتباره عبادة عظيمة يحبها الله لأنه كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يحافظ**

(١) سورة الإسراء: ٦٥.

(٢) صحيح البخاري: ١.

على الوضوء إلا مؤمن»[1] فالعبد في وضوئه ينوي ثلاثة أمور: نية العبادة، ونية أن تكون لله، وهذا ما يعبر عنه بـ «الإخلاص»، والأخير أنه قام بهذا العمل امتثالًا واستجابةً لأمر الله تعالى، وهذا أكمل شيء في النية أن يستحضر العبد هذه النوايا الثلاث في كل عمل: نية العبادة، نية الامتثال، نية أن يكون لله.

هنا تساؤل.. هل يلزم تجديد النية مع عمل أنت انطلقت له من نية صالحة؟

تجديد النية في هذا الموضع من فضائل الأعمال، لأنه إن جدد النية تجدد له الأجر، فيرجو من الله ما لا يرجوه من غيره.

أيضًا.. النية لها أثر في الأعمال باعتبارها العزم على العمل والقصد إلى فعل الشيء.

والنية في الأعمال المطلقة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- **المعاصي**: فهي لا تتغير بتغير النية، كأن يعزم على شراء آلة لهو لإدخال السرور على قلب أخيه المسلم، فلا تتغير المعصية لأنه ينوي عملًا صالحًا، وهو إدخال السرور على أخيه، ولكنه شر محض.

٢- **الطاعات**: وهي مرتبطة ارتباطًا قويًا في النية بل أصل صحة العمل قائم على النية الصالحة، فالإنسان بنيته يستحضر الثواب، ويكون إن شاء الله هذا طريقًا تضاعف فيه الحسنة إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكذلك يستطيع الإنسان في الطاعات أن يجمع أكثر من نية في عمل واحد، فتنوي الخروج من بيتك لطلب العلم، وحتى تكتب خطواتك بإذن الله في ميزان حسناتك، وحتى تصلي العِشاء جماعة مع المسلمين، أو تخرج من بيتك لتعليم الناس الخير، أو للأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) صححه الحاكم في المستدرك: ٤٤٧.

المنكر، الآن أنت خرجت قاصدًا عبادة واحدة، لكنك استحضرت كم نية؟ نيات كثيرة. فاستبشر تكتب لك بإذن الله ما دمت مستحضرًا لها.

٣- **المباحات**: فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها المباح قربة إلى الله تعالى، مثال ذلك: النوم، الأكل، والشرب والزيارات، كل هذه مباحات تنقلب بنيتك إلى قربات وأعمال صالحة، صحب رجل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في بيته فلما انتصف الليل نام ابن عباس، ولما أتى ثلث الليل الآخر استيقظ، قال الرجل: أتنام يا ابن عباس وأنت ترجمان القرآن؟!

قال: والله إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي.

يقول أحد السلف: إني لأحتسب أن يكون لي نية في كل شيء، في أكلي وشربي ونومي، وفي دخولي للخلاء، وكذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين، هو مطلوب شرعًا.

المخلص هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله عزوجل، ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[1] وقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾[2]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾[3].

---

(١) سورة البينة: ٥.

(٢) سورة الزمر: ١٤.

(٣) سورة الأنعام: ١٦٢.

قال الفضيل بن عياض إن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصًا صوابًا، قيل وما ذاك؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون موافقًا للسنة، ثم قرأ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ (٢) يعني أخلص القصد والعمل لله، والإحسان متابعة السنة، والذين يريدون وجه الله فليبشروا بالجزاء، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ﴾ (٣)، ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (٤).

وأما أهل الرياء فإن الله ذمهم وبيّن عاقبتهم: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ (٥)، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ (٦)، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ (٧)،

---

(١) سورة الكهف: ١١٠.
(٢) سورة النساء: ١٢٥.
(٣) سورة الروم: ٣٨.
(٤) سورة الليل: ١٧-٢٠.
(٥) سورة هود: ١٥.
(٦) سورة الإسراء: ١٨.
(٧) سورة الشورى: ٢٠.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾[1].

وقد مدح الله المخلصين في أكثر من موضع في كتابه ورتب على ذلك الجزاء الكبير: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾[2]، ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾[3].

في غزوة أحد أراد الله الابتلاء والتمحيص: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[4].

وقد علمنا ﷺ أعظم حديث في النيات في العبادات والمعاملات والمباحات قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**».

قال ﷺ: «**من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى**»[5] كذلك فإنما يبعث الناس على حسب نياتهم قال ﷺ: «إنما يبعث الناس على نياتهم»[6]. كذلك من نوى الخير ولم يعمل به كتب له أجره «إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها، كتبتُها له حسنة»[7].

---

(١) سورة الأنفال: ٤٧.

(٢) سورة الإنسان: ٩.

(٣) سورة النساء: ١١٤.

(٤) سورة آل عمران: ١٥٢.

(٥) صحيح ابن حبان ٤٦٣٨، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث حسن.

(٦) سنن ابن ماجه: ٤٢٢٩، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٧) صحيح مسلم: ١٢٨..

أهمية الإخلاص:

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإخلاص محله القلب، والقلوب هي التي عليها مدار الرد والقبول عند الله ﷻ، فكم من إنسان ظاهر عمله أنه صحيح وجيد لكنه لمّا بُني على خراب صار خرابًا، فالنية هي الأصل».

فإن كانت السريرة انطوت على خير، فأبشر بالخير، وإن كانت الأخرى فقد فاتك من الخير ما أوجب أن تبكي عليه.

١- الإخلاص سببُ النجاة في الآخرة:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾[١] قال المباركفوري في تفسير هذه الآية: «هذه السرائر هي ما خفي على الناس وهو ظاهر عند الله ﷻ. ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي يوم القيامة تبلى السرائر وتظهر، ويصبح ما خفي على الناس علانية، والمكنون مشهورًا، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**يرفع لكل غادر لواءٌ يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان بن فلان**»[٢] ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾[٣]: أي قوة من نفسه، فلا يقدر أن ينقذ نفسه من عذاب الله».

أي لا أحد ينصره من عذاب الله لأنه ابتغى الدنيا بعمل الآخرة، نسأل الله السلامة والعافية.

وكان الإخلاص من أسباب النجاة، لأن العبرة في الدنيا بتعاملات الناس مع بعضهم بما ظهر لكل واحد من حاله، هذا فلان العالِم، هذا

---

(١) سورة الطارق: ٩.

(٢) صحيح مسلم: ٤٦٢٧.

(٣) سورة الطارق: ١٠.

العابد، لكن حقيقة كل هذه الصفات الدنيوية التي يطلقها البشر بعضهم على بعض ليست هي محل نظر الرحمن، والحقيقة أن الذي يريده الله ﷻ منك ما انطوت عليه سريرتك من خير، فصلاح البواطن هو المعتبر عند الله ﷻ، فإذا وافق الظاهر ما في الباطن، ووافق ما في السر ما في العلانية، هنا يصبح العمل والعامل عظيمًا محبوبًا عند الله عَزَّوَجَلَّ.

فما أعظم أن يكون باطن العبد خيرًا من ظاهره، وسره خيرًا من علانيته، نسأل الله من فضله.

وإذا صار القلب منطويًا على نية فاسدة من حب الظهور والشهرة ومدح الناس وثنائهم فما أعظم خسارته! فلا يعمل ولا يتعب، لأنه ليس له حظ في عمله، ولأن الله عَزَّوَجَلَّ قال في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(١).

٢- اجتماع القلب وزوال الهم لا يكون إلا بالإخلاص؛ لأن المخلص لا يبكي على فوات حظه من الدنيا، والنبي ﷺ قال: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**»(٢).

٣- الإخلاص سبب للأجر العظيم والثواب الجزيل.

يقول ﷺ: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في فم امرأتك**» (٣)؛ لأن المخلص لا يبتغي ببذله ولا عطائه إلا الله،

(١) صحيح مسلم: ٧٦٦٦.

(٢) سنن الترمذي: ٢٤٦٥، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٣) السلسلة الصحيحة: ٧٥٢.

فيؤجر أجرًا عظيمًا ويثاب كثيرًا وتتضاعف حسناته بالعبادات والمباحات ويسبق الناس بما وقع في قلبه من نية وإخلاص علامة له في عمله ظاهرة للجميع، فتكون الثمرة الرزق العظيم.

٤- الإخلاص نجاة من العذاب العظيم يوم الدين:

فقد أخبرنا ﷺ عن أول منْ تُسعَّر بهم النار يوم القيامة وهم متصدق أنفق ليقال جواد، وقارئ تعلم العلم وعلمه ليقال عالم، ومجاهد قاتل ليقال جريء، وهذا الحديث من رواية أبي هريرة فكان يغشى عليه كلما أراد التحديث به، ويمسح وجهه بالماء حتى يستطيع التحديث به، وفي إرادة الدنيا بطلب العلم يقول ﷺ: «**من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله لم يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة**»[١] وقال: « من تعلم العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار»[٢].

فلابد أن نقف مع أنفسنا محاسبين لها، إذا كانت هذه أحوال من أعمالهم جليلة وعظيمة. فكيف بمن قد عرف بمعصية أو تلبس ببدعة؟! الله المستعان.

والإخلاص ينجي صاحبه يوم يقول الله للمرائين: «اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟».

٥- الإخلاص ينجي الإنسان من حرمان الأجر ونقصانه:

ولذلك فإن النبي ﷺ عندما جاءه رجل يسأل: أرأيت رجلًا غزا

---

(١) سنن الترمذي: ٢٣٨٢،قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) سنن الترمذي: ٢٦٥٤، قال الشيخ الألباني: حسن.

يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال: «لا شيء له» (ثلاثًا) إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه[١].

وعن ابن مكرز رجل من أهل الشام قال: «يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضًا من عرض الدنيا» فقال ﷺ: «**لا أجر له**». فأعظم ذلك الناس فقالوا عد لرسول الله ﷺ فلعلك لم تُفَهِّمْهُ، فقال له: «**لا أجر له**»[٢].

قال ﷺ: قال الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[٣].

٦- الإخلاص أساس أعمال القلوب، وأعمال الجوارح تبع ومكمل له، الإخلاص يعظم العمل الصغير حتى يصبح كالجبل، كما أن الرياء يحقر العمل الكبير حتى لا يزن عند الله شيئًا: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[٤].

قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رب عمل صغير تكثره النية، ورب عمل كبير تصغره النية».

٧- الإخلاص ينجي العبد من وسوسة الشيطان، وينجيه من الفتن، فالمرء ينجو من الفتن بالإخلاص، ويجعل له حرزًا من الشهوات ومن الوقوع في براثن أهل الفسق والفجور، لذلك نجى الله يوسف عليه السلام من فتنة امرأة العزيز بإخلاصه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ

(١) سنن النسائي: ٣١٤٠، قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.
(٢) سنن أبي داود: ٢٥١٦.
(٣) صحيح مسلم: ٧٦٦٦.
(٤) سورة الفرقان: ٢٣.

رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ (١) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (٢). عرضت الفتنة ليوسف عليه السلام وتزينت له لم يمنعه عنها إلا خشيته لله وإخلاصه فحماه الله بذلك، وعلى قدر تعظيم العبد لله في خلواته يعصمه الله في جلواته، لم يخف يوسف من التهديد بالسجن بل اختار السجن على الحرية التي قد يتعرض بها إلى الفتن، فكم من حر طليق لكنه أسير شهواته سجين معاصيه.

٨- الإخلاص سبب لقبول الأعمال عند الله

ومن ذلك الإخلاص في التوحيد: قال ﷺ: «**ما قال عبد: لا إله إلا الله قط مخلصًا إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر**» (٣).

في السجود: قال ﷺ: «**ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط بها عنه خطيئة**» (٤).

في الصيام قال ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**» (٥).

«**من صام يومًا في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا**» (٦).

---

(١) سورة يوسف: ٢٤.

(٢) سورة الصافات: ٤٠-٤٢.

(٣) سنن الترمذي: ٣٥٩٠، قال الشيخ الألباني: حسن.

(٤) سنن ابن ماجه: ١٤٢٤، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٥) صحيح البخاري: ١٨٠٢.

(٦) صحيح مسلم: ٢٧٦٩.

في قيام الليل: قال ﷺ: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»[١].

الإخلاص في الخروج إلى المساجد: «**من خرج للمسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخطُ خطوة إلا رفعت له بها درجة وحُطّ عنه بها خطيئة، فإذا صلى، لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة**»[٢].

الإخلاص في طلب الشهادة: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»[٣].

الإخلاص في اتباع الجنائز: «**من اتبع جنازة مسلم إيمانًا واحتسابًا وكان معه حتى يُصَلَّى عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط كأحد، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تُدفن فإنه يرجع بقيراط**»[٤].

الإخلاص في التوبة: «قصة قاتل المائة نفس وملائكة الرحمة».

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفسًا. فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنَّه قتل تسعةً وتسعين نفسًا. فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله، فكمَّل به مائةً. ثمَّ سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم. فقال: إنَّه قتل مائةَ نفس. فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحولُ بينه وبين التَّوبةِ؟ انطلق إلى أرضِ كذا وكذا. فإنَّ بها أُناسًا يعبدون الله فاعبُدِ

(١) صحيح البخاري: ٣٧.
(٢) صحيح البخاري: ٦٤٧.
(٣) صحيح مسلم: ٥٠٣٩.
(٤) صحيح البخاري: ٤٧.

اللهَ معهم. ولا ترجِعْ إلى أرضِك فإنَّها أرضُ سوءٍ. فانطلق حتَّى إذا نصَف الطَّريقَ أتاه الموتُ. فاختصمت فيه ملائكةُ الرَّحمةِ وملائكةُ العذاب. فقالت ملائكةُ الرَّحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله. وقالت ملائكةُ العذابِ: إنَّه لم يعمَلْ خيرًا قطُّ. فأتاهم ملَكٌ في صورةِ آدميٍّ. فجعلوه بينهم. فقال: قِيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيَّتهما كان أدنَى، فهو له. فقاسوه فوجدوه أدنَى إلى الأرض الَّتي أراد. فقبضته ملائكةُ الرَّحمةِ. قال قتادةُ: فقال الحسنُ: ذُكِر لنا أنَّه لَمَّا أتاه الموتُ نأَى بصدرِه[1].

من حُرم الإخلاص فقد فاته الكثير من البركة والتوفيق إلا من رحمه الله، فكيف يكون النصر للأمة والتمكين إلا بالإخلاص. مشاريع دعوية ومؤسسات خيرية تلوثت بالرياء، وأريد بها الرئاسة والجاه والمال.. ولأن الشيطان فاز بها فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك.

الإخلاص شرط من شروط قبول الأعمال، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[2] أحسن عملًا أي ما كان خالصًا صوابًا.

٩- أنه يقلب المباحات إلى عبادات وينال بها عالي الدرجات:

فالإخلاص أصل قبول الأعمال ومضاعفتها الذي إذا وُضع على أي عمل من المباحات أو من العادات، جعله عبادة وقربة، فإذا قام العبد بشيء من الأمور المباحة: كالنوم، أو الأكل، أو الشرب، أو المشي لزيارة أو لحاجة، أو غير ذلك، يريد به التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ كأن يقوي بدنه ليجاهد في سبيل

(١) صحيح مسلم: ٢٧٦٦.

(٢) سورة الملك: ١.

الله، وكأن ينام في النهار من أجل أن يقوم الليل، وكأن يأكل ليتقوى على الطاعة، فكل ذلك يكون عبادة في حقه؛ ولهذا كان حرص السلف على أن يكون لهم في كل عمل نية، كما قال زبيد اليامي: «إني لأحب أن تكون لي نية في كل شيء حتى في الطعام والشراب».

قال ابن أبي جمرة: وددت لو أنه كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أُتِيَ كثير من الناس إلا من تضييع ذلك.

١٠- الإخلاص سبب لنقاء القلب من الحقد والغل:

قال ﷺ: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه**»[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم، إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تُحيط من ورائهم**»[٢]، فمتى ما قوي الإخلاص في قلبك أخرج الدنيا وما فيها من غل وحسد وحقد، فقلب فيه غل سيطرد الإخلاص، وقلب فيه إخلاص سيطرد الغل، أيهما قوي طرد الضعيف.

١١- الإخلاص سبب للمغفرة الكبيرة للذنوب:

كما في حديث صاحب البطاقة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله سيخلِّص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًّا كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟** فيقول:

---

(١) سنن النسائي: ٣١٤٠، قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.

(٢) سنن ابن ماجه: ٢٣٠، قال الشيخ الألباني: صحيح.

لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فقال: إنك لا تُظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة؛ فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء»[1].

وجاء في الصحيحين وغيرهما من رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئرًا فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: «لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي»، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له»، قالوا يا رسول الله: وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «**في كل كبد رطبة أجر**». وفي حديث آخر في الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة مرفوعًا: «**بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به**» فقام في قلبها في تلك الساعة من الإخلاص ما أوجب المغفرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله له به كبائر، كالبغي التي سقت كلبًا فقد حضر في قلبها من الإخلاص ما لا يعلمه إلا الله فغفر الله لها »[2]..

---

(١) سنن ابن ماجه: ٤٣٠٠، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) منهاج السنة النبوية (٦/ ٢١٨ - ٢٢٠).

١٢- الإخلاص سبب لتفريج الكربات

والدليل على ذلك حديث الثلاثة الذين حبستهم صخرة ففرج الله همّهم، وكان منهم الرجل الذي وفى عاملًا أجره ونماه وصبر على ذلك سنين، وقد كان يقول كل واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه.

١٣- الإخلاص سبب لإدراك الأجر إن عجز عن العمل أو حُبس عنه، بل ويصل لمنازل الشهداء والمجاهدين وإن مات على فراشه ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾[1]. وقال ﷺ: «**إن أقوامًا خلفنا في المدينة ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا حبسهم العذر**»[2].

١٤- الإخلاص من أسباب حصول الأجر للعالم المجتهد وإن أخطأ:

فبالإخلاص يؤجر المرء ولو أخطأ كالمجتهد والعالم والفقيه، وهو نوى بالاجتهاد استفراغ الوسع وإصابة الحق لأجل الله، فلو لم يصب فهو مأجور على ذلك.

سير في الإخلاص:

لقد مر في الأمة كثير من المخلصين كانت سيرهم نبراسًا لمن بعدهم وقدوة، لذلك أبقى الله سيرتهم وذكرهم حتى يقتدي بهم من بعدهم، وعلى رأس هؤلاء النبي محمد ﷺ وصحبه الكرام ومن جاء بعدهم وسار على نهجهم إذ بلغوا بنيتهم الخالصة البقاء في قلوب الناس وفي تاريخ الأمة إلى

(١) سورة التوبة: ٩٢.

(٢) صحيح البخاري: ٢٨٣٩، وفي مسلم: إلا شَرِكُوكُمْ في الأجر.

يومنا هذا وما زالوا قدوة أحياء يقتفى أثرهم.

يقول عبدة بن سليمان: كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله ثم آخر فقتله ثم آخر فطعنه فقتله ثم آخر فقتله ثم دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه الرجل فقتله فازدحم الناس عليه ليعرفوا من هو فإذا هو ملثم وجهه، فإذا هو عبدالله بن المبارك فقال لائمًا: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنع علي؟!

يقول الحسن البصري: «إن كان الرجل جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لينفق النفقة الكثيرة وما يشعر الناس به، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته ولم يشعر الناس به، ولقد أدركت أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدًا».

ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم؛ ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[1].

يقول علي بن بكار البصري الزاهد: «لأن ألقى الشيطان أحب إلي من أن ألقى فلانًا أخاف أن أتصنع له فأسقط من عين الله» فقد كان السلف يخشون من قضية المجاملات.

قال هشام الدستوائي: «والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يومًا قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عز وجل»، وهذا من حرصهم -رحمهم الله- ألا يزكوا أنفسهم.

---

(١) سورة الأعراف: ٥٥.

يقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس».

ومن عجائب المخلصين ما حصل مع صاحب النفق، إذ حُصِرَ المسلمون في حصن واشتد عليهم رمي الأعداء، فقام أحد المسلمين وحفر نفقًا فانتصر المسلمون، ولا يُعرَف من هو هذا الرجل، وأراد مَسْلَمَة قائد الجيش آنذاك أن يعرف الرجل لمكافأته، ولما لم يجده سأله بالله أن يأتيه، فأتاه طارق بليل وسأله شرطًا وهو أنه إذا أخبره من هو لا يبحث عنه بعد ذلك أبدًا، فعاهده، وكان يقول: « اللهم احشرني مع صاحب النفق».

ولعظم إخلاصهم كان عمل الخفاء أحب إليهم من عمل الجلاء.

يقول حماد بن زيد: «كان أيوب ربما حدث بالحديث فيرقّ وتدمع عيناه، فيلتفت ويمتخط ويقول: ما أشد الزكام!! فيظهر الزكام لإخفاء البكاء».

يقول محمد بن واسع التابعي: «إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته لا تعلم».

وللإمام الماوردي قصة عطرة في الإخلاص في تصنيف الكتب؛ فقد ألف المؤلفات في التفسير والفقه وغير ذلك ولم يُظهِر شيئًا منها في حياته، ولما دنت وفاته قال لصاحب له: «الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي، وإنما لم أظهرها لأني لم أجد نية خالصة، فإذا عاينت الموت ووقعت في النزع فاجعل يدك في يدي فإن قبضت عليها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء فاعمد إليها وألقها في دجلة بالليل وإذا بسطت يدي فاعلم أنها قبلت، فلما حضرته الوفاة بسط يده، فأظهرت كتبه بعد ذلك».

كان علي بن الحسين يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين بالظلمة، وكان أناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين معاشهم، فلما مات عرفوا، ورأوا على ظهره آثارًا مما كان ينقله من القرب والجرب بالليل إذ كان يعول مائة بيت.

وهكذا كان أحدهم يدخل في فراش زوجته فيخادعها فينسل لقيام الليل ولا تدري عنه.

وهكذا صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله فكان يأخذ إفطاره ويتصدق به على المساكين ويأتي على العشاء..

وهذا أعرابي كان مع النبي ﷺ وقال له: أهاجر معك، فغنموا بعد خيبر وقسم للأعرابي وأصحابه وكان يرعى دوابهم فلما جاءوه قال للنبي ﷺ ما هذا الذي وصلني؟ ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا بسهم فأموت فأدخل الجنة. قال ﷺ: «**إن تصدق الله يصدقك**»، فلبثوا قليلًا وهاجموا العدو وأثاب الله الأعرابي كما طلب فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أهو هو؟ قالوا: نعم، قال ﷺ: «**صدق الله فصدقه**» فكُفِّن في جبة النبي ﷺ ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من دعاء النبي ﷺ في الصلاة «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك وقتل شهيدًا، أنا شهيد على ذلك**»[1].

تلك الأحوال والقصص أظهرها الله ليكون أصحابها أئمة في إخلاصهم مع عظيم أعمالهم ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾[2].

---

(١) سنن النسائي: ١٩٥٣، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) سورة الفرقان: ٧٤.

بعض أقوال العلماء في الإخلاص:

قال إبراهيم بن أدهم: «ما صدق الله عبدٌ أحب الشهرة».

قال بعضهم: ينبغي للعالم أن يتحدث بنية وحسن قصد، فإن أعجبه كلامه فليصمت، وإن أعجبه الصمت فلينطق. فإن خشي المدح فليصمت ولا يفتر عن محاسبة نفسه فإنها تحب الظهور والثناء.

سُئِل سهل بن عبد الله التستري: أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب. فمع الإخلاص تنسى حظوظ النفس.

قال سفيان: ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي إنها تتقلب علي، إذا أراد أن يجاهد نفسه يجد تقلبات، ولا يدري أهو في إخلاص أم رياء، والمؤمن لا تسلم له نفسه دائمًا فهو في صراع معها ومع الشيطان، وهذا علامة خير، أما من اطمأنت نفسه بحاله فمثل هذا عليه أن يراجع نيته.

قال يحيى بن أبي كثير: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل.

عن داود الطائي: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيرًا وإن لم تنصب. أي حتى وإن لم تتعب فإن ما حصلته من اجتماع نفسك لله وإخراج حظوظ النفس من قلبك، هذا أمر عظيم.

هذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما سبق الناس بأنه كان أكثرهم صلاة وصيامًا بل بشيء وقر في قلبه.

قال داود الطائي: البر همة التقي، ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا لردته يومًا نيته إلى أصلها.

قال يوسف بن أسباط: تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد.

قيل لنافع بن جبير: ألا تشهد الجنازة؟ فقال: كما أنت حتى أنوي. أي انتظر حتى أجاهد نفسي.

قال الفضيل: إنما يريد الله عَزَّوَجَلَّ منك نيتك وإرادتك.

ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، وما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

والمخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته، ومن شاهد في إخلاصه إخلاصًا فإن إخلاصه يحتاج إلى إخلاص.

وقال أبو سليمان الداراني: «إذا أخلص العبد انقطع عنه كثرة الوساوس والرياء».

كان السلف يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا يعلم عنها أهل بيته وصديقه. وأعز شيء في الدنيا الإخلاص. يقول يوسف بن الحسين: «كم أجتهد في إسقاط الرياء من قلبي فينبت لي على لون آخر».

مسائل في الإخلاص:

١ - متى يكون إظهار العمل مشروعًا؟

قال ابن قدامة: «فصل في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات» قال: وفي الإظهار فائدة الاقتداء، ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد، والمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي بل ينوي الاقتداء به «إذًا ينبغي أن نحسن نياتنا في الأعمال المظهرة لندفع الرياء وننوي الاقتداء لنأخذ الأجر»، قال: ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، ومثل الذي يظهره وهو ضعيف كمثل إنسان سباحته ضعيفة فنظر إلى جماعة

من الغرقى فرحمهم فأقبل إليهم فتشبثوا به وغرقوا جميعًا.

والمسألة فيها تفصيل كما يلي:

- الأعمال التي من السنة أن يكون عملها سرًّا يسرّ.
- الأعمال التي من السنة أن يظهرها يظهرها.
- الأعمال التي من الممكن أن يسرها أو يظهرها، فإن كان قويًّا يتحمل مدح الناس وذمهم فإنه يظهرها، وإن كان لا يقوى فيخفي، فإذا قويت نفسه فلا بأس بالإظهار لأن الترغيب في الخير خير، على ألا يغفل عن نية الاقتداء وأن يظهر إلى ربه الافتقار أن يتقبل منه ويعيذه من شر نفسه.

ورد عن بعض السلف أنهم كانوا يظهرون بعض أعمالهم الشريفة ليقتدى بهم كما قال بعضهم لأهله حين الاحتضار: «لا تبكوا علي فإني ما لفظت سيئة منذ أسلمت».

قال أبو بكر بن عياش لولده -رحمهم الله-: «يا بني إياك أن تعصي الله في هذه الغرفة فإني ختمت القرآن فيها اثني عشرة ألف ختمة» فمن الممكن أن يظهر المرء أشياء لأناس معينين مع بقاء الإخلاص في عمله لقصدٍ صالح.

وكذلك من كان يستحب في حقه إظهار العمل فليظهره كأن يكون عالمًا يقتدى به أو أن العمل الذي يعمله المشروع فيه الإظهار.

٢- ترك العمل خوف الرياء، وهذا منزلق كشفه الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما»، قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عزم على عبادة وتركها مخافة أن يراه الناس فهو مُراءٍ؛ لأنه ترك لأجل الناس لكن لو ترك

العمل ليفعله في الخفاء فلعله من المخلصين». فمن ترك العمل بالكلية وقع في الرياء، ومن طلب مدح الناس أو ثناءهم فقد وقع في الرياء.

٣- أن من دعا إلى كتم جميع الأعمال الصالحة عن جميع الناس؛ هذا منافق وقصده إماتة الإسلام، لأن المنافقين إذا رأوا أمر خير وسموه بالرياء، فهدفهم تخريب نوايا المسلمين وألا يظهر في المجتمع عمل صالح، فهؤلاء ينكرون على أهل الدين والخير إذا رأوا أمرًا مشروعًا مظهرًا، فلذلك إذا أظهر أحد الأخيار شيئًا من أعماله الصالحة، وناله الأذى من هؤلاء المنافقين؛ فليصبر على إظهاره ما دام لله، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

الفرق بين الرياء ومطلق التشريك في العمل:

ينبغي أن نفرق بين الرياء ومطلق التشريك في العمل، الرياء: هو أن يعمل الرجل عملًا شرعيًّا يقصد به غير وجه الله.

والتشريك في العمل: أن يعمل الرجل عملًا شرعيًّا وينوي مع قصد وجه الله شيئًا آخر.

وبالنظر في الأمرين السابقين نقول: إن العمل الشرعي ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يعمل لله ولا يلتفت إلى شيء آخر (أعلى المراتب).

الثاني: أن يعمل لله ويلتفت إلى أمر يجوز الالتفات إليه، مثل رجل صام ومع نية الصيام لله أراد حفظ صحته، ورجل نوى الحج والتجارة، ورجل جاهد ونظر إلى مغانم، ورجل مشى إلى المسجد وقصد

(١) سورة التوبة: ٧٩.

الرياضة، ورجل حضر الجماعة لإثبات عدالته وألا يتهم، فهذا لا يبطل الأعمال ولكن ينقص من أجرها، والأفضل ألا تكون موجودة ولا مشركة في العمل ولا داخلة فيه أصلًا.

الثالث: أن يلتفت إلى أمر لا يجوز الالتفات إليه من الرياء والسمعة وحمد الناس طلبًا للثناء ونحو ذلك، فهذا له أحوال:

- إذا كان في أصل العمل فإنه يبطله كأن يصلي الرجل لأجل الناس.
- أن يعرض له خاطر الرياء أثناء العمل فيدافعه ويجاهده، فعمله صحيح وله أجر على جهاده.
- أن يطرأ عليه الرياء أثناء العمل ولا يدافعه ويستمر معه وهذا يبطل العمل.

الرابع: أن يكون عمله الصالح للدنيا فقط، فيصوم لأجل الحمية ولا يطلب الأجر، ويحج للتجارة فقط، ويخرج زكاة أمواله لتنمو، ويخرج للجهاد للغنيمة، فهؤلاء أعمالهم باطلة ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾[1].

الخامس: أن يكون عمله رياءً محضًا، وبالرياء يحبط العمل بل ويأثم به العبد، ومن الناس من يرائي في فتواه للأغنياء والوجهاء لضعفه أمامهم، قال بعض السلف: «إذا رأيت العالم على باب الغني والسلطان فاعلم أنه لص»، أما الذي يذهب لقصد الإنكار والخير فله ما نوى.

---

(١) سورة الإسراء: ١٨.

هناك أشياء تظن من الرياء وليست منه:

- إذا حمدك الناس على الخير بدون قصد منك فهذا عاجل بشرى المؤمنين.
- رجل رأى العابدين فنشط للعبادة لرؤيته من هو أنشط منه.
- تحسين وتجميل الثياب والنعل وطيب المظهر والرائحة.
- كتم الذنوب وعدم التحدث بها، فبعض الناس يظن أنك حتى تكون مخلصًا لابد من الإخبار بالذنوب، نحن مطالبون شرعًا بالستر، وكتم الذنوب ليس رياءً بل هو مما يحبّه الله، بل إن ظن غير ذلك تلبيس من الشيطان وإشاعة للفاحشة وفضح للنفس.
- اكتساب شهرة بغير طلبها، كعالم اشتهر وقصده منفعة الناس وبيان الحق ومحاربة الباطل والرد على الشبهات ونشر دين الله، فإن كانت هذه الأعمال وجاءت الشهرة تبعًا لها وليست مقصدًا أصليًا فلا يعد من الرياء. فليس من الرياء أن يشتهر المرء ولكن الشهرة يمكن أن توقع في الرياء!!

علامات الإخلاص:

- الحماس للعمل للدين وبذل الوسع والجهد لذلك.
- أن يكون عمل السر أكبر من عمل العلانية.
- المبادرة للعمل واحتساب الأجر.
- الصبر والتحمل وعدم التشكي أو التراجع عن العمل إن لم يجد حامدًا أو إن وجد ذامًّا.
- الحرص على إخفاء العمل.

- إتقان العمل في السر والإحسان في ذلك سواء أعماله القولية أو الفعلية أو القلبية.
- الإكثار من العمل في السر ودعوة الناس إلى ذلك دون الإشارة إلى عمله.

كيف أكون من المخلصين؟

* معرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته، إذا عرف العبد ربه حق المعرفة فإنه يخرج من قلبه حب الدنيا وحب الناس وحب الثناء منهم ومدحهم والتقرب لهم، والسعي إلى مرضاتهم، فيكون هم هذا العبد أن يرضى عنه الله فقط، فيجعل همه منصرفًا لذلك، فيحرص على رضا ربه، فلا يريد ثوابًا إلا منه، ولا عطاءً إلا منه، ومن عقد عينه بالله فلا خابت عينه، ولن ترجع هذه العين حسيرة ولا مكسورة، لأنها قد تعلّقت بالله جل وعلا، ولا تجارة أعظم ولا أربح من هذا.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾[1].

بعد هذه الآية مباشرة جاء قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾[2].

إذا تعرفت على أسماء الله وصفاته تعلق قلبك به ﷻ فأحببته، وإذا أحببته أحببتَ قربه وطاعته وأمره.

الحياء من نظر الله إلى القلب وفيه لوثة من لوثات الرياء، لأنه يعلم خائنة

(١) سورة آل عمران: ٢٩.

(٢) سورة آل عمران: ٣٠.

الأعين وما تخفي الصدور، فتستحي أن يرى الله في قلبك حب محمدة الناس، والخوف من ذمهم، وتخشى أن يقال لك في يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئًا: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1] فإذا كان يهولك ذاك المقام ويشغلك ويقلقك لأن قلبك مؤمن مخلص، فأعدّ له العدّة، لأنه لا يأتي بالأمنيات بل بالعمل الدؤوب لله تعالى، لذلك أرشدنا النبي ﷺ لطريقة نخلص فيها لله عَزَّوَجَلَّ في معنى الإحسان لما قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

* اللجوء إلى الله بالدعاء، فهو وحده القادر على دفع المكروهات، والإعانة على الطاعات، يقول النبي ﷺ عن كرم الرب: «**إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبتين**»[2].

وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك مما لا أعلم**».

وكان من دعاء مطرّف بن الشخّير «اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أفِ لك به، وأستغفرك من عمل زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي فيه شيء علمته ولم أعلمه».

* معرفة عواقب الرياء، قد وردت أحاديث كثيرة تبين عاقبة الرياء، ومن أعظمها قول الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[3]. فتأمل معنى اسمه الغني جل جلاله فهو غني عن عبادة خالطها غيره.

(١) سورة البقرة: ٤٨.

(٢) سنن أبي داود: ١٤٩٠، قال الألباني: صحيح.

(٣) صحيح مسلم: ٧٦٦٦.

وفي الحديث العظيم يقول ﷺ: «**أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال فلان جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها قال: ما تركت من سبيل تحب كما أردت أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكن ليقال إنه جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه فألقي في النار**»[1].

- معرفة ثمرات الإخلاص، فإذا تعرف العبد على ثمرات الإخلاص قال لنفسه: يا نفس يرضيك أن الناس يقطعون مع الله طرقًا عظيمة بالإخلاص، وتبقين يا نفس آخرهم لأنك تريدين الدنيا، ماذا ينفع الناس! ماذا يضرون! ماذا يعطون! بل ماذا يمنعون؟
- إخفاء العبادة وإسرارها، وهذا كان دأب سلفنا الصالح، فكانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها، فلله در المخلصين أخفوا أعمالهم حتى عن أنفسهم، فأنفق نفقةً فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، لأن مثل

(١) سنن النسائي: ٣١٣٧، وقال الشيخ الألباني: حديث صحيح.

هذا المخلص وضع بين عينيه ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾[1] و﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾[2] فهو يستحي أن يتزين أمام الناس بما ليس فيه وأن يظهر لله قبيح فعله.

- صحبة المخلصين وعباد الله الصالحين، « **فالمرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[3].
- الزهد فيما عند الناس، ربِّ نفسك على الترفع عما عند الناس، ولا تنظر إلى محامدهم ومذامهم، فإن الناس لا يسلم منهم أحد، حتى ربهم سبحانه، يقول ﷺ: «**ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى يسمعه من الله** عَزَّوَجَلَّ **إنهم ليدعون له ولدًا وإنه ليعافيهم ويرزقهم**»[4].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء، والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا طلبت الإخلاص فأقبل على الطمع فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيه زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص».

- محاسبة النفس، فينبغي للعبد أن يحاسب نفسه على الخطرات واللحظات ماذا أراد بها؟ وهل هي لوجه الله خالصة أم أراد بها

---

(١) سورة الطارق: ٩.

(٢) سورة العاديات: ١٠.

(٣) سنن الترمذي: ٢٣٧٨.

(٤) صحيح البخاري: ٦٠٩٩.

عرضًا من الدنيا قليلًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[1].

- القراءة في سير السلف الصالح، لا شيء أعظم للنفس تربية بعد قراءة القرآن والسنة مثل القراءة في سير السلف،ترى منهم إخلاصًا عجيبًا، تدعوك نفسك معه إلى مزيد تربية وتوجيه لها.
- تذكر ورجاء ما أعد الله لعباده المخلصين في جنات النعيم، قال تعالى مبشرًا أهل الإخلاص: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾[2]. فسورة الصافات جديرة بالتأمل والتدبر في وصفها لعباد الله المخلصين.



(١) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٢) سورة الصافات: ٩٤.

المعراج الثالث

الإحسان



هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ

المعراج الثالث

الإحسان

معنى الإحسان:

لغة:

الحُسْنُ ضدُّ القُبْح، والإحْسانُ ضدُّ الإساءة ورجل مُحْسِن ومِحسان، والمحاسن في الأعمال ضد المساوئ [1].

اصطلاحًا:

الإحسان مرتبةٌ اصطفى الله تعالى لها قلوب أوليائه، جاء في الحديث لما سُئل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» [2].

يقول تعالى في بيان تمام علمه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [3].

فمعنى الإحسان استحضار عظمة الله ومراقبته في كل حال، وكأن الإحسان هو المظلة التي يستظل بظلها كل مؤمن، فحبه لله إحسان، وحب

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، الجزء ١٤، ص ١١٤.

(٢) صحيح البخاري: ٥٠.

(٣) سورة الحديد: ٤.

الله له إحسان، وإحسانه للخلق وصبره على آذاهم وعفوه عن ظلمهم إحسان، وبره لوالديه إحسان وإحسانه في تربية أبنائه، وحسن التبعل وأداء حق الزوجة كل ذلك لا يخلو من الإحسان.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ارتباط الإحسان بمراقبة الله: «من منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1] منزلة المراقبة وهي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين بذلك هو المراقبة»[2].

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن منزلة الإحسان: «هو لب الإيمان وروحه وكماله وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل فجميعها منطوية فيها».

قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾[3].

فالإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق وهو أن تعبد الله كأنك تراه، أما الآية: فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ والمفسرون: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد إلا الجنة؟[4].

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مقام الإحسان والمراقبة، وهو **أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**، وتعلم أن الله معك، لا تتكلم ولا تفعل ولا تتصرف إلا والله يراك ويشاهدك ويعلم سرك وجهرك، وأن تلزم الأدب مع الله»[5].

---

(١) سورة الفاتحة: ٥.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، الجزء ٢، ص ٦٥.

(٣) سورة الرحمن: ٦٠.

(٤) المرجع السابق، الجزء ٢، ص ٤٥٩.

(٥) التنبيهات اللطيفة، السعدي، الجزء ١، ص ٦٢.

وروده في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[1].

نقل السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال عن هذه الآية: «إنها أجمع آية في كتاب الله للخير والشر»[2].

ونقل ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره عن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال عن هذه الآية: «العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملًا، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته»[3].

وقال تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾[4].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها: «أي ما لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة»[5].

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية العظيمة: «أي هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده، إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم؟ فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين»[6].

---

(١) سورة النحل: ٩٠.

(٢) الدر المنثور، السيوطي، الجزء ٥، ص ١٦٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، الجزء ٢، ص ٧٠٩.

(٤) سورة الرحمن: ٦٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، الجزء ٤، ص ٣٣٥.

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، الجزء ١، ص ٨٣١.

ونقل الطبري عن قتادة رَحِمَهُمَاٱللَّهُ قال: «عملوا خيرًا فجُوزُوا خيرًا»[1].

جاء في حديث جبريل الطويل لما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لم تكنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[2].

يقول الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ في شرح هذا الحديث:

«هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ؛ لأنَّا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه ﷻ لم يترك شيئًا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به، فمعنى قوله ﷺ: «أي اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله ﷻ عليه، فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يعمل بمقتضاه، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك»[3].

ويقول ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ:

«الإحسان مصدر، تقول: أحسن يحسن إحسانًا. ويتعدى بنفسه وبغيره تقول أحسنت كذا إذا أتقنته، وأحسنت إلى فلان إذا أوصلت إليه النفع، والأول: هو المراد لأن المقصود إتقان العبادة، وقد يلحظ الثاني بأن المخلص مثلًا محسن بإخلاصه إلى نفسه، وإحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ٢٣، ص ٦٨.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، الجزء ١، ص ١٥٧.

وفراغ البال حال القيام بها ومراقبة المعبود، وأشار في الجواب إلى حالتين: أرفعهما أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه وهو قوله: كأنك تراه، أي: وهو يراك، والثانية أن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل، وهو قوله «فإنه يراك». وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته»[1].

وقال ﷺ في الحديث: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فأَحْسِنُوا الذبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدكمْ شَفرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»[2].

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذا الحديث:

«أي في كل شيء، ولم يقل: إلى كل شيء، بل قال: على كل شيء، يعني أن الإحسان ليس خاصًّا بشيء معين من الحياة بل هو في جميع الحياة، ثم ضرب الأمثلة على ذلك»[3].

درجات الإحسان:

١- الإحسان في القصد بتهذيبه علمًا وإبرامه عزمًا وتصفيته حالًا.

وإحسان القصد يكون بثلاثة أشياء:-

الأول: تهذيبه علمًا بأن يجعله تابعًا للعلم على مقتضاه مهذبًا به منقى من شوائب الحظوظ فلا يقصد إلا ما يجوز في العلم، والعلم هو اتباع الأمر والشرع.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، الجزء ١، ص ٨٠.

(٢) صحيح مسلم: ١٩٥٥.

(٣) شرح الأربعين النووية، ابن عثيمين، الجزء ١٨، ص ١.

الثاني: إبرامه عزمًا، والإبرام الإحكام والقوة أي يقارنه عزم يمضيه ولا يصحبه فتور وتوانٍ يضعفه ويوهنه.

الثالث: تصفيته حالًا أي يكون حال صاحبه صافيًا من الأكدار والشوائب التي تدل على كدر قصده فإن الحال مَظْهَرُ القصد وثمرته وهو أيضًا مادته وباعثه؛ فكل منهما ينفعل عن الآخر فصفاؤه وتخليصه من تمام صفاء الآخر وتخليصه.

٢- الإحسان في الأحوال وهو أن تراعيها غيرة، وتسترها تَظَرُّفًا، وتصححها تحقيقًا.

يريد بمراعاتها: حفظها وصونها غيرة عليها أن تَحُولَ؛ فإنها تمر مر السحاب فإن لم يرع حقوقها حالت ومراعاتها: بدوام الوفاء وتجنب الجفاء ويراعيها أيضًا، بإكرام نزلها فإنها ضيف والضيف إن لم تكرم نزله ارتحل ويراعيها أيضًا بضبطها مَلَكَةً، وَشَدِّ يَدِهِ عليها وأن لا يسمح بها لقاطع طريق ولا ناهب.

٣- الإحسان في الوقت وهو أن لا تزايل المشاهدة أبدًا، ولا تخلط بهمتك أحدًا وتجعل هجرتك إلى الحق سرمدًا، أي لا تفارق حال الشهود، وهذا إنما يقدر عليه أهل التمكن الذين ظفروا بنفوسهم وقطعوا المسافات التي بين النفس وبين القلب والمسافات التي بين القلب وبين الله بمجاهدة القطاع التي على تلك المسافات[1].

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، الجزء ٢، ص ٤٦٠.

أقسام الإحسان:

أحدهما: واجب، وهو الإنصاف، والقيام بما يجب عليك للخلق بحسب ما توجب عليك من الحقوق.

والثاني: إحسان مستحب، وهو ما زاد على ذلك من بذل نفع بدني، أو مالي، أو علمي، أو توجيه لخير ديني، أو مصلحة دنيوية، فكل معروف صدقة، وكل ما أدخل السرور على الخلق صدقة وإحسان، وكل ما أزال عنهم ما يكرهون، ودفع عنهم ما لا يرتضون من قليل أو كثير، فهو صدقة وإحسان.

والمسارعة في الإحسان أمرها عظيم، فعلى قدر ترقيك في درجات الإحسان يكون ترقيك في درجات الجنان.

أنواع الإحسان:

١- الإحسان في معاملة العبد مع الله تعالى:

وذلك باتباع أمره واجتناب نهيه والوقوف عند حدوده وحسن التعبد له والإخلاص في عبادته ومراقبته في السر والعلانية وعلمه أنه مفتقر إليه وأن نعمه وأفضاله على العبد من جميل عطاياه وعموم إحسانه إلى خلقه.

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأعلى أنواع الإحسان محبة الرحيم الكريم الرحمن، محبة مقرونة بمعرفته»[1].

والإحسان إلى الخالق هو بذل الجهد في إكمال العبادة وإتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة والباطنة.

---

(١) بهجة قلوب الأبرار، السعدي، الجزء ١، ص ٢٧٦.

وينبغي أن يُعلم كمال غنى الله عَزَّوَجَلَّ عن خلقه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾[1].

ومن ذلك الإحسان في معاملة العبد مع ربه:

فيسأله بأسمائه وصفاته متأدبًا بآداب الدعاء ويلح عليه ويظن خيرًا به وأنه كريم لا يرد سائلًا وأنه حكيم عليم في منعه وعطائه.

أ- **الإحسان في الدعاء:** عن أبي موسى الأشعري قال: «كنا مع النبي ﷺ في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نعلو شرفًا ولا نهبط واديًا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير فدنا منا رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيها الناس اربَعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا إنما تدعون سميعًا بصيرًا**»[2].

وفي الحديث الآخر يقول ﷺ: «**إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيي إذَا رَفَعَ الرَّجُل إلَيْهِ يَدَيْه أنْ يَرُدَّهمَا صفْرًا خَائِبَتَين**»[3]. فيستقر في قلبه عظيم فضله وواسع عطاياه.

ب- **الإحسان في الصلاة:** في الحديث يقول ﷺ: «**إن أحدكم إذا قام يصلي إنما يقوم يناجي ربه**»[4]. فيدعوه إحسانه إلى إقامة الصلاة بوضوئها وأركانها وواجباتها وسننها خاشعًا مستشعرًا وقوفه بين يدي ملك الملوك.

---

(١) سورة فاطر: ١٥-١٧.

(٢) صحيح البخاري: ٢٩٩٢.

(٣) صححه الألباني: ١٦٣٥.

(٤) صحيح ابن خزيمة ٤٧٤، قال الأعظمي: إسناده حسن.

ج- **الإحسان في الذكر**: إذا أصبح أشهى شيء للقلب ذكر الله تعالى وصل العبد مع ذلك إلى مرتبة الإحسان.

٢- الإحسان إلى الوالدين:

ومن الإحسان إليهم العلم بأن الله تعالى أوصى ببرهم، وحسن صحبتهم، والإحسان إليهم، وقرن ذلك بعبادته، تعظيمًا لشأنهم، وتكريمًا لقدرهم، وأن النبي ﷺ أوصى بصلتهم وطاعتهم وخدمتهم، وجعل عقوقهم من أكبر الكبائر. قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: «أمّك ثم أمّك ثم أمّك ثم أباك ثم أدناك أدناك»[2]. ومن الإحسان إليهم السلام عند الدخول عليهم والخروج من عندهم، وقرن السلام بتقبيل يديهم. كذلك تعظيم قدرهما، وإكرام شأنهما وإجلال مقامهما، والوقوف لهما احترامًا عند دخولهما. وكذلك من الإحسان التأدب عند مخاطبتهما، ولين القول لهما، وعدم رفع الصوت فوق صوتهما، وتلبية ندائهما، والمسارعة لقضاء حوائجهما، وطاعة أمرهما، وتنفيذ وصاياهما، وألا يقدم عليهم أحدًا سواءٌ كان زوجًا أو ولدًا؛ فإنهم قدموك على راحتهم وعلى

(١) سورة الإسراء: ٢٣-٢٤.

(٢) متفق عليه.

حياتهم وآثروا راحتك صغيرًا واهتموا لأمرك كبيرًا، وعدم الاعتراض على قولهما، إلا إذا أمرا بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

تفقد راحتهم وتجنب إزعاجهم أثناء نومهم وتجنب مقاطعتهم في الكلام أو مجادلتهم أو معاندتهم أو لومهم أو السخرية منهم أو الضحك والقهقهة بحضرتهم وتجنب مد اليد إلى الطعام قبلهم أو الاستئثار بالطيبات دونهم وتجنب التقدم في المشي عليهم أو الدخول أو الخروج أو الجلوس قبلهم، وتجنب الاضطجاع أو مد الأرجل أمامهم أو الجلوس في مكان أعلى منهم كذلك استشارتهم في جميع الأمور والاستفادة من رأيهم أو تجاربهم وقبول نصائحهم والإكثار من الدعاء لهم والطلب من الله تعالى أن يجزيهم كل خير على فضلهم وإحسانهم وتربيتهم. وليعلم أن البر الحقيقي فيما يكره الإنسان ويشق عليه من والديه فيقابله بالصبر عليهما وإدامة الإحسان لهما مع ما يجد من أذى.

٣- الإحسان إلى الناس عامة:

كم في كتاب الله من الحثّ على الإحسان إلى الخَلْق، وأنَّ الله يحب المحسنين ويجزيهم الحُسنى على إحسانهم، ويأمر بالعفو والصفح عن الزلّات والإساءات، وأنَّ ذلك من أعظم الحسنات.

(١) سورة لقمان: ١٤-١٥.

فالإحسان هو بذل المعروف القولي والفعلي والمالي إلى الخلق، فأعظم الإحسان تعليم الجاهلين، وإرشاد الضالين والنصيحة لجميع العالمين.

ومن الإحسان إعانة المحتاجين، وإغاثة الملهوفين، وإزالة ضرر المضطرين، ومساعدة ذوي الحوائج على حوائجهم، وبذل الجاه والشفاعة للناس في الأمور التي تنفعهم.

ومن الإحسان المالي جميع الصدقات المالية، سواء كانت على المحتاجين، أو على المشاريع الدينية العامِّ نفعُها.

ومن الإحسان تقديم الهدايا والهبات للأغنياء والفقراء، خصوصًا للأقارب والجيران، ومن لهم حق على الإنسان من صاحب ومُعامل وغيرهم[1].

ومن أفضل الإحسان الذي يتمكن به الموفق من معاملة الناس على اختلاف طبقاتهم: البشاشة وحسن الخلق معهم، ومعاشرتهم باللطف والكرم والرفق، وإبداء كلِّ ما يقدر عليه من إدخال السرور عليهم، وخصوصًا الأقارب والأصحاب ونحوهم ممن يتأكد حقهم على العبد، وإنَّ العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم.

٤- الإحسان إلى المسيء:

من أجلّ أنواع الإحسان، الإحسان إلى من أساء إليك بقول أو فعل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[2].

---

(١) فتح الرحيم، السعدي، الجزء ١، ص ١٠٧.

(٢) سورة فصلت: ٣٤ - ٣٥.

ومن كانت طريقته الإحسان إلى الخلق أحسن الله جزاءه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾[1].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنهم الجامع الفَذُّ[2]، السالك إلى الله في كل واد، الواصل إليه من كل طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قِبلةَ قلبهِ ونصب عينه يؤمها أين كانت ويسير معها حيث سارت قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك: إن كان عِلمٌ وجدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أو مراقبة ومحبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أنَّى استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت، جالبة ما جلبت مقتضية ما اقتضت، جمعتني أو فرَّقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها، والقيام بأدائها مراقبًا له فيها عاكفًا عليه بالروح والقلب والبدن، والسر قد سلمت إليه المبيع منتظرًا منه تسليم الثمن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[3]، فهذا هو العبد السالك إلى ربه»[4].

---

(١) سورة الرحمن: ٦٠.

(٢) انظر طبعة الفوائد ص٣٨٨.

(٣) سورة التوبة: ١١١.

(٤) طريق الهجرتين، ابن القيم، الجزء ١، ص ٢٨٠.

صفات المحسنين:

١- الإخلاص لله والاستسلام لأوامره، قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١).

٢- الجهاد، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾(٢).

٣- الاستمساك بالعروة الوثقى، قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾(٣).

٤- العلم والفقه في الدين، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٤).

٥- الدعوة إلى الله والعمل الصالح والانتساب إلى الإسلام والاعتزاز به، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(٥).

٦- التصديق بموعود الله، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة: ١١٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٣) سورة لقمان: ٢٢.

(٤) سورة يوسف: ٢٢.

(٥) سورة فصلت: ٣٣.

(٦) سورة النحل: ٣٠.

٧- الصبر، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١].

٨- الدعاء خوفًا وطمعًا، قال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[٢].

٩- كثرة العمل الصالح، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾[٣].

١٠- الإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ حال الغضب والعفو عن المخطئ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٤].

ثمرات الإحسان:

لكل عبادة غاية وثمرة، والإحسان أعلى وأفضل العبادات؛ ولذلك له أعلى وأغلى الثمرات في الدنيا والآخرة، بل سعادة الدنيا والآخرة هي ثمرة الإحسان، ومنها:

١- الخلود في جنات النعيم:

قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٥].

---

(١) سورة هود: ١١٥.

(٢) سورة الأعراف: ٥٦.

(٣) سورة المائدة: ٩٣.

(٤) سورة آل عمران: ١٣٤.

(٥) سورة المائدة: ٨٥.

٢- حب الله لهم، وتفضله عليهم بثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة:
قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

قال ابن كثير: «فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا» أي: «النصر والظفر والعاقبة»، «وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ» أي: «جمع لهم ذلك مع هذا»، «وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ»[2].

٣- ما يهبه الله من ذرية صالحة، وتفضيل، وهداية، وعلم، وحكمة، ونبوة: قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحٗا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٨

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، الجزء ١، ص ٥٠٥.

(٣) سورة الأنعام ٨٣-٨٩

٤- حصول رضا الله عَزَّوَجَلَّ لهم قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[1].

إن أفضل الناس بعد الأنبياء والرسل هم أصحاب رسول الله ﷺ الذين رضي الله عنهم، ورضوا عنه، وهم المحسنون، ومن اتبعهم بإحسان، وهؤلاء هم أتباع الرسل والأنبياء، قادة المحسنين، وبإحس انهم وصلوا إلى هذه المنزلة العالية، وأورثهم الإحسان هذا الرضا، وما أعده الله في الآخرة من جنات تجري تحتها الأنهار العظيمة، والتي قد أعدت للخلود فيها على التأبيد، والتي وصفها سبحانه وتعالى بأنها هي الفوز العظيم.

٥- الإحسان:

قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾[2] قال ابن كثير: أي: ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة.

٦- حصول رحمة الله، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[3]، رحمة

---

(١) سورة التوبة: ١٠٠

(٢) سورة الرحمن: ٦٠.

(٣) سورة الأعراف: ٥٥-٥٦.

الله هي عطفه، وإحسانه، ورزقه، وهي صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها.

ورحمة الله مرصدة لفئة من العباد، أخلصوا لله عبادتهم، وتابعوا رسول الله في جميع حركاتهم وسكناتهم، وأخذهم وعطائهم، وفعلهم وتركهم، وولائهم وبرائهم، وكل ما يتقربون به إلى ربهم، هؤلاء هم المحسنون فقط.

٧- كل ما يعمله العبد في سبيل الله يكتب له به عمل صالح، وهو ثمرة من ثمرات الإحسان:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾[1] إذا وصل العبد إلى درجة الإحسان، أصبح كل ما يعمله عبادة، وكل ما يتركه مما لا يحبه الله عبادة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[2]؛ ولذلك تكون حياته ومماته في ميزان حسناته.

---

(١) سورة التوبة: ١٢٠- ١٢١.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٢.

٨- الحكم، والعلم، وتأويل الأحاديث، والتمكين في الأرض، والملك ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾[3].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾[4] هذه الثمار اليانعة أثمرها الإحسان، الإحسان في الاعتقاد، وفي العبادة، وفي المعاملة وفي السلوك وفي الأخلاق.

٩- الظلال، والعيون، والفواكه، والأكل والشرب الهنيء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟

---

(١) سورة يوسف: ٢٢.

(٢) سورة يوسف: ٣٦-٣٧.

(٣) سورة يوسف: ٥٦-٥٧.

(٤) سورة يوسف: ٧٨-٧٩.

﴿وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (١) الجزاء من جنس العمل، التقوى في الحياة الدنيا، بامتثال الأوامر، والانتهاء عن النواهي، أدت إلى مرحلة الإحسان، والإحسان استحق به العبد هذا النعيم، من الظلال الوارفة، والعيون الجارية، والفواكه المتنوعة والمتعددة في اللون والشكل والطعم، والمأكولات المختلفة، والمشروبات اللذيذة المتنوعة، وهذا كله وغيره من ثمرات الإحسان.

١٠- صرف المكاره والشدائد في الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (٢).

قال ابن كثير: أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (٣) (٤).

١١- النظر إلى وجه ربنا ذي الجلال والإكرام:

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (٥)، عن النبي ﷺ

---

(١) سورة المرسلات: ٤١-٤٣.

(٢) سورة الصافات: ١٠٤-١٠٥.

(٣) سورة الطلاق: ٢-٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، الجزء ٤، ص ٢٢.

(٥) سورة يونس: ٢٦.

في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، قالوا: ألم يبيض وجوهنا وينجنا من النار ويدخلنا الجنة؟! قال: فيكشف الحجاب، قال: فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه»[1].

(١) صحيح مسلم: ٤٦٧.



المعراج الرابع

الخـــوف

من خاف اليوم أمِنَ غدًا

«من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل
ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله هي الجنة»

المعراج الرابع

الخـــوف



تعريف الخوف:

في اللغة:

الخَوْفُ: الفَزَعُ؛ خافَه يخافُه خَوْفًا وخِيفةً ومَخافةً [1].

في الاصطلاح:

الخوف من أَجلّ منازل الطريق إلى الله، وخوف الخاصة من عباده أَعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم أَليق، ولهم ألزم. فإن العبد إما أن يكون مستقيمًا أو مائلًا عن الاستقامة، فإن كان مائلًا عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف[2].

والخوف من الله هو علم المسلم بما يفضي إلى عقابه، وهو عصيانه وعدم القيام بحقه تبارك وتعالى، ويزداد هذا الخوف كلما فقه المسلم عظم الجناية في مخالفة الرب تبارك وتعالى وأنه ﷻ لو أهلك العالمين لم يمنعه من ذلك مانع[3].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٩٩.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، ٢٣/ ١٩٧.

(٣) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان ٣٢٨.

منشأ الخوف من خمسة أمور:

أحدها: معرفة العبد بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق العبد بالوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أن العبد لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

والرابع: خوفه من فوات المنازل العالية وسبق القافلة وتخلفه عن الركب إما بمخالفة العمل للرياء أو المحبطات.

الخامس: خوفه من الانتكاسة بعد الثبات وخوفه من الضلال بعد الهداية.

فبهذه الأمور يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه، فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه، وإما عدم علمه بسوءِ عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان، فإذا علم قبح الذنب وعلم سوءَ مغبته وخاف أن لا يفتح له باب التوبة بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد.

وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح، هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو. وأما إن كان مستقيماً مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس، لعلمه بأن الله مقلب القلوب.

وروده في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران: ١٧٥.

أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[2].

أي: خافوني وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي من غير أن تشركوا بي شيئًا من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة[3].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾[4].

أي لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم، واخشوني أنصركم عليهم وَأُبِدْهُمْ، وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[6].

وكانوا لنا خاشعين أي: الخوف الدائم في القلب[7].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ١/ ١٥٧.

(٢) سورة البقرة: ٤٠.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٤٢.

(٤) سورة المائدة: ٤٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨.

(٦) سورة الأنبياء: ٩٠.

(٧) الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٦٧٠.

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[1].

أي: خاف القيام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ وخاف حكم الله فيه، ونهى نفسه عن هواها وردها إلى طاعة مولاها[2].

إن لله مقامًا هو قائمهُ، وإن أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا ودأبوا الليل والنهار[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[4].

أي: ذلك لمن خاف مقامي عليه في الدنيا وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، وخاف ما توعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله والمبادرة إلى ما يحبه الله[5].

في الحديث أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[6] قالت عائشة: «هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟»، قال: «**لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**»[7].

من عرف الله وعرف نفسه يتبين له أن ما معه من البضاعة لا يكفيه ولو

---

(١) سورة الرحمن: ٤٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٥٦٦.

(٣) الدر المنثور، السيوطي ٥/ ١٢.

(٤) سورة إبراهيم: ١٤.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ١/ ٤٢٣.

(٦) سورة المؤمنون: ٦٠.

(٧) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١٦٢.

جاء بعمل الثقلين، إنما يقبله ﷻ ويثيب عليه بكرمه وجوده وفضله[١].

وقال ﷺ: «**عُرِضَتْ عليَّ الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»[٢].

معنى الحديث لم أر خيرًا أكثر مما رأيته اليوم في الجنة، ولا شرًّا أكثر مما رأيته اليوم في النار، ولو رأيتم ما رأيت، وعلمتم ما علمت مما رأيته اليوم، وقبل اليوم، لأشفقتم إشفاقًا بليغًا، ولقل ضحككم، وكثر بكاؤكم[٣].

وقال ﷺ: «**سَبْعَة يُظلهُمُ الله في ظلِّه يَومَ لَا ظل إلا ظلهُ، وذكر منهم: ورجُل طلبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصب وجمال فَقَال إِنِّي أَخَاف الله**»[٤].

معنى دعته: عرضت نفسها عليه؛ أي: للفاحشة، وقول المدعو في مثل هذا الحال: «إني أخاف الله»، وامتناعه لذلك دليلٌ على عظيم معرفته بالله تعالى، وشدّة خوفه من عقابه، ومتين تقواه، وحيائه من الله تعالى، وهذا هو المقام اليُوسُفيُّ[٥].

وقال ﷺ: «**مَا بَال أَقْوَام يَتَنَزَّهُونَ عَنْ الشيءِ أَصْنَعُهُ فَوَالله إِنِّي لأَعْلمُهُمْ بالله وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»[٦].

جمع بين القوة العلمية والقوة العملية، أي إنهم توهموا أن رغبتهم عما أفعل أقرب لهم عند الله، وليس كذلك: إذ هو أعلمهم بالقربة وأولاهم بالعمل بها[٧].

(١) ظاهرة ضعف الإيمان، المنجد ١/ ٣٧.
(٢) صحيح مسلم: ٦٢٦٨.
(٣) شرح النووي على مسلم، النووي ١٥/ ١١٢.
(٤) صحيح البخاري: ٦٦٠.
(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣/ ٧٦.
(٦) صحيح البخاري: ٦١٠١.
(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ١٠/ ٥١٣.

الفرق بين الخوف والخشية:

الخشية أخص من الخوف فإن الخشية للعلماء بالله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾[1].

والخشية خوفٌ مقرونٌ بمعرفة الله والحب له والحياء منه، قال النبي ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»[2].

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء والعارفين، وعلى حسب قدر العلم والمعرفة تكون الخشية.

فصاحب الخوف يلجأ إلى الهرب، وصاحب الخشية يلجأ إلى الاعتصام بالعلم، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخشية خوف مبني على العلم بعظمة من يخشى وكمال سلطانه».

فإذا خفت من أحد لا تدري هل يقدر عليك أم لا فهذا خوف، وإذا خفت من أحد تعلم أنه قادر عليك فهذه خشية[3].

الخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلق، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان أو قوة الغفلة.

الثاني: الخوف من الله تعالى، وهو خوف العلماء، فإن معرفة عظمة الله وجلاله وأسمائه وصفاته تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.

(٢) صحيح البخاري: ٦١٠١.

(٣) سلسلة أعمال القلوب، المنجد ١/ ٥٩.

البعد والحجاب، ويخافون من العذاب.

ولولا أن الله لطف بعارفيه، وروَّح قلوبهم بالرجاء لاحترقت من نار الخوف، وأقرب الخلق إلى الله وأعلمهم به أشدهم له خشية كالملائكة، والأنبياء والعلماء، والأولياء، والعباد الصالحين، ونحن أجدر بالخوف منهم؛ لكثرة معاصينا، وجهلنا بربنا.

كيف الوصول إلى الخوف؟!

١- معرفة الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله، فيعلم أن الله هو العظيم الأعظم، فلا يعظم أحد في عينه عظمة لا تصلح إلا لله، ويعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الجبار القاهر، القادر القوي المتين، فلا يهاب المخلوقين، وإنما يعظم الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ في نفسه، ويعلم أن الله هو الرقيب، فلا تمتد عينه إلى الحرام، ولا تمتد يده إلى الحرام، ولا تخطو رجله إلى الحرام؛ لأن يقينه راسخ بأن الله هو الرقيب، وأن ما يخفى على المخلوقين لا يخفى على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فتسكن جوارحه، وتلتزم طاعة ربها ومليكها، فلا يصدر منه شيء ينافي هذا الإيمان، وهذا اليقين الذي وقر في قلبه بمعرفته بأوصاف الله عَزَّوَجَلَّ الكاملة، وإذا عرف أن ربه قوي؛ عرف أن ربه قادر على أن يمنعه من كل المخاوف، وأن الله قادر على حفظه، فهو يلجأ إلى ركن قوي، فيفوض أموره إليه[1].

٢- مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ واستشعار أن الله يرى العبد في كل أحواله.

٣- تعلم العلم الشرعي: فإنه يثمر الخوف والمراقبة.

٤- استشعار عظمة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكيف يكون غضبه إذا انتهكت محارمه.

---

(١) أعمال القلوب، خالد السبت، ١/ ٨٤.

٥- استشعار فقر العبد وضعفه وحقارته وذلته وعدم قدرته على تحمل عذاب الآخرة.

٦- معرفة قبح عواقب الذنوب والمعاصي.

٧- النظر في أخبار الخائفين من الأنبياء والصحابة والتابعين ومن بعدهم، وكيف أنهم كانوا يخافون الرد وعدم القبول.

٨- استشعار حقارة الدنيا وسرعة انقضائها وزوال نعيمها.

٩- صحبة الصالحين الذين يخافون الله ﷻ ويعملون للآخرة.

١٠- تدبر آيات الوعيد في القرآن فإنها حق وصدق، وأن العباد مجزيون على أعمالهم حتى الذرة من الخير أو الشر يعملونها، فإذا حصل عنده هذا الإيمان العميق بأثر الذنوب ودقة الحساب وتفرد الله بالحكم يوم الحساب، انبعثت في القلب الخشية منه [١].

ثمرات الخوف:

١- سبب من أسباب التمكين في الأرض، وزيادة الإيمان والطمأنينة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [٢].

٢- باعث على العمل الصالح والإخلاص فيه وعدم طلب المقابل في الدنيا فلا ينقص الأجر في الآخرة: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ

(١) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ص ٣٢٨.

(٢) سورة إبراهيم: ١٣- ١٤.

لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾[1] وقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[2] أي تضطرب وتتقلب وهذا هو الذي دفعهم للعمل.

٣- الخوف يجعل الإنسان في ظل العرش يوم القيامة قال ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظلِّه يَوْمَ لَا ظل إلَّا ظلُّهُ، وذكر منهم وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأة ذاتُ مَنصِب وَجَمَال فَقَال إنِّي أَخَافُ الله**»[3]:

«**ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»[4] الخشية الموجبة لدمع العين تحرم النار على صاحبها وتظله في ظل الرحمن.

٤- الخوف من أسباب المغفرة، قَالَ ﷺ: « **كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بعَمَلِه فَقَالَ لأَهْلِه: إذَا أَنَا مُتُّ فَخذوني فَذَرُّوني في الْبَحْرِ في يَوْم صَائف ففَعَلُوا به، فجَمَعَهُ الله ثمَّ قَالَ: مَا حَمَلك عَلى الَّذِي صَنَعْتَ، قَال: مَا حَمَلنِي إلا مَخافَتُكَ، فَغَفرَ لَهُ**»[5]. فعذره الله بجهله، وشفع له خوفه من ربه،وإلا فالذي ينكر البعث كافر.

٥- الخوف يؤدي إلى الجنة؛ قال النبي ﷺ: «**من خاف أدلج ومن**

---

(١) سورة الإنسان: ٩-١٠.

(٢) سورة النور: ٣٦-٣٧.

(٣) صحيح البخاري: ٦٦٠.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) صحيح البخاري: ٦٤٨٠.

أدلج فقد بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية»[1]. وفي رواية: «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة».

أي الذي يخاف من إغارة العدو وقت السحر يسير من أول الليل (الدلجة) فيبلغ المنزل والمأمن والمطلب، وهذا مثل ضربه الرسول ﷺ لسالك الآخرة؛ فإن الشيطان على طريقه والنفس الأمارة بالسوء والأماني الكاذبة أعوان إبليس، فإن تيقظ في مسيره وأخلص النية في عمله أمن من الشيطان وكيده ومن قطع الطريق عليه، وهذا طريق الله الذي من سلكه كان من الآمنين.

٦- الأمن التام يوم القيامة: من خاف في الدنيا أمن يوم القيامة، يقول ﷺ: «**قال الله عز وجل: وعزتي، لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أَمَّنْتُهُ يوم القيامة، وإذا أَمِنَنِي في الدنيا أخفته يوم القيامة**»[2].

٧- الخوف سبب للنجاة من كل سوء، في الحديث: « **ثلاث منجيات وذكر منها: خشية الله تعالى في السر والعلانية**»[3] فهذه الخشية هي التي تحفظ العبد وتنجيه من كل سوء؛ وهن منجيات في الدنيا والآخرة لشمول الوعد بمنطوق الحديث ومفهومه.

٨- ثناء الله على أهل الخوف والخشية ومدحهم، ويكفيهم فخرًا أنهم يدخلون في أصحاب الأسماء والألقاب الشريفة؛ قال

(١) صححه الحاكم في المستدرك: ٧٨٥١.

(٢) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ٢٦٦٦.

(٣) حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة: ١٨٠٢.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[1] ألفاظ شريفة كانوا يسعون لحيازتها ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[2] [3].



(١) سورة الأحزاب: ٣٥.

(٢) سورة السجدة: ١٦.

(٣) سلسلة أعمال القلوب، المنجد، ١/ ٦٥-٦٨.



المعراج الخامس

الرجـــاء

من رحمته وسعت كل شيء
وعم فضله كل حي،
جدير أن يرجى فضله

المعراج الخامس

الرجـــاء



تعريف الرجاء:

في اللغة:

الرَّجَاءُ من الأَمَلِ، نَقِيضُ اليَأْسِ[1].

في الاصطلاح:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير، وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقيل: هو الثقه بجود الرب تعالى، والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع؛ ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل»[2].

والقلب في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة الطائر: فالمحبة رأسه، والخوف

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٣٠٩.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ٢/ ٣٥.

والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوِّي في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوِّي جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد، وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحب؛ فالمحبة هي المركب والرجاء حادٍ، والخوف سائق والله المُوَصِّلُ بمنه وكرمه[1].

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبته ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف[2].

وروده في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[3].

يخبر تعالى في أرجى آية في كتابه عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٥١٧.

(٢) الجواب الكافي، ابن القيم، ١/ ٢٤.

(٣) سورة الزمر: ٥٣.

الإنابة قبل ألا يمكنهم ذلك فقال: {قُلْ} يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبرًا للعباد عن ربهم: {يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ} باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب.

{لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ} أي: لا تيأسوا منها، فتُلقُوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا: قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعًا من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾[2].

عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما في القرآن آية أحب إليّ من هذه»[3].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[4].

أي: البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ١/ ٢٧٢.

(٢) سورة النساء: ٤٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٥.

(٤) سورة الأعراف: ١٥٦.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ١/ ٣٠٥.

في الحديث قال ﷺ: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**»[١].

اشتمل هذا الحديث على الوعد والوعيد المقتضيين للرجاء والخوف، فمن علم أن من صفات الله تعالى الرحمة لمن أراد أن يرحمه والانتقام ممن أراد أن ينتقم منه، لا يأمن انتقامه من يرجو رحمته، ولا ييأس من رحمته من يخاف انتقامه، وذلك باعث على مجانبة السيئة ولو كانت صغيرة، وملازمة الطاعة ولو كانت قليلة[٢].

وقال ﷺ: **قالَ الله** عَزَّوَجَلَّ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي**»[٣].

أي: قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامل به[٤].

قال ابن مسعود: «والله الذي لا إله إلا هو ما أعطي عبد مؤمن قط شيئًا خيرًا من حسن الظن بالله، والله الذي لا إله إلا هو لا يحسن عبد الظن إلا أعطاه الله ظنه، وذلك أن الخير في يديه»[٥].

وقال سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدَكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن الله تعالى قد أجاب دعاء شر الخلق إبليس: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾[٦][٧].

---

(١) صحيح مسلم: ٢٧٥٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣٠٢.

(٣) صحيح البخاري: ٧٥٠٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٣٨٥.

(٥) حسن الظن بالله، لابن أبي الدنيا.

(٦) سورة الأعراف: ١٤-١٥.

(٧) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ١٠/ ٩٩.

وقال ﷺ: « **لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله** عَزَّوَجَلَّ»[1].

قال العلماء: هذا تحذير من القنوط، وحث على الرجاء عند الخاتمة، وقد سبق في الحديث الآخر قوله ﷻ: «**أنا عند ظن عبدي بي**»، قال العلماء: معنى (حسن الظن بالله تعالى) أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا، ويكونان سواء، وقيل: يكون الخوف أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غَلَّبَ الرجاء ووثق برحمة ربه؛ لأن مقصود الخوف: الانكفاف عن المعاصي والقبائح، والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال، فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى، والإذعان له[2].

وقال ﷺ: « **إِنَّ اللهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»[3].

أي: لم يؤخر الله عقوبته عن العبد لعجزٍ عن إنفاذها عليه بل لرحمته التي حكم لها بالسبق لغضبه[4].

وقال ﷺ: « **إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة**»[5].

قال القرطبي: مقتضى هذا الحديث أن الله علم أن أنواع النعم التي ينعم

---

(١) صحيح مسلم: ٢٨٧٧.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، النووي ١٧/ ٢١٠.

(٣) صحيح البخاري: ٧٤٢٢.

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال ٩ / ٢٦٤.

(٥) صحيح مسلم: ٢٧٥٢.

بها على خلقه مائة نوع، فأنعم عليهم في هذه الدنيا بنوع واحد انتظمت به مصالحهم وحصلت به مرافقهم، فإذا كان يوم القيامة كمل لعباده المؤمنين ما بقي فبلغت مائة وكلها للمؤمنين(١).

وقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»(٢).

هذا دليل على أن المراد من العبد الذل؛ فإن المذنب منكسر لذنبه منكس الرأس لجرمه، وبهذا يبين ذل العبودية ويظهر عز الربوبية، وفيه تقوية لرجاء المذنب في العفو(٣).

وقال ﷺ: «**يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّه حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْه فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ نَعَمْ فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»(٤).

أي: ستره، وجناح إكرامه ولطفه، فيخاطبه خطاب الملاطفة، ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة(٥).

و هذا الحديث من أرجى الأحاديث لمن لم يجاهر بذنوبه(٦).

وقال ﷺ: « **إن الله عَزَّوَجَلَّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٧).

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٣٢.
(٢) صحيح مسلم: ٢٧٤٩.
(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ١/ ١٠٤٣.
(٤) صحيح البخاري: ٦٠٧٠.
(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٧/ ١٦٠.
(٦) تطريز رياض الصالحين، آل مبارك ١/ ٢٩٦.
(٧) صحيح مسلم: ٢٧٥٩.

أي تشويق وترغيب يرومُه العبد بعد هذا الجود الواسع، وهذا الإطماع المتناهي؟

وموضع الرجاء المحمود في أمرين:

أحدهما: في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة، فقنطه الشيطان من رحمة الله، فيجب هنا أن يقمع القنوط بالرجاء بأن الله يغفر الذنوب جميعًا، وأنه كريم يقبل التوبة من كل مذنب.

فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راجٍ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار على المعصية فهو مغرور.

الثاني: أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال، ويقتصر على الفرائض، فيرجِّي نفسه نعيم الله تعالى، وما وعد به الصالحين، حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل.

فالرجاء الأول يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير[1].

ثمرات الرجاء:

١. يورث طريق المجاهدة للنفس للقيام بالأعمال واجبها ومحبوبها.
٢. يورث المواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال.
٣. يشعر العبد بالتلذذ والمداومة على الإقبال على الله والتنعّم بمناجاته والتلطف في سؤاله والإلحاح عليه.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ١٣/ ٤٧.

٤. العبودية التامة من العبد لربه والفاقة والحاجة إليه وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

٥. دوام السؤال لله طمعًا بحصول مطلوبه، فالله ﷻ يحب من عباده أن يسألوه ويرجوه ويلحّوا عليه لأنه جواد كريم أجود من سُئِل وأوسع من أعطى، وأحب ما إلى الجواد الكريم أن يسأله الناس ليعطيهم ومن لا يسأل الله يغضب عليه والسائل عادة يكون راجيًا حريًّا أن يُعطى فمن لم يرجُ الله يغضب عليه.

٦. الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سيره إلى الله فيطيب المسير ويحث على السير ويبعثه على الملازمة، فلولا الرجاء ما سار أحد. والقلب يحركه الحب ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء.

٧. محبة الله عَزَّوَجَلَّ للعبد فكلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه؛ ازداد حبًّا لربه وشكرًا له ورضًا عنه.

٨. الرجاء يبعث العبد على الشكر لأنه يحفزه للوصول إلى مقام الشكر لعظيم النعم، وهو من أعلى مقامات العبودية.

٩. الرجاء يوجب المزيد من التعرف على أسماء الله وصفاته ومعانيها والتعلق بها والتعبد بها مما يورث قوة الرجاء[1].

١٠. التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى، والتنعم بمناجاته، والتلطف في التملق له.

١١. الرجاء يسلي القلب الخائف ويؤمنه حماية لصاحبه من اليأس.

١٢. فيه إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه من ربه بسؤاله.

---

(١) سلسلة أعمال القلوب، الشيخ محمد المنجد ١/ ٤٦.

١٣. تكميل مراتب العبودية من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضا والإنابة[١].

كيف الوصول إلى الرجاء؟!

١- الإقبال على الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة والطاعة: قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[٢].

٢- الدعاء وكثرة اللجوء إلى الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[٣].

٣- اتباع السنة لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[٤].

٤- قصر الأمل: قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾[٥].

٥- حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ كما جاء في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي**».

٦- التوبة، يتأكد الرجاء عند التوبة من الذنب والطمع بمغفرة الرب وقبول التوبة، تأمل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا

(١) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ٨/ ٢٢٨-٢٣٣.
(٢) سورة الزمر: ٩.
(٣) سورة الأعراف: ٥٦.
(٤) سورة الأحزاب: ٢١.
(٥) سورة العنكبوت: ٥.

صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ (١).

٧- محاسبة النفس.

٨- الصبر على البلاء، والشكر على النعماء.

٩- الاستقامة على الدين ولزوم طريق الذين أنعم الله عليهم.

(١) سورة الفرقان: ٧٠.



المعراج السادس

التوكـــل

كمال التوكل أن تفوض أمرك لله
لعلمك بعجزك وضعفك وقلة حيلتك
أمام قدرته وقوته وغناه

المعراج السادس

التوكـــل



تعريف التوكل:

في اللغة:

وكل إليه الأمر وكولًا، وهذا موكول إليك، ووكلته إلى الله، وواكلته وتواكلوا.

وفلان وَكَلٌ: ضعيف يتّكل على غيره، وتقول: توكّل على الله ولا تتكل على غيره[1].

ويأتي التوكل بمعنى التفويض:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو روح التوكل ولبُّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا، لا كرهًا ولا اضطرارًا، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كُلَّ أموره إلى أبيه، العالِم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له، فهو يرى أن تدبير أبيه له خيرٌ من تدبيره لنفسه[2].

قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[3].

التفويض لله بكل جوارح العبد أن ما اختاره الله له، وما قدّره عليه، هو أصلح له في أمر دينه وآخرته.

---

(١) أساس البلاغة، الزمخشري ٣/ ٣٦.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٢٢.

(٣) سورة غافر: ٤٤.

في الاصطلاح:

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «وحقيقة التوكل: هو صدق اعتماد القلب على الله عَزَّوَجَلَّ في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وَكِلةُ الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه»(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو الثقة بالله واليقين بأن قضاءه ماضٍ، واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لابد منه من الأسباب»(٢).

فمتى ما كَمُلَ التوكل في قلب العبد وانقطعت حوله جميع الأسباب، كانت استجابة الله له أسرع؛ لتعلق قلبه بالله.

التوكل واليقين:

جمع الإمام النووي بين اليقين والتوكل لأن التوكل ثمرة من ثمرات اليقين، فاليقين هو قوة الإيمان والثبات حتى كأن الإنسان يرى بعينه ما أخبر الله به ورسوله من شدة يقينه، فاليقين هو ثبات وإيمان ليس به شك بوجهٍ من الوجوه، فيرى الغائب الذي أخبر الله تعالى عنه رسوله ﷺ كأنه حاضر بين يديه، وذلك اليقين أعلى درجات الإيمان(٣).

وروده في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾(٤).

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص٨٠٩.

(٢) تفسير القرطبي ٤/ ١٨٩.

(٣) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين (١/ ٥٣٨)..

(٤) سورة إبراهيم: ١٢.

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على هذه الآية: فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب[1].

- وقال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾[2].
- وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[3].
- وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[4].
- وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾[5].
- في الحديث يقول ﷺ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». قَالَ: فَقُلْتُ: مَنْ هُمْ؟ قَالَ:« هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَلاَ يَعْتَافُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »[6].
- قال رسول الله ﷺ: «**إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: فيقال: حسبك هديت ووقيت وتنحى عنه الشيطان، فيقول شيطان آخر: كيف لك برجل هدي وكفي ووقي**»[7].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ص ٤٠١.
(٢) سورة النمل: ٧٩.
(٣) سورة هود: ١٢٣.
(٤) سورة الفرقان: ٥٨.
(٥) سورة التوبة: ١٢٩.
(٦) صحيح البخاري: ٥٣٧٨.
(٧) سنن أبي داود ٥٠٩٥، قال الألباني: صحيح.

حكم التوكل:

واجب مثل أصل محبة الله والصبر والإنابة بل إن التوكل شرط الإيمان. والمفهوم من الآية: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾[1] أنه إذا انتفى التوكل انتفى الإيمان[2].

هل التفويض أرفع مكانةً وأجلّ منزلةً من التوكل؟ أم التوكل أرفع منه وأوسع؟

إلى الرأي الأول ذهب الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منازله، وإلى الثاني ذهب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مدارجه. والأصل أن التوكل كله تفويض الأمر لله لسعة علمه وحسن تدبيره لخلقه.

التوكل على غير الله:

التوكل على غير الله قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة، فهذا شرك أكبر؛ لأن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة العادية، كمن يتوكل على أمير أو سلطان، فيما جعله الله بيده من أسباب الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك، فهذا نوع شرك خفي، والوكالة الجائزة هي توكل الإنسان في فعل مقدور عليه، ولكن ليس له أن يتوكل عليه

---

(١) سورة المائدة: ٢٣.

(٢) أعمال القلوب، محمد المنجد، ص ١٦.

وإن وكّله، بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وكّله فيه، كما قرره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

ثمرات التوكل:

١. النصر:

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾[2].

فأمر الله بالتوكل بعد ذكره للنصر ليدلل على أن من أسباب حصوله التوكل عليه.

٢. الحفظ من الشيطان الرجيم:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾[3].

٣. الشجاعة:

فمن امتلأ قلبه بالتوكل على الله فممَّ يخاف؟ ولهذا كان سيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم شجاعًا مقدامًا، ففي الصحيحين عَنْ أَنَس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاس، وَأَشْجَعَ النَّاس، وَلَقَدْ فزعَ أهلُ الْمَدِينَة لَيْلَة فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ، فاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ اسْتَبْرَأ الخبَرَ، وَهوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طلْحَةَ عُرْيٍ، وَفِي عُنُقِهِ**

(١) موسوعة توحيد رب العبيد ٥/ ١٤٦.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٠.

(٣) سورة النحل: ٩٩.

السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا»، ثُمَّ قَالَ: «وَجَدْنَاهُ بَحْرًا»، والعُري غير المُسْرَج، و«لم تراعوا»: أي روعًا مستقرًّا، أو روعًا يضُرُّكم، و«وجدناه بحرًا»: أي واسع الجري.

وفي الزهد لهناد بن السري أن شقيق بن سلمة أبا وائل قال: خرجنا في ليلة مَخُوفَةٍ، فمررنا بأجمة -الشجر الكثير الكثيف الملتف- فيها رجل نائم، وقيَّد فرسه فهي ترعى عند رأسه فأيقظناه، فقلنا له: تنام في مثل هذا المكان؟ قال: فرفع رأسه فقال: إنّي أستحي من ذي العرش أن يعلم أنّي أخاف شيئًا دونه، ثم وضع رأسه فنام[1].

٤. الرزق:

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكلونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطانًا**»[2].

تغدو: تذهب أول النهار، وتروح: ترجع آخر النهار.

٥. دليل على صدق الإيمان:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾[3].

وفي سبعة مواضع في القرآن الكريم: {وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ}.

ولذا قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوكل على الله جماع الإيمان».

(١) الزهد، هناد بن السري ١/ ٣٠٦.

(٢) صحيح ابن حبان ٧٣٠.

(٣) سورة الأنفال: ٢.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة؛ فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة» (١).

٦. الكفاية والحماية والرعاية

قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ (٢). وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ (٣). وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ (٤).

في التوكل لابن أبي الدنيا: عن عون بن عبد الله قال: بينا رجل في بستان بمصر في فتنة ابن الزبير مكتئبًا معه شيء ينكت به في الأرض، إذ رفع رأسه فسنح له صاحب مسحاة، فقال له: يا هذا مالي أراك مكتئبًا حزينًا؟ قال: فكأنّه ازدراه فقال: لا شيء، قال صاحب المسحاة: ألدنيا؟ فإنّ الدُّنيا عَرَضٌ حاضر، يأكل منها البرّ والفاجر، والآخرة أَجلٌ صادق يحكم فيها ملك قادر، يفصل بين الحقّ والباطل. فلمّا سمع ذلك منه كأنّه أعجبه، فقال: لما فيه المسلمون. قال: فإنّ الله سينجّيك بشفقتك على المسلمين، وسل، فمن ذا الّذي سأل الله تعالى فلم يعطه، ودعاه فلم يجبه، وتوكل عليه فلم يكفه، أو وثق به فلم ينجه؟ فدعا: اللهم سلمني وسلم مني، فَتَجَلَّتْ، ولم يُصِبْ منه أحدًا.

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١١٨.

(٢) سورة النساء: ٨١.

(٣) سورة الطلاق:٣.

(٤) سورة الأنفال: ٤٩.

٧. نيل محبة الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[١].

٨. وأعظم ثمرة الجنة:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾[٢].

وفي الصحيحين عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَه الرُّهَيْط، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُل وَالرَّجُلَان، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَد، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ وَقَوْمُهُ، وَلَكِن انْظُرْ إِلَى الأفق، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الأفق الْآخَر، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِه أمتك، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ». ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولئِك الَّذِينَ يَدْخلونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فلعَلهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلعَلهُمُ الَّذِينَ وُلِدوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِم رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَا الذِي تَخوضُونَ فيه»؟ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقونَ، ولا يكتوون، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلونَ»[٣].

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٢) سورة العنكبوت: ٥٨-٥٩.

(٣) صحيح مسلم: ٢٢٠.

- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ»(١).

كيف أكون من المتوكلين؟

قال حاتم الأصم رَحِمَهُ اللَّهُ: «بنيت أمري في التوكل على الله على أربع خصال: علمت أن رزقي لا يأكله غيري، فاطمأنت نفسي، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري، فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة، فأنا أبادره (أي أسابقه بالعمل الصالح)، وعلمت أني لا أخلو من عين الله تعالى حيث كنت، فأنا أستحي منه».

يكون الإنسان متوكلًا على الله بأن يصدق الاعتماد على ربه عَزَّوَجَلَّ حيث يعلم أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي بيده الخير وهو الذي يدبر الأمور، ولقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»(٢)، فبهذه العقيدة يكون الإنسان معتمدًا على ربه جل وعلا لا يلتفت إلى من سواه.

ولكن حقيقة التوكل لا تنافي فعل الأسباب التي جعلها الله تعالى سببًا بل إن فعل الأسباب التي جعلها الله تعالى سببًا سواء أكانت شرعية أم حسية هي من تمام التوكل ومن تمام الإيمان بحكمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن

(١) صحيح مسلم: ٢٨٤٠.
(٢) مسند أحمد: ٤/ ٢٣٣.

الله تعالى قد جعل لكل شيء سببًا، وهذا النبي ﷺ وهو سيد المتوكلين كان يلبس الدروع في الحرب ويتوقى البرد ويأكل ويشرب لإبقاء حياته ونمو جسمه وفي أحد ظاهَرَ بين درعين أي لبس درعين، فهؤلاء الذين يزعمون أن حقيقة التوكل بترك الأسباب والاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ هم في الواقع مخطئون؛ فإن الذي أمر بالتوكل عليه له الحكمة البالغة في تقديره وفي شرعه قد جعل للأمور سببًا تحصل به؛ ولهذا لو قال قائل: أنا سأتوكل على الله تعالى في حصول الرزق وسأبقى في بيتي لا أبحث عن الرزق، قلنا: إن هذا ليس بصحيح وليس توكلًا حقيقيًّا؛ فإن الذي أمرك بالتوكل عليه هو الذي قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[1] ولو قال قائل: أنا سأتوكل في حصول الولد أو في حصول الزوجة ولم يشرع فيطلب الزوجة ويخطبها، لَعَدَّه الناس سفيهًا؛ ولكان فعله هذا منافيًا لما تقتضيه حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، ولو أن أحدًا أكل السم وقال: إني أتوكل على الله تعالى في ألا يضرني هذا السم، لكان هذا غير متوكل حقيقة؛ لأن الذي أمرنا بالتوكل عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[2] وليعلم أن فعل الأسباب التي جعلها الله تعالى لا تنافي كمال التوكل بل هو من كماله، وأن التعرض للمهلكات لا يعد هذا من توكل الإنسان على الله بل هو خلاف ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به.

---

(١) سورة الملك:١٥.

(٢) سورة النساء:٢٩.



المعراج السابع

المحبة

أن تحب الله فهذا حياة قلبك
لكن أن يحبك الله
فهذا سعادة دنياك وآخرتك

المعراج السابع

المحبة



تعريف المحبة:

في اللغة:

الحُبُّ نَقِيضُ البُغْضِ، والحُبُّ الوِدادُ والمَحَبَّةُ[1]. وأصل المحبة الصفاء، وقيل هي لباب الشيء وخالصه وأصله.

في الاصطلاح:

هي سفر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره على الدوام.

ومحبة الله ورسوله ودينه وأوليائه هي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون.

قال الإمام الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمحبة الله للعبد إنعامه عليه وإثابته إياه وإرادة نعمه».

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعنى محبة الله لهم الرضا عنهم والإحسان إليهم، كما يفعل المحب بمحبوبه».

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة تفضل بها عليه، وإذا أحب الله عبدًا يسر له

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٨٩.

الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد»[1].

والقلب لا يخلو من متعلق يتعلق به، فما أعظم أن يتعلق بخالقه فيستولي عليه حتى توافق محابه محاب الله جل جلاله.

وهي الحياة التي من حرمها فهو في جملة الأموات، وهي النور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات.

وهي الشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، وهي اللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.

وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال[2].

ورودها في الكتاب:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾[3].

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا﴾ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٢١٤.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٦.

(٣) سورة البقرة: ١٦٥.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ص ٧٩.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾[1].

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا من نعمه على عباده، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم ودًّا، أي: محبة ووداداً في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب ود تيسر لهم كثير من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل[2].

تنقسم المحبة باعتبار الباعث عليها إلى قسمين:

أحدهما: محبة تنشأ من الإحسان ومطالعة الآلاء والنعم.

الثاني: محبة تنشأ من جمال المحبوب وكمال أسمائه وصفاته.

فأما الأول: فإن القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحسانًا من الله سبحانه، فإن إحسانه على عبده في كل نَفَسٍ ولحظة، وهو يتقلب في إحسانه في كل أحواله.

ولا سبيل إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلًا عن أنواعه، ويكفي أن من بعض أنواعه نعمة النَّفَسِ التي لا تكاد تخطر ببال العبد، فإنه يتنفس في اليوم والليلة أكثر من أربعة وعشرين ألف نفس، فلله عليه في كل يوم وليلة أربعة وعشرون ألف نعمة، وكل نعمة تحتاج إلى شكر.

فإذا كان هذا أدنى نعمة عليه، فما الظن بما فوق ذلك وأعظم منه؟

---

(١) سورة مريم: ٩٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ص ٥٠١.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[1].

هذا إلى جانب ما يصرف عن العبد من المضرات وأنواع المؤذيات التي تقصده، ولعلها توازن النعم في الكثرة، والعبد لا شعور له بأكثرها أصلًا.

والله ﷻ يكلؤه منها بالليل والنهار كما قال سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾[2].

فالله عزَّ وجلَّ منعم عليهم بحفظهم وحراستهم مع غناه التام عنهم، وفقرهم التام إليه سبحانه، فإنه غني عنهم من كل وجه، وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه. خلق لهم ما في السموات وما في الأرض، وما في الدنيا والآخرة، ثم أهَّلهم وأكرمهم، وأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وشرع لهم شرائعه، وأذن لهم في مناجاته كل وقت أرادوا[3].

قوة الحب للرب تحصل بأمرين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد والصبر.

الثاني: قوة معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة، ثم تبعها العمل.

ويحصل ذلك بمعرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومداومة ذكره، ومعرفة جلاله وإنعامه وإحسانه[4].

---

(١) سورة النحل: ١٨.

(٢) سورة الأنبياء: ٤٢.

(٣) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ٨/ ٦٨.

(٤) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ٨ / ٦٣.

ثمرات محبة الله:

إن لمحبة الله تعالى لعبده ثمراتٍ عظيمةً في الدنيا والآخرة، فيكفيه أن يكون الله تعالى معه في كل صغيرة وكبيرة يوفقه ويسدده ويحفظه ويرعاه، يحفظ سمعه عن السماع لما يغضب الله، ويحفظ بصره عن رؤية ما يغضب الله، ويحفظ يده عن أن تفعل ما يغضب الله، يحفظ قدمه من أن تمشي إلى ما يكرهه الله، ويحفظ جوارحه كلها عن كل ما يسخط الله تعالى ويغضبه. يحبه جبريل، ويحبه أهل السماء جميعًا، ويوضع له القبول في الأرض بين الناس. ينجو من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر، ينال كتابه بيمينه، ويمر على الصراط مرور الكرام، ويشرب من حوض النبي ﷺ، وينجو من النار وعذابها، ويدخل الجنة دار الكرامة، وينظر إلى وجه الله تعالى وهو أعظم نعيم للمحب أن يرى حبيبه بعدما طال الشوق إليه، ويرضى الله تعالى عليه رضًا لا سخط بعده أبدًا. كل هذه الثمرات ألا تجعل العبد يسعى في نيل محبة الله تعالى ورضاه؟!

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: **مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[1].

وعنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ:**

(١) صحيح البخاري: ٦٥٠٢.

إنَّ اللهَ يُحبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحبُّهُ جبْرِيل فَيُنَادي جبْرِيلُ في أَهْلِ السَّمَاءِ: إنَّ اللهَ يُحبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أهل السَّماءِ ثمَّ يُوضعُ لهُ القَبُول فِي الأَرْضِ»[1].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾[2] في الآية إشارة إلى أن الله تعالى لا يعذب من يحب. **ما الأسباب المعينة على محبة الله؟**

عدها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (مدارج السالكين) عشرة أسباب، كما يلي:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه:

إن قراءة القرآن العظيم والتدبر في آياته وتفهم معانيها، لها أثر عظيم في زيادة محبة العبد لربه عَزَّوَجَلَّ، فكلما كانت صلة العبد بهذا القرآن أعظم كلما ازدادت محبته لربه، فإن من يحب شيئًا يكثر من ذكره والحديث عنه، ويحب كلامه وكل ما يتعلق به، وقد ندب الله عَزَّوَجَلَّ عباده المؤمنين إلى قراءة هذا القرآن والعناية به وتدبر آياته، والاتعاظ بمواعظه، والعمل بما فيه، وحذر من هجره، ورغب في تلاوته في آيات كثيرة من كتابه:

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[3].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾[4].

(١) صحيح البخاري ٣٢٠٩.

(٢) سورة المائدة: ١٨.

(٣) سورة المزمل: ٤.

(٤) سورة فاطر: ٢٩.

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١).

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾(٢).

وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(٣).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(٤).

وعن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(٥).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال ﷺ: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق له أجران**».

وقال ﷺ: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**»(٦).

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة:

فلا يزال العبد يتقرب إلى الله ويتقرب، حتى يحبه الله سبحانه، ويجعله من أوليائه الذين يحبهم ويحبونه. قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى قال: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا**

---

(١) سورة البقرة: ١٢١.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٣) سورة النساء: ٨٢.

(٤) سورة محمد: ٢٤.

(٥) صحيح البخاري: ٥٠٢٧.

(٦) صحيح مسلم: ٧٩٨.

أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصرُ به، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطشُ بهَا، وَرجْلَهُ الَّتي يَمْشي بهَا وَإِنْ سَألني لأعْطينَّهُ، وَلئِنْ اسْتَعَاذَني لأُعيذنه، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شيءٍ أَنا فاعِلهُ تردُّدِي عَنْ نَفْسِ المؤْمِنِ يَكْرَهُ الموْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1].

الثالث: دوام ذكر الله على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر:

وكذلك دوام ذكر الله عَزَّوَجَلَّ على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، من أسباب زيادة محبة العبد لربه؛ ولذلك فقد حث الله عَزَّوَجَلَّ على ذكره فقال جل في علاه: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[4].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: قال الله عَزَّوَجَلَّ: **أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدي بي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكرَني فَإِنْ ذَكرَني في نَفْسه ذَكَرْتُهُ في نَفْسي، وَإِنْ ذَكَرَني في مَلإ ذَكرتهُ في مَلإ خَيْر منْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَي بشبْر تَقَرَّبْتُ إليْه ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقرَّبَ إِلَي ذرَاعًا تَقرَّبْتُ إِلَيْه بَاعًا، وَإِنْ أَتَاني يَمْشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَة**[5].

وحث النبي ﷺ كذلك على ذكر الله تعالى، ورغب فيه: فعن أبي موسى

---

(١) صحيح البخاري: ٦٥٠٢.
(٢) سورة البقرة: ١٥٢.
(٣) سورة الأحزاب: ٤١.
(٤) سورة الأحزاب: ٣٥.
(٥) صحيح البخاري ٧٤٠٥.

الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»(١).

الرابع: إيثار محاب الله على محابك عند غلبات الهوى والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى:

سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في وحل الفتن والشهوات، فمن ترفع عن هواه وُقِي، فكم مرة في الله غالبت الهوى لأن المقام يستحق المسارعة والصبر والمصابرة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾(٢) وقال ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بهنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليْه مِمَّا سوَاهمَا، وَأَنْ يحبَّ المرءَ لَا يحبُّهُ إلا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يعودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٣).

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة:

وأعظم الأسباب التي تزيد محبة العبد لربه: مطالعة أسمائه وصفاته ومشاهدتها بعين القلب، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أهل لأن يحب لذاته؛ لأن له جمال الذات والأسماء والصفات والأفعال، فمن تأمل صفات الله عَزَّوَجَلَّ وأسماءه وعاش

---

(١) صحيح البخاري ٦٤٠٧.

(٢) سورة النازعات: ٣٧-٤١.

(٣) صحيح مسلم: ٤٣.

معها، فإنه يتيقن معها عظمته وجلاله وجماله، كأنه ينظر إلى الرحمن على عرشه مستويًا عليه، بائنًا من خلقه، يأمر وينهى، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقضي وينفذ، ويعز ويذل، ويقلب الليل والنهار، ويداول الأيام بين الناس، أحاط بكل شيءٍ علمًا، وأحصى كل شيءٍ عددًا، ووسع كل شيء رحمة وحكمة، وسع سمعه الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، لا تختلف عليه ولا تشتبه، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على كثرة حاجاتها، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح ذوي الحاجات.

سواء عنده من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار، لا يشغله جهر من جهر عن سمعه لصوت من أسرَّ، بل هي عنده كلها كصوتٍ واحد، كما أن الخلق جميعهم خلقهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[1] قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها: أي يسمعكم ويبصركم كسمعه وبصره لرجل واحد، أحاط بصره بجميع المرئيات: فيرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويرى جناح البعوضة في ظلمة الليل، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

له الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة والفضل، وله الثناء الحسن، له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله. لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه سبحانه،

(١) سورة لقمان: ٢٨.

يمينه ملأى لا تَغِيضُها نفقةٌ، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه، لو أن أشجار الأرض كلها من حين وجدت إلى أن تنقضي الدنيا أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر، فكتب بتلك الأقلام، وذلك المداد، لفنيت الأقلام ونفد المداد، ولم تنفد كلمات الله... وكيف تنفد وهي لا بداية لها ولا نهاية؟! فإذا عاش العبد مع أسماء الله تعالى وصفاته هكذا، عظمت محبته لربه عَزَّوَجَلَّ، ولم يُؤْثِرْ على رضاه شيئًا أبدًا، وإن مُزِّق أو حُرِّق أو قُتل أو عُذِّب في سبيل ذلك بكل ألوان العذاب.

فكيف والأمر لا يزيد عن كونه معصية يتوب منها، وهوى يُعرض عنه، وفتنة يستعيذ بالله من شرها، وطاعة يسارع فيها متقربًا؟ والموفق من أعانه الله فأبصر بقلبه عظمة مولاه.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته:

إن من يتفكر في عظيم إحسان الله له، وما حباه به من النعم الظاهرة والباطنة لا بد أن يحب الله عَزَّوَجَلَّ حبًّا عظيمًا، لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، فكيف بمن أنشأها من العدم وصورها في الأرحام، وغذاها ورعاها في تلك الظلمات، ويسر لها الخروج إلى هذه الحياة، ثم توالت نعمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليها، وأعظمها نعمة الإسلام التي حرم الكثيرون وأنعم بها عليك، ثم وفقك لطاعته وللأعمال الصالحة، ثم ينعم بعد ذلك عليك في الآخرة بجنته؟... كل هذه النعم ولا يستحق منك أن تحبه حبًّا عظيمًا صادقًا لا تحبه أحدًا من العالمين؟!

السابع: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى:

إن لذل القلب وانكساره بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ تأثيرًا عجيبًا في المحبة، ويفتح أمام العبد أبوابًا عظيمة من الخير، ويوصله إليها من أقرب طريق، حتى إنه يسبق غيره وهو نائم على فراشه.

قيل لبعض الصالحين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء، وقد عرَّف بعض السلف العبادة بأنها: غاية الحب مع غاية الذل، فسجود القلب خضوعه وتذلله وامتلاؤه بالمحبة.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة:

والخلوة بالله ﷻ وقت نزوله في الثلث الأخير من الليل لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بين يديه متأدبًا بأدب العبودية، من أعظم الأسباب التي تورث القلب محبة الله عَزَّوَجَلَّ؛ قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[1] وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[2] وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»[3].

---

(١) سورة السجدة: ١٦-١٧.

(٢) سورة الذاريات: ١٦-١٨.

(٣) صحيح البخاري: ١١٤٥.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر:

ومجالسة المحبين الصادقين والتعرف على أحوالهم والاقتداء بهم يزيد العبد محبة لله عَزَّوَجَلَّ وشوقًا إليه وإلى جنته.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1] وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكِيرِ الْحَدَّادِ؛ لَا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً**»[2].

قال ﷺ: «المرءُ مع مَن أحَبَّ»[3].

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عَزَّوَجَلَّ[4]:

ومن أسباب زيادة محبة الله تعالى في قلب العبد: البعد عن كل ما يحول بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، وأعظمها الذنوب والآثام، فإنها تضعف محبة الله في قلب العبد، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[5].

---

(١) سورة الكهف: ٢٨.

(٢) صحيح البخاري: ٢١٠١.

(٣) صحيح البخاري: ٦١٦٨.

(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ١٧.

(٥) سورة المطففين: ١٤.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محالٌ في القياس بديع

لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وكذلك البعد عن مخالطة من لا خير فيه من الناس، وعدم الإكثار من المباحات، وفضول الطعام والشراب والنظر والكلام، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك.. وغيرها كثير مما يحول بين القلب وبين الله، قال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ (٢).

وبعد، فهذه أسباب وعلامات من خلا قلبه منها فهو مُدَّع للحب لا يُقبَل منه ادعاؤه، قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمحبة شجرةٌ في القلب عروقها الذل للمحبوب، وساقها معرفته، وأغصانها خشيته، وورقها الحياء منه، وثمرتها طاعته، ومادتها التي تسقيها ذكره، فمتى خلا الحب من شيء من ذلك كان ناقصًا».

وردِّد في قلبك ولسانك في كل موطن يرجى إجابة الدعاء فيه: اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب عمل صالح يقربني إلى حبك، اللهم حَبِّبْ إلي الإيمان وزيِّنْه في قلبي.

---

(١) سورة آل عمران: ٣١.

(٢) سورة الأنفال: ٢٤.



المعراج الثامن

التقوى

المرء نتاج خلواته
من راقب الله في سره
حفظه الله في سره وعلانيته

المعراج الثامن

التقــوى



تعريف التقوى:

لغة:

وقاه الله السوء وقايةً أي: حفظه[1].

اصطلاحًا:

أن تفعل ما أمرك الله به رجاء ثوابه، وأن تترك ما نهاك عنه خوفًا من عقابه[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في تعريف التقوى الشرعي: «حقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالآمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالناهي وخوفًا من وعيده»[3].

وقيل في معنى التقوى:

١- امتثال أوامر الله واجتناب النواهي، فالمتقون هم الذين يراهم الله حيث أمرهم، ولا يقدمون على ما نهاهم عنه..

٢- التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

---

(١) المصباح المنير، أحمد الفيومي ١/ ٣٤٥.

(٢) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ٨/ ١٤٥.

(٣) الرسالة التبوكية، ابن القيم ٢/ ٩.

٣- التقوى أن يجعل المسلم بينه وبين ما يخشاه من ربه ومن غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وذلك بفعل طاعته واجتناب معاصيه..

٤- وقد سأل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُبَي بن كعب فقال له: ما التقوى؟ فقال أُبَي: يا أمير المؤمنين أما سلكت طريقًا فيه شوك؟ قال: نعم.. قال: ما فعلت؟

قال عمر: «أشمّر عن ساقي وأنظر إلى مواضع قدمي وأقدم قدما وأؤخر أخرى مخافة أن تصيبني شوكة»، فقال أَبَي بن كعب: «تلك التقوى..!»، فهي تشمير للطاعة ونظر في الحلال والحرام وورع من الزلل ومخافة وخشية من الكبير المتعال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى..

٥- التقوى هي أساس الدين، وبها يرتقى إلى مراتب اليقين، هي زاد القلوب والأرواح فبها تقتات وبها تتقوى وعليها تستند في الوصول والنجاة..

حقيقة التقوى:

تكون في القلب بالإيمان بالله وطاعته وعبادته وخشيته، ثم تظهر على الجوارح بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي[1].

ورودها في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[2].

---

(١) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ٦/ ٨٧.

(٢) سورة البقرة: ١٨٩.

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح، الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، فمن لم يتق الله تعالى، لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه، فاز بالفلاح والنجاح[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل من اتقى الله تعالى، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة.

ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجًا ومخرجًا من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله جعل له فرجًا ومخرجًا، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والآصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعتها.

وقوله {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} أي: يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به[3].

وفي الحديث سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ **فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الفم والفرج»**[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ص ٨٨.

(٢) سورة الطلاق:٢-٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ص ٨٦٩.

(٤) سنن ابن ماجه: ٤٢٤٦، وسنن الترمذي: ٢٠٠٤، وحسنه الألباني.

لمَ الحديث عن التقوى؟

١- أن كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) تسمى كلمة التقوى:

قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾(١).

٢- أمر الله بها عباده عامة وأمر بها المؤمنين خاصة:

قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾(٦).

---

(١) سورة الفتح: ٢٦.
(٢) سورة النحل: ٢ .
(٣) سورة المؤمنون: ٥٢.
(٤) سورة الزمر: ١٦.
(٥) سورة آل عمران: ١٠٢.
(٦) سورة النساء: ١ .

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[1].

٣- وصية الأنبياء لقومهم:

قال تعالى: ﴿مِن إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾[4].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾[5].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾[7].

٤- طلب الله من الخلق عبادته لتحقيقها

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾[8].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

---

(١) سورة النساء: ١٣١.

(٢) سورة الشعراء: ١٠٦.

(٣) سورة الشعراء: ١٢٤.

(٤) سورة الشعراء: ١٤٢.

(٥) سورة الشعراء: ١٦١.

(٦) سورة الشعراء: ١٧٧.

(٧) سورة العنكبوت: ١٦.

(٨) سورة البقرة: ٢١.

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[2].

٥. مكانها القلب وهو أهم عضو في جسم الإنسان والذي عليه الصلاح أو الفساد:

عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «الحلالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ، وبينهما مُشَبَّهاتٌ لا يعلمُها كثيرٌ من الناس، فمَن اتقى المشَبَّهات استبرأَ لدينه وعِرضه، ومَن وقَع في الشبُهاتِ: كَراع يرعى حولَ الحمى يوشكُ أن يواقعَه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمُه، ألا وإن في الجسدِ مُضغَة: إذا صلَحَتْ صلح الجسدُ كله، وإذا فسَدَتْ فسَد الجسدُ كله، ألا وهي القلبُ»[3].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُم عَلَى بَيْع بَعْض وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو المسْلم لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْره ثَلَاثَ مَرَّاتَ، بِحَسْب امْرِئ مِنْ الشَّر أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُل الْمُسْلِم عَلَى الْمُسْلِم حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضه»[4].

---

(١) سورة البقرة:١٨٣.

(٢) سورة الأنعام:١٥٣.

(٣) صحيح البخاري: ٥٢.

(٤) صحيح البخاري: ٦٠٦٤.

منزلة التقوى:

قال رسول الله ﷺ لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اعقل يا أبا ذر ما أقول لك بعد**»، **ستة أيام، كل يوم يقول له: «اعقل يا أبا ذر ما أقول لك بعدُ» فلما كان اليوم السابع قال: «أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته»**[1].

ولم يزل السلف الصالح يتواصَوْن بها، وكان أبو بكر يقول في خطبته: «أوصيكم بتقوى الله»، ولما حضَرَتْه الوفاةُ دعا بالوصية لعمر وقال: «اتقِ الله يا عمر»، وعمر كتب بها لابنه فقال: «أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل»، واستعمل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا على سرية فقال: «أوصيك بتقوى الله الذي لا بد لك من لقائه»، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: «أوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ التي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ولا يثيب إلا عليها فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين»، ولما وُلِّيَ خطب وحمد الله وأثنى عليه وقال: «أوصيكم بتقوى الله عز وجل فإن تقوى الله عز وجل خلف من كل شيء وليس من تقوى الله خلف»، التقوى يمكن أن تعوِّض أيَّ شيء، لكن إذا فُقِدتْ لا يعوضها شيء.

وقال رجل ليونس بن عُبَيد: أوصني، قال: «أوصيك بتقوى الله والإحسان فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»، وكتب رجل من السلف إلى أخيه: «أوصيك وأنفسنا بالتقوى فإنها خير زاد الآخرة والأولى واجعلها إلى كل خير سبيلك ومن كل شر مهربك، فقد توكل الله عز وجل لأهلها بالنجاة مما يحذرون والرزق من حيث لا يحتسبون»، وكتب ابن السمّاك الواعظ إلى أخٍ له: «أما بعد أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيُّك في

(١) مسند أحمد: ٢١٥٧٣.

سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حالك، في ليلك ونهارك، وخَفِ الله بقدر قربه منك وقدرته عليك، واعلم أنك لن تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرك، وليكثر منه وجَلُك، والسلام». الله أكبر ما أعظمها من وصية وما أحوجنا للتواصي بها دائمًا.

مراتب التقوى:

١- اتقاء الشرك.

٢- اتقاء البدعة.

٣- اتقاء المعصية.

والله عَزَّوَجَلَّ ذكر التقوى ثلاث مرات في آية واحدة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾[1]، فهذا التكرار ليس تكرارًا مجردًا، فقال بعضهم: التقوى الأولى تقوى عن الشرك، والثانية تقوى عن البدعة، والثالثة عن المعاصي، ويقابل الأولى التوحيد، والثانية السنة، والثالثة الطاعة، فجمع بين هذه المنازل الثلاث[2].

أقسام التقوى:

١- تقوى القلوب.

٢- تقوى الجوارح.

---

(١) سورة المائدة: ٩٣.

(٢) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد ٣/ ٦٧.

والأصل تقوى القلوب، وتقوى الجوارح من لوازم تقوى القلوب، وهي ثمرة تقوى القلوب، فالتقوى في الحقيقة في القلب كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[1].

وتقوى الجوارح لا قيمة لها ولا وزن بدون تقوى القلوب.

والله ﷻ أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم، وحقائق الإيمان على بواطنهم، ولا يقبل واحد منهما إلا بصاحبه وقرينه، والإسلام علانية، والإيمان في القلب[2].

ثمرات التقوى:

١- محبة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾[4].

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾[5].

---

(١) سورة الحج: ٣٢.

(٢) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري٨/ ١٤٧.

(٣) سورة التوبة:٤.

(٤) سورة التوبة:٧.

(٥) سورة آل عمران:٧٦.

٢- رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾[2].

٣- سبب لمعية الله وعونه ونصره وتأييده:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾[4].

٤- حصن الخائف وأمانه من كل ما يخاف ويحذر، من سوء ومكروه في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٦.

(٢) سورة الأنعام: ١٥٥.

(٣) سورة النحل: ١٢٨.

(٤) سورة التوبة: ٣٦.

(٥) سورة الأعراف: ٣٥.

وقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾[1].

٥- تبعث في القلب النور وتقوي بصيرته فيميز بين ما ينفعه وما يضره:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[3].

٦- تعطي العبد قوة لغلبة الشيطان:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[4].

٧- وسيلة لنيل الأجر العظيم:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾[6].

---

(١) سورة الزمر: ٦١.
(٢) سورة الأنفال: ٢٩.
(٣) سورة الحديد: ٢٨.
(٤) سورة الأعراف: ٢٠١.
(٥) سورة الطلاق: ٥.
(٦) سورة آل عمران: ١٧٩.

٨- توسيع الرزق وفتح مزيد من الخيرات:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

٩. تفريج الكرب وتيسير الأمور:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾[4].

١٠- النصر على الأعداء ورد كيدهم والنجاة من شرهم:

قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾[5].

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾[7].

---

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

(٢) سورة الطلاق: ٢-٣.

(٣) سورة الطلاق: ٢.

(٤) سورة الطلاق: ٤.

(٥) سورة آل عمران: ١٢٠.

(٦) سورة آل عمران: ١٢٥.

(٧) سورة فصلت: ١٨.

١١. أن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ (٥).

١٢- المتقون ينتفعون بالموعظة ويؤثر فيهم الذكر ويتفكرون في الآيات ويهتدون بذلك:

قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (٦).

---

(١) سورة الأعراف: ١٢٨.

(٢) سورة هود: ٤٩.

(٣) سورة القصص: ٨٣.

(٤) سورة الرعد: ٣٥.

(٥) سورة البقرة: ٢١٢.

(٦) سورة المائدة: ٤٦.

وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[5] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[6].

١٣- أنها صفة لأولياء الله وطريق لولاية الله:

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[7].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[8].

---

(١) سورة البقرة:٦٦.

(٢) سورة آل عمران:١٣٨.

(٣) سورة النور:٣٤.

(٤) سورة البقرة:٢.

(٥) سورة الأنبياء:٤٨.

(٦) سورة الحاقة:٤٨.

(٧) سورة يونس:٦٢-٦٤.

(٨) سورة الأنفال:٣٤.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ (١).

١٤. أنها الميزان الذي يقرب العبد من ربه ويدنيه:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (٢).

١٥- أنها أفضل ما يتزود به العبد في طريقه إلى الله:

قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ (٣).

عَنْ أَنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا فَزَوِّدْنِي، قَالَ: «زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى، قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: وَغَفَرَ ذَنْبَكَ، قَالَ: زِدْنِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: وَيَسَّرَ لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ» (٤).

١٦- من أسباب قبول العمل:

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ۚ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (٥).

---

(١) سورة الجاثية:١٩.

(٢) سورة الحجرات:١٣.

(٣) سورة البقرة:١٩٧.

(٤) سنن الترمذي: ٣٤٤٤، وحسنه الألباني.

(٥) سورة المائدة:٢٧.

١٧- أن القرآن بشرى للمتقين:

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾[١].

١٨- كل علاقات الأخلاء تنتهي يوم القيامة إلا علاقات المتقين:

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[٢].

١٩. المتقون هم الفائزون:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾[٣].

٢٠- المتقون تنالهم رحمة الله:

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[٤].

٢١- أنها صفة للأنبياء ومن صدقهم:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[٥].

٢٢- سبب لنجاة العبد يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[٦].

---

(١) سورة مريم: ٩٧.

(٢) سورة الزخرف: ٦٧.

(٣) سورة النور: ٥٢.

(٤) سورة الأعراف: ١٥٦.

(٥) سورة الزمر: ٣٣.

(٦) سورة مريم: ٧٢.

وقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾[1].

٢٣- سبب لمغفرة الذنوب:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[2].

٢٤- الكرم إنما يكون بالتقوى:

عَنْ سَمُرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْحَسَبُ الْمَالُ، وَالْكَرَمُ التَّقْوَى»[3].

٢٥- المتقون يسهل لهم الله العلم:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾[4].

٢٦- الجنة: دار المتقين:

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾[6].

---

(١) سورة الزمر: ٦١.

(٢) سورة الحديد: ٢٨.

(٣) سنن ابن ماجه: ٤٢١٩، وسنن الترمذي: ٣٢٧١، وصححه الألباني.

(٤) سورة البقرة: ٢٨٢.

(٥) سورة آل عمران: ١٣٣.

(٦) سورة النحل: ٣٠-٣١.

وقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾[1].

وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾[4].

كيف أكون من المتقين؟

١- ترك بعض المباحات خوفًا من الوقوع في المكروهات أو المحرمات:

عن رسول الله ﷺ قال: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس**»[5].

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تمام التقوى أن يتقي الله العبدُ؛ حتى يتقيه من مثقال ذرة، وحتى يترك ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا»[6].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام»[7].

---

(١) سورة الشعراء: ٩٠.

(٢) سورة القلم: ٣٤.

(٣) سورة ق: ٣١.

(٤) سورة محمد: ١٥.

(٥) سنن ابن ماجه: ٤٢١٥، وسنن الترمذي: ٢٤٥١ وضعفه الألباني.

(٦) ابن المبارك، كتاب الزهد، ٢/ ١٩.

(٧) جامع العلوم والحكم، ص ٩١.

وقال الثوري: «إنما سُمُّوا متقين لأنهم اتقوا ما لا يُتقى عادة أو ما لا يتقيه أكثر الناس».

وقال بعضهم: «إذا كنت لا تحسن تتقي؛ أكلت الربا، وإذا كنت لا تحسن تتقي؛ لقيتك امرأة ولم تغض بصرك، وإذا كنت لا تحسن تتقي؛ وضعت سيفك على عاتقك»، أي تدخل في الفتن بالجهل.

فالتقوى عمليًّا: أن ندع المحرمات وبعض المباحات أو المشتبهات تورعًا لننال منزلة التقوى.

٢- المراقبة:

وصى النبي ﷺ معاذًا لما بعثه إلى اليمن فقال: «**يا معاذ اتق الله حيثما كنت، وأتْبِعِ السيئة الحسنة تمْحُها، وخالِقِ الناس بخلق حسن**»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديث «اتق الله حيثما كنت»: ما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ﴾(٢).

٣- التزام الدعاء بذلك:

والنبي ﷺ كان من دعائه: «**اللهم آت نفوسي تقواها وزكها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها**»(٣).

والنبي ﷺ كان يسألها في دعائه فيقول: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**»(٤).

---

(١) سنن الترمذي: ١٩٨٧، وحسنه الألباني..

(٢) سورة النساء: ١٣١.

(٣) صحيح مسلم: ٢٧٢١.

(٤) صحيح مسلم: ٢٧٢١.

٤- العفو والصفح:

قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[١].

فالمتقون أهل سلامة الصدر، وهم يعفون عن الناس لأنهم يعاملون ربًّا عفوًّا يحب العفو فهم ربانيون.

٥- تحري الصّدق في الأقوال والأعمال:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾[٢]، الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ، والذي صدق به قيل: هو أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- تعظيم شعائر الله:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[٣].

فعظم شأن العبادات، الصلاة على أول وقتها، الصيام صيام جوارح وقلب لا صيام عن الطعام والشراب والشهوة فقط، وهكذا يعظمون شأن العبادة وسائر ما عظمه الله من الشرائع والشعائر فيرزقهم الله التقوى.

٧- العدل والإنصاف:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٧.

(٢) سورة الزمر: ٣٣.

(٣) سورة الحج: ٣٢.

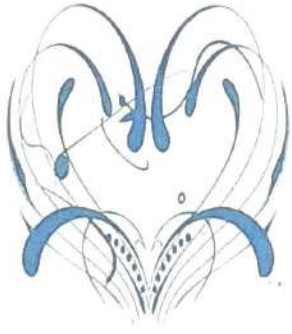
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1].

فلا يعرفون الظلم، ولا تأخذهم في الله شفاعة شافع أو قرابة قريب، فلا يعرفون إلا العدل في كل شيء، لأنهم يتخلقون بصفة ربهم الذي حرم الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرمًا.

٨- رفقة الصالحين أهل الصدق المتقين:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[2].

فلابد من صحبة الخير والأخوة الإيمانية ليحقق الإنسان هذه المنزلة ويثبت عليها.



(١) سورة المائدة: ٨.

(٢) سورة التوبة: ١١٩.



المعراج التاسع

الصبر

قال رسول الله ﷺ :

«ما أَعْطَى اللهُ أحدًا من عطاءٍ أوسعَ من الصبرِ

المعراج التاسع
الصبر



تعريف الصبر:

لغةً: حبس النفس[1].

اصطلاحًا:

هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن ما لا يحمد[2].

وجاء في تعريفه: «الصبر التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البليَّة، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة».

ومعنى الصبر لا يقتصر على مفهوم عدم الجزع عند المصيبة، ولكن:

١. الثبات على الطاعات ومجاهدة النفس على أدائها على أحسن وجه وأكمل صورة يُعدُّ صبرًا.
٢. الثبات على دين الله عمومًا مهما كثرت الفتن والابتلاءات وعظمت المحن والمغريات يُعدُّ صبرًا.
٣. كف النفس عن المنكرات وفطمها عن الشهوات المحرمة يُعدُّ صبرًا.
٤. حمل النفس على المعالي، والارتقاء بها إلى الكمال يُعدُّ صبرًا.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٣٧.

(٢) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري، ٨/ ١٧٨.

الصبر في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾[1]:

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ} أي: أيوب {صَابِرًا} أي: ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه الله تعالى. {نِعْمَ الْعَبْدُ} الذي كمَّلَ مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء.

{إِنَّهُ أَوَّابٌ} أي: كثير الرجوع إلى الله، في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء، والمحبة والتأله[2].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾[3]:

يقول الثعالبي في تفسير هذه الآية: أي اصبر يا محمد على ما يقوله الكفرة من أهل الكتاب وغيرهم، وعم بذلك جميع الأقوال الزائغة من قريش وغيرهم[4].

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ} من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات؛ فإن ذكر الله تعالى مُسَلٍّ للنفس، مؤنس لها، مهون للصبر[5].

---

(١) سورة ص: ٤٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ص ٧١٤.

(٣) سورة طه: ١٣٠.

(٤) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي ٤/ ٢٠٢.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ص ٨٠٧.

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[1]:

أي اقتدِ بصبرهم. وهم كما قال ابن عباس: ذوو الحزم، وقال الضحاك: ذوو الجد والصبر[2].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾[3]:

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب استبعادًا لوقوعه[4].

والصبر الجميل الذي لا يلحقه عيب ولا تشكٍّ ولا قلة رضا ولا غير ذلك[5].

وقال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾[6]:

أي: فاصبر على طاعته وأوامره ونواهيه لأجل ثواب الله، قال مجاهد: فاصبر لله على ما أوذيت. وقال ابن زيد: معناه حُمِّلت أمرًا عظيمًا من محاربة العرب والعجم فاصبر عليه لله عَزَّوَجَلَّ. وقيل: فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله[7].

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: «احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى، فامتثلَ رسولُ الله ﷺ لأمر ربه، وبادر إليه، فأنذَرَ الناس، وأوضح لهم بالآيات البيناتِ جميعَ المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى

(١) سورة الأحقاف: ٣٥.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٢٧١.

(٣) سورة المعارج: ٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٠٦.

(٥) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي ٤/ ٣٣٩.

(٦) سورة المدثر: ٧.

(٧) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٦٦.

تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنة على الناس -بعد منة الله- من غير أن يطلب منهم على ذلك جزاء ولا شكورًا، وصبر لله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين»[1].

وفي السنة:

- صبر النبي ﷺ على الأذى، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[2].

وفي الحديث قال ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ لا تَتَمَنَوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ**»[3].

- الصبر على تربية البنات، عن عائشة قالت:

قال رسول الله ﷺ: «**من ابتلي بشيء من البنات فصبر عليهن كن له حجابًا من النار**»[4].

- الصبر على فقد حبيب من ولد وصديق ونحوهما:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: «**ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم**

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ٨٩٥.

(٢) صحيح البخاري: ٣٤٧٧.

(٣) صحيح البخاري: ٢٩٦٦، وصحيح مسلم: ١٧٤٢.

(٤) سنن الترمذي: ١٩١٣، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

احتسبه إلا الجنة»[1].

- الصبر على الأذى في الجسد من مرض ونحوه:

في الحديث: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**»[2].

وعن أنس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: قال الله عَزَّوَجَلَّ: «**إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه -يريد عينيه- فصبَر، عوضته منهما الجنة**»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا**»[4].

- الصبر على الدين والثبات عليه عند الفتن:

قال رسول الله ﷺ: «**يأتي على الناس زمانٌ الصابرُ فيهم على دينه كالقابض على الجمر**»[5].

- الصبر على الكفاف والفقر:

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلًا يملأ به بطنه»[6].

وجاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن عمرو بن العاص وأنا عنده فقالوا:

---

(١) صحيح البخاري: ٦٤٢٤.

(٢) متفق عليه.

(٣) صحيح البخاري: ٥٦٥٣.

(٤) صحيح البخاري: ٢٩٩٦.

(٥) سنن الترمذي: ٠٦٢٢

(٦) صحيح مسلم: ٢٩٧٨.

يا أبا محمد إنا والله ما نقدر على شيء؛ لا نفقة ولا دابة ولا متاع، فقال لهم ما شئتم؛ إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسَّرَ الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا، قالوا: فإنا نصبر لا نسأل شيئًا [1].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها، قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادمًا، قال: فأنت من الملوك[2].

- الصبر على فضول الكلام:

لقوله ﷺ: «أمسك عليك لسانك»[3]. فإن المرء عن يمينه وشماله من يكتب حركاته وسكناته ويحصي عليه كلماته، فلْيُمسِكْ لسانه عن الخوض في أعراض الناس.

- الصبر عن النظر المحرم:

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[4] وفي الحديث **«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها خوفًا من الله آتاه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه»**[5].

---

(١) صحيح مسلم: ٢٩٧٩.

(٢) صحيح مسلم: ٩٧٩٢.

(٣) سنن الترمذي: ٢٤٠٦، و قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٤) سورة النور: ٣٠.

(٥) السلسلة الصحيحة: ٢٩٢٣.

لمَ الحديث عن الصبر؟

١- التأسي بأهل الصبر والعزائم، وأصحاب الثبات، الذين صبروا على ما أصابهم في سبيل الله، حتى قال قائلهم وقد ضربه قومه فأدموه: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»، وقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[١].

٢- التأكيد على الصبر والمصابرة في بعض المجالات التي يشق على النفس الصبر عندها، ومنها:

- الصبر على المحافظة على الفرائض، وفي مقدمتها الصلاة والصيام.
- الصبر على الدعوة بالثبات عليها، وتحمل تبعاتها، والقيام بمسؤولياتها، وعدم اليأس وإن طال الطريق وقلَّ المستجيب.
- الصبر عن المحظورات.

٣- الصبر إيمان يربط القلب بخالقه، فلا يدعه يتقلب ويتذبذب؛ سواءٌ أحاطت به سرَّاء أو نزلت به ضرَّاء، فلا السراء تطغيه، ولا الضراء تجزعه، قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[٢].

٤- وورد التواصي بالصبر في القرآن الكريم في موضعين: أحدهما في سورة العصر: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾[٣]، والثاني

---

(١) سورة الأحقاف: ٣٥.

(٢) صحيح مسلم: ٢٩٩٩.

(٣) سورة العصر: ٣.

في سورة البلد: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾[1].

٥- أمر الله عَزَّوَجَلَّ أنبياءه ورسله، وامتدحهم بالاتصاف به، كقوله تعالى في عبده ورسوله أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾[2] وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ رسولنا ﷺ بالصبر في قرابة عشرين موضعًا في كتاب الله كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[3].

٦- الصبر على التكاليف مهما ثقلت والمسؤوليات مهما عظمت، والواجبات مهما كثرت سنّة من سنن الأنبياء، وخصلة من خصال الربّانيين الأتقياء الذين يبذلون ويجاهدون، وعلى ما أصابهم يصبرون، وبدعاء ربّهم يلهجون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾[4] ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[5].

٧-الصبر مطيّة للارتقاء بالنفس نحو كمالها، ومعالجة آفاتها وأمراضها، فلن يصل العبد إلى المجد الذي يؤمله، والنجاح الذي ينشده إلا بالصبر[6].

---

(١) سورة البلد: ١٧.

(٢) سورة ص: ٤٤.

(٣) سورة الأحقاف: ٣٥.

(٤) سورة آل عمران: ١٤٧.

(٥) سورة الأعراف: ١٢٦.

(٦) الرائد، مازن الفريح....

أنواع الصبر:

صبر بدني، وهو نوعان:

١- اختياري كالصبر على الأعمال الشاقة.

٢- اضطراري كالصبر على ألم الضرب.

صبر نفسي، وهو نوعان:

١- اختياري كالصبر على المكروهات.

٢- اضطراري كالصبر على فقد الأحباب.

مسألة: هل الصبر فطري أم كسبي؟

الصبر خُلق يمكن تحصيله بالمصابرة والتعود على اكتساب هذا العمل.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر خلق كسبي يتخلق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي؛ فيحبس النفس عن التسخط واللسان عن الشكوى والجوارح عما لا ينبغي فعله، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية»[1].

فضل الصبر والصابرين:

الصبر خصلة رفيعة وخَلَّةٌ شريفة، وصفة إيمانية مُنيفة، جمع الله عَزَّوَجَلَّ للصابرين من الأجور ما لم يجمعها لغيرهم، والصبر من الله تعالى يمنحه أصحاب القلوب المخبتة التي علمت عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أعدَّ لعباده الصابرين ومن هذا:

١. **الله عَزَّوَجَلَّ موصوف بالصبر**: وحسبك بصفة قد اتصف بها ملك الملوك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، في الحديث: «**لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ؛ **إِنَّهُ يُشْرَكُ**

(١) الروح، ابن القيم ١/ ٢٤١.

به، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»[1].

٢. **كثرة ذكره في القرآن الكريم والإشادة به:** يقول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا».

٣. **الأمر به:** والله تعالى لا يأمر إلا بما هو خير وعدل وإحسان، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[2].

٤. **النهي عن ضده:** قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[3] فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها، وقال ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4] فإن الوهن من عدم الصبر.

٥. قال تعالى في إشارة نفسية دقيقة: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أعلون بإيمانكم بالله تعالى، فلو كل عبد أصيب بمصيبة تذكر (وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟) ففيها من الأنس الشيء الكثير، فمهما أصابك من هم، أو أحاط بك كرب، سيجلو الله ﷻ همك وكربك، وسيرفع ما بك من بلاء، وستكشف الغمة، وسيأتيك الفرج، وإن طال الليل في همٍّ أو كرب إلا أن الفجر يؤذِنُ بانبلاج، والشمس بالشروق، لذا تأملْ صبر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمّا وُضعَ بالمنجنيق أتاه جبريل قال له: ألك حاجة؟ قال: أما منك فلا، وأما من الله فنعم (حسبي الله ونعم الوكيل) فكانت النار بردًا وسلامًا، فهذه رسالة ربّانية أن كل من أُصيب بهم أو كرب ثم قال ما قال

---

(١) صحيح البخاري: ٦٩٤٣.

(٢) سورة النحل: ١٢٧.

(٣) سورة محمد: ٣٣.

(٤) سورة آل عمران: ١٣٩.

إبراهيم ستكون نار الهم والمصيبة بردًا وسلامًا على قلبه.

٦. **الثناء على أهله**، كقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾[١] وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[٢] وهو كثير في القرآن الكريم.

٧. **محبة الله للصابرين** كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[٣].

٨. **معية الله للصابرين**، وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[٤].

٩. **إخباره أن الصبر خير لأصحابه** كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[٥] وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٦] وَأُحِلَّ

١٠. **جزاء الصابرين بأحسن أعمالهم** كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[٧].

١١. **جزاء الصابرين بغير حساب** كقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[٨].

١٢. **إطلاق البشرى لأهل الصبر** كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ

---

(١) سورة آل عمران: ١٧.

(٢) سورة البقرة: ١٧٧.

(٣) سورة آل عمران: ١٤٦.

(٤) سورة الأنفال: ٤٦.

(٥) سورة النحل: ١٢٦.

(٦) سورة النساء: ٢٥.

(٧) سورة النحل: ٩٦.

(٨) سورة الزمر: ١٠.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾[1]. قال صلى الله عليه وسلم: «**وما أُعطِيَ أحدٌ من عطاءٍ خيرًا وأوسعَ من الصَّبْرِ**»[2].

١٣. **ضمان النصر والمدد لهم** كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[3]، ومنه قوله ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر**»[4].

١٤. **الإخبار منه تعالى أن أهل الصبر هم أهل العزائم**، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[5].

١٥. **الإخبار أنه ما يُلقّى الأعمال الصالحة وجزاءها وحظوظها العظيمة إلا أهل الصبر**، كقوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾[6] وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[7].

١٦. **الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر**، كقوله تعالى لموسى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾[8]، وقوله في أهل سبإ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥.
(٢) صحيح مسلم: ١٠٥٣.
(٣) سورة آل عمران: ١٢٥.
(٤) رواه أحمد: رقم ٢٨٠٤.
(٥) سورة الشورى: ٤٣.
(٦) سورة القصص: ٨٠.
(٧) سورة فصلت: ٣٥.
(٨) سورة إبراهيم: ٥.

لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾[1].

١٧. **الإخبار بأن الفوز بالمطلوب المحبوب**، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنّة إنما نالوه بالصبر، كقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[2].

١٨. **أنه يورث صاحبه درجة الإمامة**، قال شيخ الإسلام: «بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين» ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[3].

١٩. **اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان**، كما قرنه ﷻ باليقين والإيمان، وبالتقوى والتوكل، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة، كقوله تعالى: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾[4]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾[5]، فقد قرن في الأولى بين الصبر والتقوى، وفي الثانية بين الصبر والشكر، وقرن بين الصبر والتوكل كقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾[6]، وإنما جمع بين الصبر والتوكل؛ لأن نجاح الإنسان في تحقيق مراده يتوقف على أمرين: أمر من جانبه، وفي وسعه؛ من جهود تُبذل وأثقالٍ تُحمل وصعاب تُذلل، وهذه كلها تحتاج إلى صبر.

---

(١) سورة سبإ: ١٩.

(٢) سورة الرعد: ٢٤.

(٣) سورة السجدة: ٢٤.

(٤) سورة آل عمران: ١٢٥.

(٥) سورة لقمان: ٣١.

(٦) سورة العنكبوت: ٥٨-٥٩.

والأمر الآخر: ما لا يملكه وليس في وسعه، مما يضمره الغيب، وتخبئه الأقدار من أحداث كونية وظروف خارجية ومفاجآت غير متوقعة ولا محسوبة، فهذه لا يملك إزاءها إلا التوكل على الله، والالتجاء إليه، والثقة بتدبيره: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾[1] عزيز: لا يذل من التجأ إليه، حكيم: لا يضيع من وثِق بتدبيره جل جلاله وتقدست أسماؤه.

٢٠. **حمايتهم من كيد الأعداء ومخططاتهم**:- قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾[2].

٢١. **أنه من أكبر أسباب المغفرة**:- قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[3].

٢٢. **محك تمييز، وموضع تمحيص، ودليل صدق**: يتميز به المؤمن الصادق من المتخاذل اليائس؛ فالصبر دليل على صدق صاحبه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ

---

(١) سورة الأنفال: ٤٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٠.

(٣) سورة النحل: ١١٠.

(٤) سورة البقرة: ١٧٧.

حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ (١) (٢).

هل يجب التحلي بالصبر؟

فصّل العلماء في هذه المسألة؛ فالراجح من أقوالهم أن حكم الصبر إنما يكون بحسب المصبور عنه أو المصبور عليه، فالصبر عن المحرمات واجب، وتتأكد درجة وجوبه بمقدار عِظم المحرم، أما الصبر على المكروه والمستحبات فهو مستحب.

مجالات الصبر:

لّما كان الصبر صفة أساسية في صفات الشخصية الإسلامية، كان له أثر كبير وشأن عظيم في مجالات كثيرة في حياة المسلم يحدد مواقفه وأفعاله، وينظم سلوكياته وتصرفاته، ومجملها ثلاثة:

أ- الصبر عن المخالفات: سواء كانت محرمات أو مكروهات، ويتضمن ذلك البعد عنها، وسد الذرائع التي تقود إليها.

ب- الصبر على الطاعات: سواء كانت فرائض أو واجبات أو مستحبات. ويتضمن ذلك:

- دوام المحافظة عليها.
- رعايتها بالمتابعة والإخلاص، ولهم أجر المجاهدة، وأجر العمل، وأجر الصبر، فهنيئًا لأهل العمل الصالح.

ج - الصبر على المكروهات (الابتلاءات).

---

(١) سورة محمد: ٣١.

(٢) الرائد، مازن الفريح....

ومن جملة مجالات الصبر ما يلي:-

١- **الصبر على بلاء الدنيا**: وهذا ما لا يخلو منه برّ ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر، ولا سيد ولا مسود؛ لأنه راجع إلى طبيعة الحياة، وطبيعة الإنسان، وما رأينا أحدًا يسلم من آلام النفس، وأسقام البدن، وفقدان الأحبة، وخسران المال، وإيذاء الناس، ومتاعب العيش، ومفاجآت الدهر.

وهذا ما أقسم الله على وقوعه حين قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[1].

وهذا ما أوصى به رسول الله ﷺ تلك المرأة التي جاءت إليه ليدعو لها أن يشفيها الله من مرض الصرع الذي يعاودها فيصرعها وتنكشف ثيابها، عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؛ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي، قال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك**»، فقالت: أصبر، فقالت إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها[2].

٢- **الصبر عن مشتهيات النفس**: الصبر عما تشتهيه النفس، ويميل إليه

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥-١٥٧.

(٢) صحيح البخاري: ٥٦٥٢، وصحيح مسلم: ٢٥٧٦.

الطبع، من متاع الدنيا وزينتها وشهواتها التي يسوق إليها الهوى، ويزينها الشيطان، وله صور كثيرة في الواقع منها:

* الصبر عن الاستجابة لمتاع الدنيا وزينتها إذا أقبلت على الإنسان، وهذا هو الابتلاء بالسرَّاء، والصبر فيه أشد على النفس من الابتلاء بالضراء؛ ولهذا لمّا فتحت أبواب الدنيا على الصحابة قال بعضهم: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر. قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[1].

* الصبر عن التطلع إلى دنيا الآخرين، والاغترار بما ينعمون به من مال وبنين، وبخاصة الطغاة المغرورون منهم، فإن ما بأيديهم إنما ظاهره نعمة وباطنه نقمة، يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[2]، وفي هذا خاطب الله رسوله بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾[3].

فالمؤمن حقًّا هو الذي يعتز بما آتاه الله من نعمة الهداية إلى الإيمان، والتوفيق إلى الطاعة، ويعلم أن المال ظلٌّ زائل، وعارية مستردة، ولا يبالي بمظاهر الزينة التي يتمتع بها أصحاب المال.

أما موقف أهل العلم والإيمان وذوي البصيرة والصبر، فهو ما ذكره القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ

(١) سورة الأنفال: ٢٨.

(٢) سورة المؤمنون: ٥٥-٥٦.

(٣) سورة طه: ١٣١.

لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾[1] وهذا يجعل النفوس تسكن من داء الحسد.

* الصبر على العفة، فالاستعفاف فرض قاطع كما قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2] وخير من يمثل هذا النوع من الصبر في القرآن هو يوسف عليه السلام، الذي راودته امرأة العزيز عن نفسه، وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك، فقال: معاذ الله.

* الصبر عن الاستجابة لداعي الغضب، ومقابلة السيئة بمثلها أو بأكثر منها، وهذا هو الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[3].

وقد ورد في سبب نزول الآية السابقة عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: أصيب يوم أحد من الأنصار أربعة وستون وأصيب من المهاجرين ستة فيهم حمزة رضي الله عنه، فمثلوا بقتلاهم، فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يومًا من الدهر لنربين عليهم، فلما كان يوم فتح مكة نادى رجل لا يُعرَف يقول: لا قريش بعد اليوم، وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ فقال نبي الله ﷺ: **«كفوا عن القوم»**[4].

---

(١) سورة القصص: ٨٠.

(٢) سورة النور: ٣٣.

(٣) سورة النحل: ١٢٦.

(٤) رواه أحمد: ٠٣٢١٢.

وقد قال رسول الله ﷺ لأولئك الذين آذوه وأخرجوه، واستهزؤوا به، وكذبوه وقاتلوه: «**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**»، وعُرف هؤلاء في كتب التاريخ بالطلقاء، وقد قال رسول الله ﷺ عندما نزلت ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾: «نصبر ولا نعاقب»[1] فاختار الصبر والعفو تفضلًا واحتسابًا.

٣- **الصبر على طاعة الله:**- فالعبد محتاج إلى الصبر للقيام بواجب العبودية، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله: ﴿رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾[2]. وصيغة اصطبر تدل على المبالغة في حمل النفس على الصبر؛ لأن الطريق إلى طاعة الله مليئة بالمعوقات من داخل النفس وخارجها.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

- صبر قبل أداء الطاعة: وذلك بتصحيح النية والإخلاص والصبر على شوائب الرياء، ولهذا قدَّم الله الصبر على العمل فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[3].
- صبر حال العمل: كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ليتحقق بشرط المتابعة بعد تحققه بشرط الإخلاص، كما أنه يصبر على دواعي الفتور إلى أن يتم العمل،

---

(١) مسند أحمد: ٢١٢٢٩.

(٢) سورة مريم: ٦٥.

(٣) سورة هود: ١١.

حتى لا ينقطع أثناءه، ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)﴾[1] أي: صبروا إلى تمام العمل.

- بعد الفراغ من العمل؛ إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب، وعن كل ما يبطل عمله ويُحبط أثره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)﴾[2]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾[3]، فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله.

٤- **الصبر على مشاق الدعوة إلى الله**:- وهو صبر الداعية على مسؤوليات الدعوة وواجباتها، وآلامها ومتاعبها، ومشاقها وتضحياتها، ولقد أدرك لقمان الحكيم أهمية الصبر في الدعوة إلى الله فقال عقب وصيته لابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾[4].

ومشاق الدعوة إلى الله تعالى تتمثل في صور شتى، ذكرت في الكتاب والسنة، منها:

- الصبر على إعراض المدعو وقلة الاستجابة: فيصبر على ذلك،

---

(١) سورة العنكبوت: ٥٨-٥٩.

(٢) سورة محمد: ٣٣.

(٣) سورة البقرة: ٢٦٤.

(٤) سورة لقمان: ١٧.

ويحاول أن ينوع في أساليب الدعوة، ويجدد الوسائل بما لا يتعارض مع أحكام الشارع الحكيم، ولا ييأس من كلمة الخير، تفعل فعلها ويظهر أثرها ولو بعد حين، وللداعية في أنبياء الله وأصفيائه قدوة حسنة، فهذا نوح يقول مناجيًا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧﴾[1] فلقي نوح على طول مكثه في قومه داعيًا بالليل والنهار سرًّا وعلانية من الإعراض ما لم يلقه نبي بعده، ومع هذا الجهاد الطويل قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾[2].

وقد ذكر النبي ﷺ أن النبي يأتي يوم القيامة ومعه الرهط، ويأتي النبي ومعه الرجل والرجلان، ويأتي النبي وليس معه أحد، فهؤلاء أنبياء الله وأحباؤه، اصطفاهم واجتباهم وصنعهم على عينه، ومع هذا كله فإن الاستجابة لهم كانت قليلة، فصبروا واحتسبوا.

- الصبر على أذى الناس بالقول والفعل: وهذا ما أقسم الله على وقوعه للداعين إلى الله، حيث خاطب بذلك المؤمنين ليوطنوا أنفسهم على الصبر الطويل، فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِنْ

(١) سورة نوح: ٥-٧.

(٢) سورة هود: ٤٠.

تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾[1].

وتأمل موقف موسى مع السحرة الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ حين وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون وعندما قال لهم فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[2] فماذا كان جواب السحرة إزاء هذا الوعيد الهادر من ملك جبار يقول للناس « أنا ربّكم الأعلى»؟ لقد وقفوا بإيمانهم الجديد كالجبال الشم، متحدين جبروت فرعون، مستعدين لكل ما يرغي ويزبد، سائلين الله أن يفرغ عليهم صبرًا، يتحملون معه العذاب راضين، ويستقبلون به المكاره مطمئنين.

ومن هنا ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[3].

ومن هنا أمر الله رسوله أن يصبر على إيذاء قومه بمثل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾[4].

- الصبر على طول الطريق، وتأخر النصر، فقد جعل الله العاقبة للمتقين، وكتب النصر لدعاة الحق من رسله وأتباعهم وورثتهم

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٢٣- ١٢٤.

(٣) سورة الأعراف: ١٢٥-١٢٦.

(٤) سورة المزمل: ١٠.

المؤمنين، ولكن هذا النصر لا يتحقق بين عشية وضحاها، ولا تشرق شمسه إلا بعد ليل طويل حالك من الشدائد والمحن المتعاقبة، تزيغ لهولها الأبصار، وتبلغ القلوب الحناجر، ويظن الناس بالله الظنون، هنالك يُبتلى المؤمنون ويزلزلون زلزالاً شديدًا كما صور القرآن الحالة النفسية للمسلمين في غزوة الأحزاب.

وكم أكد القرآن هذه الحقيقة في أكثر من موضع، وبأكثر من أسلوب، فهو يخاطب المؤمنين فيقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[1] يقولون: متى نصر الله؟ استبطاءً له واستعجالاً لمجيئه، فيجيء معه الغوث للملهوف، والفرج للمكروب.

ويقول جل شأنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾[2].

٥- **الصبر حين البأس**: ومن هنا أثنى القرآن على الصابرين في آية البر فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[3]. والبأساء: أي الفقر، والضراء: أي المرض، وحين البأس: أي الحرب.

(١) سورة البقرة: ٢١٤.

(٢) سورة يوسف: ١١٠.

(٣) سورة البقرة: ١٧٧.

٦- **الصبر على مخالطة الناس**: وهو حمل النفس على معاشرة الناس بأخلاق الإسلام والصبر على أذاهم، والعلاقات التي تربط المرء بالناس متفاوتة:

- العلاقات الزوجية: لا تستقيم إلا بأن يكون الزوجان يصبر كل منهما على صاحبه، ويحتمل منه بعض ما لا يروقه، بل بعض ما يؤذيه، فكل إنسان فيه ما يمدح وما يذم، ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟ فكان الأمر الربّاني: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[1]. وفي الحديث ما يؤكد هذا المعنى قال ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي آخر»[2].
- صبر الآباء على الأبناء، والأبناء على الآباء، والأقارب مع أقاربهم، والجيران مع جيرانهم، فقد قال العلماء: «إن حق الجار ليس مجرد كف الأذى عنه، بل احتمال الأذى منه، والصبر عليه».
- كذلك من ابتلي بأب وأم ويقاسي منهما فليصبر على الأذى وليعلم أن الله ﷻ قال: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[3]، ولا

(١) سورة النساء: ١٩.
(٢) صحيح مسلم: ١٤٦٩.
(٣) سورة الإسراء: ٢٣-٢٤.

يحزن لأن الله لن يضيع أجره؛ لذا كان بعد هذه الآيات: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾[1].

- صبر التلميذ على أستاذه، والطالب على شيخه، والتزامه بما عقد معه من شرط، ومنها قصة موسى والعبد الصالح الذي لقيه موسى مع فتاه.
- صبر الداعية على إخوانه، ذلك لأنه لا يتعامل مع ملائكة معصومين، بل مع بشر يصيبون ويخطئون، فيغفر لهم خطأهم، ويعفو عن إساءتهم، ويتذكر فضلهم وإحسانهم، وبذلهم وتضحيتهم، فمن ذا الذي ما ساء قط؟ ومن له الحسنى فقط؟ ولهذا أوصى الله عَزَّوَجَلَّ بالصبر عليهم ومعهم في قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[2].

٥. **الصبر على طلب العلم**، ومن ذلك ما لقي موسى عليه السلام من المشاق في رحلته لطلب العلم حتى قال ما ورد في قوله تعالى: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾[3].

وقد جهد السلف أنفسهم، وتكبدوا المصاعب وعانوا كثيرًا

---

(١) سورة الإسراء: ٢٥.

(٢) سورة الكهف: ٢٨.

(٣) سورة الكهف: ٦٢.

من الضوائق في سبيل طلب العلم وتحصيله وبثه بين الناس.
قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه في كتاب العلم «باب الخروج في طلب العلم»: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أُنيس في حديث واحد[1] أي يريد جابر أن يسأل أنيسًا في حديث واحد سمعه من رسول الله ﷺ[2].

آثار الصبر على العبد:

١- **الرفق**: وهو خلق من أخلاق الصابرين ينشأ عن حبس النفس عن العنف والقسوة في غير موضعها، وقد رغّب فيه الإسلام وحث عليه ودعا إليه، وجعل من قلّ حظه منه من المحرومين من خير كثير، فقال ﷺ: «**من يحرم الرفق يحرم الخير**»[3].

وذلك لأن:

- الرفق في الأمور من شأنه أن يصلح ويعطي أفضل النتائج وأجود الثمرات، بخلاف العنف فمن شأنه أن يفسد ويعطي نتائج سيئة.
- والعنف في معالجة الآلة يكسرها، وفي مقارعة الخطوب يحطم الطاقات، ويدمر القوى، ويحرم من الظفر بالنتائج المطلوبة.
- والرفق بالناس من شأنه إصلاح نفوسهم والتأثير فيها، واستعطافها إلى المطلوب منها، ويلين عريكتها، وإن كانت جافة قاسية، بخلاف العنف فإنه يولّد لديها صلابة التحدي

---

(١) صحيح البخاري: (١/ ٢٦).
(٢) الرائد، مازن الفريح....
(٣) صحيح مسلم: ٢٥٩٢.

والعناد، وعدم الاستجابة للمطلوب منها، وإن كان حقًّا وخيرًا، وإن كانت لينة العريكة في فطرتها.

- معاملة الناس يورث العداوات والأحقاد، ورغبات الانتقام متى سنحت الفرصة لتنفيذه.
- أما الرفق في معاملة الناس فهو يؤلف قلوبهم، ويمتلك مودتهم ويطوعهم، لا سيما رفق الراعي برعيته في إدارة شؤونهم، وتسيير أمورهم وفرض الطاعة عليهم.

٢- **الحلم**: وهو الأناة والتثبت في الأمر، وما يلزم عن ذلك من ضبط للنفس عن الغضب، وكظم للغيظ، وعفو عن السيئة، وكلها شديدة على النفس، تحتاج إلى صبر ليتصرف المرء وفق مقتضى الحكمة، فالصابر الحليم يجتنب:

- العجلة الرعناء في تصريف الأمور، وفي القيام بالأعمال، وفي الحكم على الأشياء قبل أوانها والسرعة في العقاب دون إمهالٍ تقتضيه الحكمة التربوية.
- الطيش كلما ثارت في النفس ثائرة، وكلما تحرك في النفس دافع من الدوافع لتحقيق مطلب من المطالب.
- سرعة الغضب حينما يصطدم بما يثير غضبه أو يخالف هواه.

٣- **الدأب والمثابرة**:- فالصابر إذا بدأ عملًا دأب فيه وثابر عليه حتى يصل إلى مبتغاه، يجهد نفسه في إكماله ويحملها على تحسينه، فلا يقعد به ملل، ولا يصرفه عنه كسل، فالصابر المثابر ليس من خلقه، التذبذب في الأعمال، يبدأ عملًا اليوم فينقطع عنه غدًا، لأنه

لم يتوافق مع هواه، والسآمة من الواجبات، والملل من المسؤوليات، فيحمله ذلك على التقصير فيما أُوكل إليه، والتفريط فيما استؤمن عليه.

فالصابر إذا أُوكل إليه عمل فيه طاعة واظب عليه حتى ينجزه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[1]، وقال ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»[2].

ثمرات الصبر:

١ - **الوعد بالسعة بعد الضيق**، وبالعافية بعد البلاء، وبالرخاء بعد الشدة، وباليسر بعد العُسر، وفي هذا يقول تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾[3]، ويقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[4] فلم يجعل اليسر بعد العسر أو عقبه، بل معه؛ وذلك لينبه على أمرين:

الأول: قرب تحقق اليسر بعد العسر حتى كأنه معه ومتصل به، وفي هذا قال بعض السلف: لو دخل العسر جحرًا لتبعه اليسر.

الثاني: أن مع العسر بالفعل يسرًا، لا ريب فيه، قد يكون ظاهرًا ملموسًا، وقد يكون خفيًّا مكنونًا، وذلك ما نسميه (اللطف)، ففي كل قدر لطف، وفي كل بلاء نعمة، وفيه

---

(١) سورة طه: ١٣٢.

(٢) صحيح البخاري: ٦٤٦٤.

(٣) سورة الطلاق: ٧.

(٤) سورة الشرح: ٥-٦.

يقول ابن عطاء السكندري: «من ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره» ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[1].

٢ - **حسن العاقبة لأهل الصبر والتقوى**، مهما ازدحمت طريقهم بالأشواك، وضرجت بالدماء، فالعبرة بالعواقب والمدار على الخواتيم.

وفي هذا يحكي القرآن على لسان موسى ناصحًا قومه، بعد أن هددهم فرعون بما هددهم من التقتيل، والتعذيب والتنكيل، قال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[2].

أبشر أيها المصاب.. أبشر أيها المكروب..

قد تكون الأيام دولًا، والحرب سجالًا، ولكن النتيجة في صالح أهل الإيمان، بل قد تشتد المحن، وتتفاقم الفتن، وتقبل الشدائد كأمواج البحر، وتأخذ بخناق المؤمنين، وتزيغ الأبصار، وتبلغ القلوب الحناجر، ويظن الناس بالله الظنون، ويبتلى المؤمنون ويزلزلون زلزالًا شديدًا، وفي هذه اللحظات يكون نصر الله أقرب ما يكون على سنّة الله في خلقه، حيث نرى الرعود القاصفة، والبروق الخاطفة، بشير

---

(١) سورة يوسف: ١٠٠.

(٢) سورة الأعراف: ١٢٨.

الغيث والرحمة، ونرى أحلك سويعات الليل ظلمةً وسوادًا هي التي تسبق بزوغ الفجر.

٣ - **حسن العوض وسرعة الفرج**، فإن الله لا يضيع عنده أجر عامل ولا مثوبة محسن، كيف وقد وعد وعدًا مؤكدًا أنه لا يضيع أجر المحسنين، وهذا يشمل الدنيا والآخرة جميعًا، فهو في الدنيا يعوضهم ويخلف عليهم خيرًا مما حرموا، ويمكّن لهم بعد أن غلبوا، وهو في الآخرة يؤتيهم أجورهم بغير حساب.

يقول ﷻ واعدًا المهاجرين في سبيله بحسن العوض عما حرموا من الوطن والعشيرة: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾[1].

وفي قصة نبي الله أيوب عليه السلام لما قال تعالى عنه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2].

قال: (أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ) ولم يقل: أنت يا رب مسستني، فكشف الله عنه ضره ووهب له أهله ومثلهم معهم.

وهذا يؤكد لنا أن الصبر المر لا يجتنى من ورائه إلا أحلى الثمرات في الدنيا قبل الآخرة، ومن هنا جاء خطاب الله تعالى في سورة هود إذ يقول: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾[3].

ويتحدث القرآن على لسان يوسف حين كشف لإخوته عن نفسه

(١) سورة النحل: ٤١-٤٢.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٣.

(٣) سورة هود: ١١٥.

فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾[1].

تأمل المصائب النازلة على يوسف، تآمر عليه إخوته، رُمِي في البئر، تعرض لفتنة امرأة العزيز، كم سنة قضاها يوسف في السجن وكم بلاء نزل عليه، كان بعد كل هذا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[2].

ومن الوقائع كذلك الثابتة التي تدل على أن الله يعوض الصابرين خيرًا مما فقدوا، في الحديث عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وَأَخْلِفْ لي خيرًا منها، إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيرًا منها**».

قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت: من خير من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ قالت: ثم عزم الله لي فقلتها اللهم أجرني في مصيبتي وَأَخْلِفْ لي خيرًا منها، قالت: فتزوجت رسول الله ﷺ[3].

عوائق الصبر:

١- **الاستعجال**: فإذا أبطأ على الإنسان ما يريد نفد صبره، وضاق صدره، ناسيًا أن لله في خلقه سننًا لا تتبدل، وأن لكل شيء أجلًا مسمى، ولكل ثمرة أوانًا تنضج فيه، فيحسن عندئذٍ قطافها،

---

(١) سورة يوسف: ٩٠.

(٢) سورة يوسف: ٥٦.

(٣) صحيح مسلم: ٩١٨.

والاستعجال لا ينضجها قبل وقتها، فهو لا يملك ذلك، وهي لا تملكه، ولا الشجرة التي تحملها؛ إنها خاضعة للسنن الكونية التي تحكمها، وتجري عليها بحساب ومقدار، ولهذا خاطب الله رسوله بقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[1].

٢- **اليأس**: من أعظم عوائق الصبر فإن اليائس لا صبر له؛ لأن الذي يدفع الزارع إلى معاناة مشقة الزرع وسقيه وتعهده هو أمله في الحصاد، فإذا غلب اليأس على قلبه، وأطفأ شعاع أمله لم يبق له صبر على استمرار العمل في أرضه وزرعه، وهكذا كل عامل في ميدان عمله، وصاحب الدعوة والرسالة كذلك، قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[2] فالأمل بالله عَزَّوَجَلَّ أكبر عون على الصبر، كما أن اليأس من أعظم المعوقات عن الصبر[3].

٣- الجهل بفضل الصبر وعظم أجره، والطرق المعينة عليه.

علاج الهموم والأحزان:

من تمام نعمة الله على المؤمنين أن ينزل بهم الشدة والضر وما يلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين ويرجونه لا يرجون أحدًا سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه وحلاوة الإيمان وذوق طعمه والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمةً عليهم من زوال

---

(١) سورة الأحقاف: ٣٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٠.

(٣) الرائد، مازن الفريح.....

المرض والخوف أو الجدب أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة[1].

إلى كل مبتلى، إلى كل مكروب، إلى كل مهموم، من صحت له معرفة ربه في أسمائه وصفاته، علم يقينًا أن المكروهات والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه، ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما كره أعظم منها فيما يحب[2].

وليعلم العبد أن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه، والمنحة قد تأتي في ثوب محنة، والبلية تعقبها عطية، وفي الحديث «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»[3] إنه أجرٌ عظيم، وثواب جزيل، أعده الله لأهل المحن والبلاء.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أبالي ما أصبحت على ما أحب أو على ما أكره؛ لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره».

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس في التكليف أصعب من الصبر في القضاء، ولا فيه أفضل من الرضا به».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هيأ الله ﷻ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها».

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ

(١) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٥/ ٢٧٤.

(٢) الفوائد، ابن القيم: ١/ ٩٢.

(٣) صحيح البخاري: ٥٦٤١.

﴿ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1] جمع في الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته ﷻ، وشدة حاجته هو وفقره.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومتى وجد المبتلى هذا، كشفت عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات، ولاسيما مع هذه المعرفة، كشف الله ضره».

تأمل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[2] في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب؛ فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[3].

قال سليمان بن القاسم: «كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر»، قال: كالماء المنهمر، قال الأوزاعي: «ليس يوزن لهم ولا يكال لهم؛ وإنما يغرف لهم غرفًا»..

وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون على ذلك.

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٨.

(٢) سورة البقرة: ٢١٦.

(٣) سورة الزمر: ١٠.

وقال السدي: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني: في الجنة[1].

تذكر بأن الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما ينال بالصبر.

قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾[3].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: قال بعض العارفين: «إنه لتكون لي حاجة إلى الله، فأسأله إياها، فيفتح علي من مناجاته ومعرفته، والتذلل له، والتملق بين يديه: ما أحب أن يؤخر عني قضاءها، وتدوم لي تلك الحال».

ومن أعظم ما يذهب الهم والكرب وما في القلب من ضيق ويأس: الإيمان باسم الله الرازق الرزاق، وأنه لا يضيع عنده رزق أحد ولا يؤخره إلا لرحمة وحكمة علمها من عرف الله وغابت عمن جهل بالله.

تأمل هذه المعادلة، يقول تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾[4] وفي الحديث يقول ﷺ: «إن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها»[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سورة الزمر.

(٢) سورة الرعد: ٢٤.

(٣) سورة يوسف: ٩٠.

(٤) سورة الذاريات: ٢٢-٢٣.

(٥) سنن ابن ماجه ٢١٤٤، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

ومن أسباب زوال الكرب تعلق القلب بالله والثقة بموعوده وحسن التوكل عليه وانقطاع القلب من تعلقه بالمخلوقين.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب، واليسر بالعسر، أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى، حصل للعبد اليأس من كشفه من جهة المخلوقين وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1]».

وعلى المكروب المصاب في نفسه وأهله وماله أن يكثر من الصلاة على الحبيب محمد ﷺ، ففي الصلاة عليه راحة وسرور القلب، عن أبي بن كعب قال كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام فقال: «**أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه**».

قال أبيّ قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي:

قال: «**ما شئت**»، قلت: الربع؟ قال: «**ما شئت وإن زدت فهو خير**». قلت: النصف؟ قال: «**ما شئت وإن زدت فهو خير**». قلت: الثلثين؟ قال: «**ما شئت وإن زدت فهو خير**». قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟

قال: « **إذاً تُكفى همك ويُغفر ذنبك**»[2].

---

(١) سورة الطلاق: ٣.

(٢) حسّنه الألباني في السلسلة، ٢٤٥٧.

لكل من ابتلي وطال صبره وظن أنه قد تأخر فرجه، اعلم أن انتظار الفرج عبادة عمادها حسن الظن بالله وصدق التوكل عليه والثقة به، ولن يخيب من تعلق به.

وثق أن الظلمة ستنجلي، والغمّة ستولِّي، والبسمة ستعود، فقط افرش لهمّك فراش الصبر، وليكن ظنك بالله خيرًا، يكن عند حسن ظنك..

أكثر من الصدقة والصيام، وعليك بأعظم الأوقات إجابة للدعاء وتفريج الكربات وهو قيام الليل وحال السجود، وقدم بين يدي دعائك صدقة وأكثر الاستغفار والحوقلة وتسلح بدعاء ذي النون «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، ويا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين.

صور من الصبر:

- **صبر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:**

فقد صبرا في القيام بأمر الله كما أخبرنا الله في كتابه كيف امتُحِن هذان النبيان الكريمان، فقد كلف الله إبراهيم في رؤيا منامية أن يذبح ولده إسماعيل، فيتجه بصبر عجيب لطاعة أمر ربه، فيقول لابنه إسماعيل محاورًا بلطف الأب وحنوه كما قال تعالى عنه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[1]، فيقول الابن البار بأبيه الطائع لربه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[2]. وأسلما أمرهما إلى الله صابرين، وشرعا في تنفيذ التكليف، فلما ظهر صدق تسليمهما وطاعتهما

(١) سورة الصافات: ١٠٢.

(٢) سورة الصافات: ١٠٢.

لله رب العالمين، أنزل الله لهما كبش الفداء، وتوقف أمر ذبح الوالد لولده، وتم الذبح للكبش، ثم كانت سنة الأضاحي فيما بعد: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾[1].

إنه استسلام وصبر عظيم عجيب، فقد حصل المقصود من الاختبار والطاعة وظهرت مبادرة إبراهيم لربه، وبذله ولده للقربان، كما ضحى ببدنه للنيران، وجعل ماله مبذولًا للضيفان.. إنها نماذج فريدة ومعالم هادية تنير دروب البشرية طوال عهودها ودهورها.

وفي عرض القرآن الكريم لهذه القصة والحادثة إشادة بفضيلة الصبر على تنفيذ أوامر الله مهما كانت شاقة وصعبة على النفس، وفيها توجيه لإعداد الأنفس للصبر على المكاره والمصائب المرتقبة والإقدام عليها بشجاعة وبطولة، وهو نموذج فريد من روائع الصابرين.

- **صبر أيوب عليه السلام:**

فقد كان أيوب عليه السلام عبدًا صالحًا، امتحنه الله بالغنى فبسط له الرزق الكثير، ورزقه الأهل والبنين فكان من الشاكرين، وقد ذُكر عنه أنه كان غنيًّا محسنًا، ثم امتحنه الله بالمصائب، ففقَدَ المال والأهل والولد، ونشبت به الأمراض المضنية المضجرة، فكان من الصابرين، وتلقى كل ذلك بالحمد والثناء على ربه، وبالتسليم والرضا، فكان في حالتي السراء والضراء مثالًا رائعًا لعباد الله الصالحين، إذ كان شاكرًا أيام النعمة، ثم كان صابرًا أيام

(١) سورة الصافات: ١٠٣-١١٠.

المصائب المتوالية، وكانت له امرأة مؤمنة، رافقته زمن نعمته وصحته، وزمن بؤسه وبلائه، فكانت في الحالتين مع زوجها شاكرة صابرة. ومن اللطائف في قصة أيوب عليه السلام أن الشيطان حاول أن يفسد نفسه، فيوسوس له بأن يضجر من المصائب التي تكاثرت عليه، ويتسخط على المقدور، فلم يظفر الشيطان بما أراد، فحاول أن يدخل إليه عن طريق زوجته، فوسوس لها، فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر مما أصابه من بلاء، وأرادت أن تحرك قلبه ببعض ما في نفسها، فغضب أيوب، وقال لها: كم لبثت في الرخاء؟ قالت: ثمانين -أي ثمانين عامًا- قال لها: كم لبثت في البلاء؟ قالت: سبع سنين، قال: أما أستحيي أن أطلب من الله رفع بلائي، وما قضيت فيه مدة رخائي؟! ولما اشتد به الضر، وطال الزمن، وهجره الناس، واجتاز فترة الامتحان والبلاء الطويل بنجاح، فكان عبدًا صبورًا نادى ربه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (١).

﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ يبين افتقاره إلى الله تعالى، لطفًا في السؤال، وحفظًا للأدب في الخطاب، إنه دعاء وتضرع وافتقار، لا جزع ولا شكاية، ولذا قال سبحانه وتعالى مثنيًا عليه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ (٢).

فاستجاب الله دعاءه وكشف ما به من ضر وآتاه أهله ومثلهم معهم وعوضه شيئًا كثيرًا، وقد بين الله تعالى لنا في سورة «ص» كيف جاء الفرج

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٣- ٨٤.

(٢) سورة ص: ٤٤.

إلى أيوب فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾[1].

لقد أوحى الله إليه أن يضرب الأرض برجله، فامتثل ما أمر به، فأنبع الله له عينًا باردة الماء، وأمره أن يغتسل فيها ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى، والسقم والمرض الذي كان بجسده ظاهرًا وباطنًا، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة، وجمالًا تامًّا ومالًا كثيرًا، حتى صب له من المال صبًّا، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «بينما أيوب يغتسل عريانًا خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يَحْثِي في ثوبه، فناداه ربه عَزَّوَجَلَّ: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك»[2]، وأخلف الله له أهله وضاعف له العدد.

وفي أثناء مرضه كان قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط على أمر طوى القرآن ذكره، فأنزل الله عليه ما يتحلل به من يمينه فقال له: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ...﴾ أي خذ بيدك حزمة صغيرة من حشيش أو أعواد خفيفة فيها مائة عود أو أكثر، فاضرب به زوجتك، وتحلل بذلك من يمينك.

قصة أم سليم مع زوجها أبي طلحة عبرةً:

عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول اشتكى ابن لأبي طلحة قال: فمات وأبو طلحة خارج فلما رأت امرأته

---

(١) سورة ص: ٤١-٤٤.

(٢) صحيح البخاري: ٣٣٩١.

أنه قد مات هيأت شيئًا ونحته في جانب البيت فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح، وظن أبو طلحة أنها صادقة، قال: فبات فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبي ﷺ ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: «**لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما**» قال سفيان: فقال رجل من الأنصار فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن[1].

والشاهد في القصة ما جاء على لسان أم سليم أن الأولاد عارية من الله يمنحها لعباده حين يشاء، ويستردها متى شاء، كما في لفظ مسلم؛ قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَّتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ، فَطَلَبُوا عَارِيَّتَهُمْ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ: لَا، قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ[2]، ولا ريب أن الإيمان بهذه الحقيقة يعين على الصبر، ويهون على المُصاب ألم المصيبة، مادام صاحب الوديعة أو العارية قد استرجعها، إنه صاحب الفضل حين يمنح، وصاحب الحق حين يسترد ما منح، وخصوصًا أنه في هذه وتلك لا يصدر إلا عن حكمة.

قصة الأخت في المدينة المنورة

حيث كنت أجلس بجانبها في الحرم النبوي وبادرتني سائلة: هل يجوز لي زيارة القبور؟ فأجبتها بالتحريم وأوردت النصوص لها، فذكرت لي قصة وفاة ابنتها ذات السابعة عشرة التي لم تَشْتكِ من شيء قط حتى أخذت تبكي بكاءً مريرًا، ثم أتت بجانبنا إحدى الأخوات للتخفيف عنها وكانت تحمل

---

(١) صحيح البخاري: ١٣٠١.

(٢) صحيح مسلم: ٢١٤٤..

بيدها كتابًا فقالت لها: تفضلي هذا الكتاب، فأخذتْهُ، فقالت مرة أخرى: هاتِ الكتاب، فردتْهُ عليها، فقالت لتعلمنا درسًا لن ننساه: هذه هي الحياة، هي عطية الله تعالى لنا واستردها.

قصة الخالة أم محمد

تلك المرأة التي فُجعت بوفاة ولدها ليلًا بحادث مروع، فما كان منها إلا الصبر والتجلد والرضا والشكر، حتى إنها تقول فزعت إلى الصلاة وبعدما انتهيت أنزل الله علي النوم أمنة من عنده، فرأيت فيما يرى النائم أرضًا خضراء واسعة، ورجلًا أبيض الثياب، ذا لحية بيضاء ينادي علي باسمي (منيرة قومي لتنظري بيت الحمد بالجنة) تقول: فأصبحتُ وبرْد تلك المصافحة بيدي.

معينات الصبر:

الصبر شديد على النفس، يحتاج إلى مجاهدة لأهوائها ورغباتها، ولكن حلاوة نتائجه، وعظم ثوابه وحسن عواقبه، تجعل اللبيب العاقل يبذل في تحصيله وتقويته وتعزيزه في نفسه كل وسيلة مشروعة تعين عليه، ومن ذلك:

١ - **إجلال الله ﷻ وتعظيمه**: ومعرفة الغاية من خلقك، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[1] فالعافية طارئة والأصل البلاء، فتعلم يقينًا أنه ما ابتلاك إلا ليعافيك، ولم يضيق عليك إلا ليوسع لك، ويسمع صوتك، فسبحان من استخرج الدعاء بالبلاء.

---

(١) سورة الإنسان: ٢.

٢- **المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا**: فهي ليست جنة نعيم، ولا دار خلود، إنما هي دار ابتلاء وتكليف، خُلق الإنسان فيها ليُصقل ويُبتلى ليُعدّ لحياة الخلود في الدار الباقية، ومن عرف الحياة على هذا النحو لم يفاجأ بكوارثها، لأن ذلك من طبيعتها.

والقرآن يشير أن حياة الإنسان محفوفة بالمتاعب والمشقة، حين يقول ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾[1] كما يشير إلى طبيعة الحياة ودوام تغيرها وأنها لا تثبت على حال، فيوم لك ويوم عليك: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[2].

ومن طبيعة هذه الدنيا اختلاط لذائذها بآلامها، ومَحابِّها بمكارهها، فهيهات أن ترى لذة لا يشوبها ألم، أو صحة لا يكدرها سقم، أو سرورًا لا ينغصه حزن، أو راحة لا يخالطها تعب، أو اجتماعًا لا يعقبه فراق، أو أمانًا لا يلحقه خوف.

قيل لعلي: صف لنا الدنيا، فقال « ماذا أصف لك من دار أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء».

وهذا يلزم معه العناية بالقلب، لذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو فرغ العبد المحل وهيأه وأصلحه لرأى العجائب، فإن فضل الله لا يرده إلا المانع الذي في العبد فلو زال ذلك المانع لسارع إليه الفضل من كل صوب، فتأمل حال نهر عظيم يسقي كل أرض يمر عليها فحصل

---

(١) سورة البلد: ٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٠.

بينه وبين بعض الأرض المعطشة المجدبة سَكْرٌ وسد كثيف، فصاحبها يشكو الجدب، والنهر إلى جانب أرضه».

٣- **التأسي بأهل المصائب**: فإن ذلك يطفئ نار المصيبة، فإن المرء لو فتّش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى، إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وإن سرور الدنيا كأحلام نوم أو كظل زائل، إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرّت يومًا أساءت دهرًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن يخلق فلا بد منها فجزعه، لا يزيده إلا بلاء.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوى وواجبه فيها الصبر.

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1] فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة، قال علي بن أبي طالب: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة».

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فلينزل إلى مقام الصبر عليها.

---

(١) سورة الشورى: ٣٠

والله عَزَّوَجَلَّ يحب أن يرى على عبده أثر التقوى، وتحقيق مقام العبودية بين يديه عند نزول المصيبة.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلًا.

الثامن: أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة ما لم تحصل بدونه، قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[1].

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجتباه، وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طرد وصفع قفاه.

العاشر: أن يعلم أن الله يربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال، فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته»[2].

---

(١) سورة النساء: ١٩.

(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٦٠٠ - ٦٠٣).

٤- **الاستعانة بالله تعالى:** وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[١] ومن كان بمعية الله مصحوبًا، وكان بعين الله ملحوظًا، فهو أهل لأن يتحمل المتاعب ويصبر على المكاره.

ولعل حاجة الصابرين إلى الاستعانة بالله تعالى، والتوكل عليه هي بعض أسرار اقتران الصبر بالتوكل على الله في آيات كثيرة، مثل قوله: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾[٢].

٥- **الاقتداء بأهل الصبر والعزائم:** لذا جاء في القرآن تكرار الكثير من تلك القصص، تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين معه، وتثبيتًا لقلبه في مواجهة أعداء دعوته، وما أكثرهم، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[٣] وعلى منهج القرآن سار النبي ﷺ في توجيه أصحابه، إذ ضرب لهم الأمثلة بما أصاب المؤمنين من قبلهم من ألوان العذاب، كيف غلبوه بالصبر، ليكون في ذلك لهم عزاءٌ وسلوى وأسوة.

عَنْ خَبَّاب قَالَ: أَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَشَكَوْنَا إِلَيْه فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصرُ لَنَا أَلا تَدْعُو الله لَنَا! فَجَلَسَ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ فَقَالَ: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لهُ فِي الأَرْض ثُمَّ يُؤْتَى بالمنْشَار فَيُجْعل عَلى رَأسه فَيُجْعَل فرْقتيْن مَا يَصْرِفه ذلِك عَنْ دِينِه، وَيُمْشط بِأمْشَاطِ**

(١) سورة الأنفال: ٤٦.

(٢) سورة العنكبوت: ٥٨-٥٩.

(٣) سورة هود: ١٢٠.

الْحَديد مَا دُونَ عَظْمه منْ لَحْم وَعَصَب مَا يَصْرفُهُ ذَلكَ عَنْ دينه، وَالله ليُتمَّنَّ الله هَذا الأمْرَ حَتى يَسيرَ الرَّاكبُ مَا بَيْن صنْعَاءَ وَحَضْرمَوْتَ مَا يَخَاف إلا الله تعَالى وَالذئْبَ عَلى غَنَمه وَلَكنكمْ تسْتَعْجلونَ»[1].

٦- **الإيمان بقدر الله وقضائه**: وهذا له أثره في نفس الإنسان، حيث يخفف عنها لوعة الأسى على ما فاتها، والحزن على ما أصابها.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾[2].

وإذا كانت مقادير الله نافذة، رضي الإنسان أم سخط، صبر أم جزع، فإن العاقل ينبغي أن يصبر ويرضى، حتى لا يحرم المثوبة، وإلا فإنه سينتهي رغمًا عنه إلى صبر الاضطرار، الذي ليس له قيمة خلقية ولا دينية فإنما الصبر عند الصدمة الأولى.

وقال الأشعث بن قيس: «إن أنت صبرت إيمانًا واحتسابًا، وإلا سَلَوْتَ سُلُوَّ البهائم!».

وقال حكيم: «العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام».

٧- **أن يتعلق القلب بالجزاء الأوفى**: هناك حين يقال له: هذا عظيم جزاء صبرك، خذ بغير حساب، ليعلم أهل الجَمْعِ مَن أَولى الناس

---

(١) صحيح البخاري: ٢١٦٣.

(٢) سورة الحديد: ٢٢.

بالكرم، حينها يود أهل العافية لو أن جلودهم قرضت بالمقاريض.

٨- **الدعاء**: فهو مهم في تثبيت العبد وتصبيره وذهاب همه وغمه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾[1].

٩- **معرفة الإنسان نفسه**: أن يعرف الإنسان أنه ملك لله تعالى أولًا وآخرًا، فالله هو الذي وهبه السمع والبصر والفؤاد وأسبغ عليه نعمه ظاهرةً وباطنة، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[2] فإذا نزل بالمرء نازل سلبه شيئًا مما عنده، فإنما استرد صاحب الملك بعض ما وهب، ولا ينبغي للمودَع أو المستعير أن يسخط على المالك إذا استرد يومًا من الدهر وديعته أو عاريته.

قال لبيد: ولا بد يومًا أن تُرد الودائع.

ومن ثَم كان من هدي الصابرين إذا أصابتهم مصيبة أن يتذكروا هذا الأصل فيقولوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[3] وهذه الكلمة تتضمن أصلين عظيمين، إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته:

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله تعالى، وقد جُعل عند العبد عارية.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٠.

(٢) سورة النحل: ٥٣.

(٣) سورة البقرة: ١٥٦.

ثانيهما: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره.

١٠- **اليقين بحسن الجزاء عند الله:** والقرآن الكريم يشير أن الصابرين ينتظرهم أحسن الجزاء من الله تعالى، وذلك حين يرجعون إليه، ويقفون بين يديه، فيعوضهم عن صبرهم أكرم العوض، ويمنحهم أعظم الأجر، وأجزل المثوبة، ففي الحديث يقول ﷺ: « **يود أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قُرِضَتْ في الدنيا بالمقاريض**»[(١)].

ولا نجد في القرآن شيئًا ضُخِّمَ جزاؤه، وعُظِّم أجره مثل الصبر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[(٢)] قال بعض المفسرين: يُغرَف لهم غرفًا، ويصب عليهم صبًّا.

وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[(٣)].

فإذا تذكر المرء أن أجره عند الله لن يضيع، وتذكر حسن الجزاء، دفعه ذلك إلى حسن الصبر والسلوان.

وقد جاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أُصبت ببلاء إلا كان لله عليّ فيه أربع نِعم:

١- أنه لم يكن في ديني.

(١) سنن الترمذي: ٢٤٠٢.

(٢) سورة الزمر: ١٠.

(٣) سورة الرعد: ٢٣-٢٤.

٢- أنه لم يكن أكبر منه.

٣- أني لم أحرم الرضا به.

٤- أني أرجو ثواب الله عليه.

وقيل: إن إحدى الصالحات عثرت فانقطع إصبعها، فحمدت الله وهي مطمئنة، فقيل لها: أمطمئنة وراضية وقد قطعت إصبعك؟ فقالت: إن لذّة الثواب أنستني ألم المصاب.

١١- **اليقين بالفرج**: فإن الذي أعان يعقوب عليه السلام على صبره أمله في الله وأنه ﷻ لن يضيع صبره وعمله؛ لهذا قال بعد أخذ ولده الثاني واحتجازه بمصر: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾[1] فهو لم ييأس من فرج الله في أن يجمعه بهم جميعًا مرة أخرى، بل يوصي بنيه بعدم اليأس فيقول: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[2].

مسألة: هل الإحساس بالألم عند وقوع المصيبة، والبكاء ودمع العين يتنافى مع الصبر؟

الصبر لا يتنافى مع التألم للمصاب وكذلك لا يتناقض مع البكاء، وإنما يتنافى مع الاسترسال معه إلى حد التسخط والتبرم بالقضاء، قال ابن حزم: «والبكاء مباح ما لم يكن نوح، فإن النوح حرام، والصياح وخمش الوجوه وضربها، وضرب الصدر، ونتف الشعر، كل ذلك

---

(١) سورة يوسف: ٨٣.

(٢) سورة يوسف: ٨٧.

حرام، وكذلك الكلام المكروه الذي هو تسخط لأقدار الله تعالى».

عن أنس بن مالك قال: أخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «**يا ابن عوف إنها رحمة**». ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ: «**إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون**»[1].

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية: «لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة مستحب، وذلك لا ينافي الرضا» بخلاف البكاء عليه جزعًا وتسخطًا وتبرمًا بالقضاء.

هل شكوى الإنسان إلى الناس ما يجد من الألم والمصيبة تنافي الصبر؟

للإنسان أن يشكو إلى الناس ما يجد من الألم، وهو في شكواه راض بقضاء الله غير ساخط أو جازع.

قال سفيان بن عيينة: «كذلك من شكا إلى الناس، وهو في شكواه راض بقضاء الله لم يكن ذلك جزعًا». قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وا رأساه، قال رسول الله ﷺ: «**ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك**»، فقالت عائشة: واثكلياه والله إني لأظنك تحب موتي ولو كان ذلك لظللت آخر يومك معرسًا ببعض أزواجك فقال النبي ﷺ: «**بل أنا وارأساه**»[2].

---

(١) صحيح البخاري: ٣٠٣١.

(٢) صحيح البخاري: ٦٦٦٥.

والخلاصة أن: «مجرد التشكي ليس مذموما حتى يحصل التسخط للمقدور، وقد اتفقوا على كراهة شكوى العبد ربه، وشكواه إنما هو ذكره للناس على سبيل التضجر، والله أعلم».

مسألة.. كيف أحكم أن ابتلاء الله لي محبةٌ أو عقوبة؟؟

قال رسول الله ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله عز وجل إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»(١).

قال المناوي في فيض القدير:

«إذا أحب الله قومًا ابتلاهم بأنواع البلايا حتى يمحصهم من الذنوب ويفرغ قلوبهم من الشغل بالدنيا غيرة منه عليهم أن يقعوا فيما يضرهم في الآخرة، وجميع ما يبتليهم به من ضنك المعيشة وكدر الدنيا وتسليط أهلها ليشهد صدقهم معه وصبرهم في المجاهدة قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾(٢)(٣).

وجاء في شرح مشكاة المصابيح:

تعليقًا على حديث: «**إذا أحب الله قومًا ابتلاهم**» قال: «البلاء للولاة والابتلاء للأولياء، وللحديث محمل آخر وهو أن نزول البلاء علامة المحبة فمن رضي بالبلاء صار محبوبًا»(٤).

---

(١) الترمذي: ٢٣٩٦، وابن ماجه: ٤٠٣١.

(٢) سورة محمد: ٣١.

(٣) فيض القدير: (١/ ٢٤٦).

(٤) فيض القدير: (١/ ٢٤٦).

والقول الفصل في هذه المسألة ذكره في «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» فقال:

«المصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاص أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو جوع حصل له من الجزع والنفاق ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضررًا في دينه. فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة كانت في حقه نعمة دينية. فهي بعينها فعل الرب عَزَّوَجَلَّ رحمة للخلق، والله تبارك وتعالى محمود عليها، فمن ابتلي فرُزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه وحصل له مع ما كفر من خطاياه ورحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه؛ قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[1].

(١) سورة البقرة: ١٥٧.

المعراج العاشر

الرضـــا

أبشر بخير عاجـــل، تنسى به ما قد مضى،
فلرب أمـر مسخطٍ لكَ في عواقبه رضـــا

المعراج العاشر

الرضا



الرضا في اللغة:

ضد السخط[1].

الرضا في الشرع:

رضا العبد عن الله: ألا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد أن يراه مؤتمرًا بأمره منتهيًا عن نهيه[2].

وهذا المقام هو مقام الأولياء الأصفياء، وهو مقام من اختارهم الله ﷻ فكانوا من أهل البلاء، ثم لما أنزل عليهم البلاء أنزل معه الصبر، ولما رضي منهم الصبر وفقهم للرضا نسأل الكريم من فضله.

أرضاه: أي أعطاه ما يرضى به، وترضَّاه: أي طلب رضاه.

ولمَّا كان أعظم رضا هو رضا الله ﷻ؛ خُصَّ لفظ الرضوان بما كان من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾[3] وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾[4].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٢٣.

(٢) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد ٢/ ١٥.

(٣) سورة المائدة: ٢.

(٤) سورة التوبة: ٢١.

الرضا في الكتاب والسنة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ في العمل ابتغاء مرضاته جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾[1]، يشري نفسه: يبيع نفسه بما وعد الله به المجاهدين في سبيله، ابتغاء مرضاة الله: أي أن هذا الشاري يشري (يكون مشتريًا حقًّا) إذا اشترى طلبَ مرضاةِ الله.

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوها طلبًا لمرضاة الله ورجاء لثوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفيّ الرؤوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ﴾[2]، وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوها، وأخبر برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم[3].

كذلك في الصدقات، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[4]، أي: يتصدقون بها ويحملون في سبيل الله ويقوّون أهل الحاجة من الغزاة والمجاهدين طاعةً لله وطلبًا لمرضاته[5].

وتصدقوا وقصدهم بذلك رضا ربهم والفوز بقربه[6].

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٧.

(٢) سورة التوبة: ١١١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ص ٩٤.

(٤) سورة البقرة: ٢٦٥.

(٥) تفسير الطبري، سورة البقرة.

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ص ١١٤.

وقال الله عن الذين يعملون أعمال البر ابتغاء رضاه: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾[1]. فأخبر تعالى عن عاقبة هذا بقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾[2] إذا فعله ابتغاء مرضاة الله.

وقد رضي الله الإسلام دينًا لهذه الأمة، فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[3].

أي: رضيتُ لكم أن تستسلموا لأمري وتنقادوا لطاعتي على ما شرعته لكم وأن تستسلموا لشرعي وتنقادوا إليه طاعةً منكم لي.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا[4].

كذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[5]، فيهدي

---

(١) سورة النساء: ١١٤.

(٢) سورة النساء: ١١٤.

(٣) سورة المائدة: ٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨.

(٥) سورة المائدة: ١٥ -١٦.

بهذا الكتاب المبين ويرشد ويسدِّد.

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشياطين، تُزيِّن لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك، ولهذا وحد تعالى لفظ النور، وجمع الظلمات، لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة ولكنها باطلة(١).

قال عَزَّوَجَلَّ عن المنافقين وهم يحلفون الأيمان:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾(٢).

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالمؤمن لا يقدم شيئًا على رضا ربه ورضا رسوله، فدل هذا على انتفاء إيمانهم حيث قدموا رضا غير الله ورسوله(٣).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾(٤).

أداء الواجبات سبيل إلى رضوان الله عَزَّوَجَلَّ.

نتيجة ذلك أن الله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾(٥).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٨٥.

(٢) سورة التوبة: ٦٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ص ٣٤٢.

(٤) سورة التوبة: ٢٠.

(٥) سورة التوبة: ٢١.

قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾[1].

فالصبر على الطاعة والعبادة يؤدي إلى حصول الرضا من العبد على الرب ومن الرب على العبد.

الرضا في السنة النبوية:

إذا انتقلنا إلى سنّة النبي ﷺ، نجد طائفة من الأحاديث عن الرضا:

يقول صلى الله عليه سلم: «**إن الله يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها**»[2].

ويقول صلى الله عليه سلم: «**إن الله رضي لنا أن نعبده لا نشرك به شيئًا وأن نعتصم بحبله وألا نتفرق، وكره لنا قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال**»[3].

ويقول صلى الله عليه سلم: «**إن رضا الرب في رضا الوالد**»[4]. ولذلك يسعى العبد في الدنيا إذا أراد التوفيق إلى رضا والديه، ووالله لو أتعب العاق جسده، وأفنى ماله كله، ونصب أقدامه يريد طاعة من الطاعات ووالداه قد غضبا عليه، لن ينال رضا الله ولا الرضا عن نفسه، ولا رضا الناس، لأن الكل سيمقته، ومن قدم رضا الله ﷻ ثم رضا والديه أرضاه الله ورضي عنه.

ويقول صلى الله عليه سلم: «**السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب**»[5].

(١) سورة طه: ١٣٠.

(٢) صحيح مسلم: ٧١٠٨.

(٣) رواه أحمد: ١٨٢٥٨.

(٤) السلسلة الصحيحة: ٥١٦.

(٥) صحيح البخاري: ١٩٣٤ معلقًا.

ويقول صلى الله عليه سلم: «**أن من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس**»(١).

وأيضًا ﷺ أنه لما مات ولده إبراهيم جعلت عيناه تذرفان، ثم أتبع الدمعة بدمعةٍ أخرى حزنًا لا جزعًا وتسخطًا، وقال: «**إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(٢).

وكان من دعائه في سجوده: «**أعوذ برضاك من سخطك**»(٣).

المتأمل لهذا الدعاء يعلم أن العبد يرضى عن ربه، والرب يرضى عن عبده، فكيف يكون ذلك؟

قيامك من فراشك الوثير في ليلة باردة لقيام الليل وصلاة الفجر أليس صبرًا؟!

صيامك في يوم شديد الحر أليس صبرًا؟!

كل هذا الصبر يحبه الله ويوجب للعبد منه الرضا.

قاعدة عظيمة:

الرضا الذي يكون في قلب العبد حينما يعمل الأعمال الصالحة، والرضا الذي يكون من الله عَزَّوَجَلَّ لهذا العبد عندما يعطيه الثواب والأجر العظيم على عمله الصالح، هذا غاية مطلوب العبد من ربه أن يرضيه ويرضى عنه، ولذلك أهل الجنة يتنعمون بأكبر نعيم وهو رضوانه ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾(٤).

---

(١) صحيح ابن حبان: ٢٧٦، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صحيح مسلم: ٤٨٦..

(٤) سورة التوبة: ٧٢.

فالنتيجة من هذه القاعدة:

متى ما رضيَ العبد عن ربه في قضائه وفي شرعه، وصبر العبد على مراضي ربه، أرضاه وأعطاه من العطايا أجزلها وأعظمها.

يوم القيامة ستكون العيشة الراضية هي العاقبة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾[5].

لمَ الحديث عن الرضا؟!

رضا الله عَزَّوَجَلَّ أعلى مطلوب للنبيّين والصديقين:

قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾[6].

---

(١) سورة الحاقة: ١٩-٢١.

(٢) سورة الغاشية: ٨-٩.

(٣) سورة الفجر: ٢٧-٢٨.

(٤) سورة الليل: ١٧-٢١.

(٥) سورة القارعة: ٦-٧.

(٦) سورة مريم: ٢-٦.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ (١).

ماذا فعل موسى عندما استعجل لقاء الله؟! ولماذا استعجل؟!!

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ (٢).. استعجل الخير واللقاء لينال رضا الله.. فما من عبد آثر رضا الله وتعجل إليه إلا آثره الله وعجل له مرضاته.

وكذلك سليمان عليه السلام لما سمع كلام النملة تبسم ضاحكًا من قولها، وقال: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ (٣).

وكذلك فإن هذا الإنسان الذي يبلغ أشده ويبلغ أربعين سنة يقول: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ (٤) ثلاثون

وهذا مطلوب الصحابة لمّا عبدوا الله يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ (٥).

الراضون يوم القيامة هم الفئة المرضيّ عنها وهي التي تشفع، والذين لا يرضى الله عنهم، ليسوا من أهل الشفاعة: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ (٦).

---

(١) سورة مريم: ٥٤-٥٥.

(٢) سورة طه: ٨٣- ٨٤.

(٣) سورة النمل: ١٩.

(٤) سورة الأحقاف: ١٥.

(٥) سورة البينة: ٨.

(٦) سورة طه: ١٠٩.

إذا رضيت عن الله فأديت أمره، وانتهيت عند نهيه، ورضيت عنه في أقداره المؤلمة، ابتلاك فصبرت ورضيت وعلمت أن اختيار الله لك خير من اختيارك لنفسك، إذا رضيت بهذا أرضاك فكنت ممن رضي قوله في الآخرة.

فأهل رضاه أهل الشفاعة يوم القيامة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1].

ارتضاهم نتيجة عمل في الدنيا قام في قلوبهم وفي أنفسهم، ما ارتضاهم إلا لأنهم رضوا عنه، وما اصطفاهم إلا لأنهم اختاروا رضاه وعبادته وقدموها على كل شيء.

وشرع الله لنا دينًا رضيه لنا: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾[2].

ومن الأمور التي ينبغي على العبد الالتزام بها: أن يرضى بما قسم الله له، أما الأمر الذي لا يقف العبد فيه عند حد الرضا فهو العلم، العلم الذي يوصل إلى الله ﷻ، هذا لا بد أن يبذل العبد وسعه وطاقته وجهده حتى يصل إلى علم يبلغ فيه الرضا عن الله، ويتعرف فيه على الله، ويرضى فيه عن الله.

درجات الرضا ومراتبه وحكمه:

الرضا شأنه عظيم وأمره كبير ومنزلته في الدين عالية، وعليه مدار أمورٍ كثيرةٍ من أمور الصالحات، وهو من منازل السائرين والسالكين..

حكمه هل هو واجبٌ؟ أو مستحبٌّ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما الرضا فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضا بالقضاء، هل هو

(١) سورة الأنبياء: ٢٨.

(٢) سورة النور: ٥٥.

واجبٌ أو مستحبٌّ على قولين: فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقرَّبين[1].

والخلاصة: أن أصل الرضا واجب ومنازله العليا مستحبّة.

أصل الرضا

أصل الرضا أن تعلم أن اختيار الله لك خير من اختيارك لنفسك.

وأعظم مقامات الرضا أن يظهر منه في أحواله ما يشهد به الخلق على رضاه عن ربّه.

و الرضا له أصلٌ ومراتبُ، ومراتبه أعلى من الأصل..

فيجب الرضا من جهة الأصل (فالذي ليس عنده رضا عن الله والدين والشرع والأحكام فهذا ليس بمسلم)..

فلابد لكلِّ مسلم موحّدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر من درجةٍ من الرضا، فأصل الرضا لابد أن يكون متوفّرًا؛ لأنه واجبٌ.. فقد قال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا**»[2].

ويتضح معنى هذا الحديث في تأمل ذاك العبد المبتلى بعدما رضي، واستشعر أن ما فيه من بلوى هي قربى إلى الله تعالى، فيستقر باله ويزول همه وحزَنه لأنه رضي عن الله وعلِم أن أقدار الله المؤلمة هي رحمة له وخير وإن لم يرَ في ظاهرها ذلك فيتذوق بعد ذلك تلك الحلاوة.

وكيف يذوق طعم الإيمان من ليس في قلبه رضا؟! فأعظم القلوب قلب رضيَ عن ربّه..

---

(١) أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية ١/ ٧٥.

(٢) صحيح مسلم: ٣٤.

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[1] وهذا هو الرضا ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[2] وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾[3].

الرضا عن الله كما أسلفت متعلق بالرضا عن أوامره ونواهيه، فما معنى الرضا بالمنهيّات؟

لا يُشْرَع الرضا بالمنهيّات كما لا تُشْرَع محبتها؛ لأن الله لا يرضاها ولا يحبها.. والله لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر، وهؤلاء المنافقون يُبَيِّتون ما لا يرضى من القول، بل اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم..

فالرضا الثابت بالنص هو أن يرضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا، يرضى بما شرعه الله لعباده من تحريم حرام أو إيجاب واجب أو إباحة مباح، يرضى عن الله ﷻ ويرضى عن قضائه وقَدره ويحمده على كل حالٍ ويعلَم أن ذلك لحكمةٍ، وإن حصل التألم بوقوع المقدور..

إن قال قائل: لماذا يحمد العبدُ ربَّه على الضراء؟

فالجواب من وجهين:

١ - أن تعلم أن الله أحسنَ كل شيءٍ خلَقه وأتقنَه، فأنت راضٍ عما يقع في

---

(١) سورة النساء: ٦٥.

(٢) سورة التوبة: ٥٩.

(٣) سورة محمد: ٢٨.

أفعاله؛ لأن هذا من خلقه الذي خلقه، فالله حكيم لم يفعله إلا لحكمة.

٢- أن الله أعلم بما يصلحك وما يصلح لك من نفسك، واختياره لك خيرٌ من اختيارك لنفسك[١].

قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يقضي الله لمؤمنٍ قضاءً إلا كان خيرًا له**»[٢].

أحيانًا يغيب عن العبد هذا الخير المذكور، ولا تراه عينه، لكن الخير الذي يتأتى ويحصل من انكسار القلب، ومن اتهام النفس، والرجوع عليها باللائمة، ومن إحداث توبة، ومن الاستمرار في عمل صالح وفقه الله له، هذا أعظم الخير، الذي قد يكون ما رآه العبد رأي العين، لكن القلب عاشه، والروح تنفسته، وهذا مقام لا يوصل الله إليه إلا من أحب من أوليائه.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته علِم يقينًا أن المكروهات والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب»[٣].

وليس ذلك إلا للمؤمن: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولا**»[٤].

فكيف يكون الرضا بالله ﷻ؟

في أذكار الصباح والمساء وفي أذكار الأذان نردد « أشهد أن محمدًا

---

(١) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد ٢/ ٢١.

(٢) رواه أحمد: ١٢١٦٠.

(٣) الفوائد، ابن القيم، ص٩٤.

(٤) صحيح مسلم: ٣٤.

رسول الله» فنقول: «**رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا**»[1].

فالرضا بالله:

رضا بربوبيته ﷻ ورضا برسوله ﷺ والانقياد والتسليم لذلك، من حصلت له هذه الأمور الأربعة: الرضا بربوبيته وألوهيته ﷻ والرضا برسوله والانقياد له والرضا بدينه والتسليم له فهو الصدِّيق حقًّا، وهي سهلةٌ بالدعوى، ولكن ما أصعبها عند الامتحان..

فيتضمّن الرضا بمحبته وحده والرضا بعبادته وحده أن تخافه وحده وترجوه وتتبتّل إليه وتتذلل إليه عَزَّوَجَلَّ وتؤمن بتدبيره وتحب ذلك وتفرده بالتوكل عليه والاستعانة به وتكون راضيًا عما يفعل عَزَّوَجَلَّ، فهذا الرضا بالله..

ترضى بما قدّر وحكم.. حَكَم أن الزنا حرامٌ، وأن الربا حرامٌ، وأن بر الوالدين واجبٌ، وأن الزكاة فرضٌ، فيجب أن ترضى بحكمه، وتحب ما يحب.

قدّر عليك أشياء من فقرٍ، وضيق حالٍ، فيجب أن ترضى..

الرضا بمحمدٍ ﷺ نبيًّا:

أن تؤمن به وتنقاد له وتستسلم لأمره ويكون أولى بك من نفسك، وأنه لو كان موجودًا ﷺ ووجِّهَ إليه سهمٌ وجب عليك أن تتلقاه عنه وأن تفتديه بنفسك، وأن تموت فداءً له، فترضى بسنّته فلا تتحاكم إلا إليها، ولا ترجع إلا إليها، ولا تُحَكِّم إلا هي.

تأمل.. إن اختيار الله للعبد خير من اختيار العبد لنفسه، والمنحة قد تأتي في ثوب محنة، والبلية حتمًا ستعقبها عطية..

---

(١) صحيح مسلم: ٣٨٦.

يقول الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أبالي ما أصبحت على ما أحب، أو على ما أكره، لأني لا أدري الخير فيما أحب أم فيما أكره».

الرضا بالإسلام دينًا:

فما في الإسلام من حكم أو أمر أو نهي فإنك ترضى عنه تمامًا وليس في نفسك أيّ حرج وتُسَلِّم تَسليمًا كامِلًا لذلك ولو خالف هواك ولو كان أكثر الناس على خلافه ولو كنتَ في غربةٍ ولو كانت عليك الأعداء مجتمعين فيجب أن ترضى بأحكام الدين وتسعى لتنفيذها وإن خالفتَ العالم..

هل الرضا كسبيٌّ أم يُوهَبُ من الله أم يمكن للعبد تحصيله؟

هل هو فطريٌّ أم العبد يحَصِّل هذا بالمجاهدة ورياضة النفس إذا روَّض نفسه؟!!

الرضا كسبيٌّ باعتبار سببه، وهبيٌّ باعتبار حقيقته، فإذا تمكن العبد في أسباب الرضا وغرس شجرة الرضا في قلبه جنى الثمرة، لأن الرضا آخر التوكل، فبعدما يعجز التوكل يأتي الرضا، والذي ترسخ قدمه في طريق التوكل ينال الرضا، لأن بعد التوكل والتسليم والتفويض يحصُل الرضا، وبدونها لا يحصل، ولذلك لو قال أحدهم: «نريد تحصيل الرضا»، نقول له: «يجب أن يكون لديك توكلٌ صحيحٌ وتسليمٌ وتفويضٌ ثم ينتج الرضا بعد ذلك»..

ولذلك لم يُوجِب الله على عباده المنازل العالية من الرضا؛ لأن ذلك شيءٌ صعبٌ جدًّا، وأكثر النفوس ربما لا يحصُل لها ذلك، فالله ندب إليه ولم يوجبه (ليس أساس الرضا وإنما ما فوق ذلك).

إذا حصل للعبد شيءٌ فإنه لابد أن يكون محفوفًا بنوعين من الرضا: رضا قبله، ورضا بعده..

الرضا من الله عَزَّوَجَلَّ عن العبد إنما هو ثمرة رضا العبد عن الرب سبحانه، فإذا رضيتَ عن الله رضي الله عنك..

تأمل قلوب الساخطين، لن تجد إلا قلوبًا فيها من الهم والحزَن والألم الشيء الكثير.

والرضا باب الله الأعظم وجَنة الدنيا ومُسْتَراح العارفين وحياة المحبين ونعيم العابدين وهو من أعظم أعمال القلوب..

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سئل: متى يبلغ العبد مقام الرضا؟ قال: «إذا أقام نفسه على أربعةِ أصولٍ يُعامِل بها ربه، يقول: إن أعطيتني قبلتُ، وإن منعتني رضيتُ، وإن تركتني عبدتُ، وإن دعوتني أجبتُ».

الرضا إذا باشر القلب؛ فإنه يدل على صحة العلم وليس الرضا والمحبة كالرجاء والخوف، فمن الفروق أن أهل الجنة مثلًا لا يخافون في الجنة ولا يرجون مثل رجاء الدنيا، لكن لا يفارقهم الرضا أبدًا.

فإن دخلوا الجنة فارقهم الخوف: ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

في الدنيا تعترض العبدَ مخاوفُ، منها الموت، والمرض، والفقد، والفقر، والهم؛ لكن إذا دخل الجنة زال الخوف، أما الرضا فلا يزول خارج الجنة وداخلها؛ قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2].

الرضا لا يفارق العبد في الدنيا ولا في البرزخ ولا في الآخرة ولا في الجنة، ينقطع عنهم الخوف؛ لأن الشيء الذي كانوا يخافونه أمِنوه بدخولهم

---

(١) سورة الأحقاف: ١٣.

(٢) سورة التوبة: ٧٢.

الجنة، وأما الشيء الذي كانوا يرجونه فقد حصل لهم، أما الرضا فإنه لا يزال معهم وإن دخلوا الجنة: معيشتهم راضيةٌ وهم راضون، ورضوا عن الله، وراضون بثوابه وما آتاهم في دار السلام.

الفرق بين الرضا بالله والرضا عن الله:

أ - الرضا بالله: اليقين بأنه الله وأنه المعبود فقط لا غيره وأن الحكم له فقط لا لغيره وأن نرضى بما شرع، ولا يمكن أن يدخل فيه المؤمن والكافر معًا؛ فلا يكون إلا للمؤمن.

ب- الرضا عن الله: أي: ترضى بما قضى وقدّر، فتكون راضيًا عن ربك فيما أحدث لك وخلَق من المقادير، ويدخل فيه المؤمن والكافر.

فلابد من اجتماع الأمرين معًا: الرضا بالله والرضا عن الله، والرضا بالله أعلى شأنًا وأرفع قدرًا؛ لأنها مختصّةٌ بالمؤمنين، والرضا عن الله مشتركةٌ بين المؤمن والكافر؛ لأن الرضا بالقضاء قد يصح من المؤمن والكافر، فقد تجد تصرّف كافر فتقول: هذا راض بالقضاء ومسلّم ولا اعتراض عنده، لكنه لم يرضَ بالله ربًّا. فالرضا بالله ربًّا آكد الفروض باتفاق الأمّة، فمن لا يرضَ بالله ربًّا فلا يصح له إسلامٌ ولا عملٌ[1].

شروط الرضا:

هل يشترط أن الرضا إذا حصل لا يكون هناك ألمٌ عند وقوع مصيبة؟!

الجواب: ليس من شروط الرضا ألا يحس العبد بالألم والمكاره، بل من

(١) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد ٢/ ٢٨.

شروط الرضا عدم الاعتراض على الحكم وألا يسخط، ولذلك فإن الرضا لا يتناقض مع وجود التألم وكراهة النفس لما يحصل من مكروه..

فالمريض مثلًا يرضى بشرب الدواء مع أنه يشعر بمرارته ويتألم لمرارته، لكنه راضٍ بالدواء مطمئنٌّ بأخذه، لكنه في ذات الوقت يَطْعَم مرارة الدواء، والصائم رضي بالصوم وصام وسُرَّ بذلك، لكنه يشعر بألم الجوع، هل بشعوره بألم الجوع يكون غير راضٍ بالصيام؟!

لا.. هو راضٍ بالصيام ويشعر بالجوع.

والمجاهد المخلص في سبيل الله راضٍ عند الخروج للجهاد، ومُقْدِمٌ عليه، مقتنع به، لكن يحس بالألم والتعب والغبار والجراح.

إذًا لا يشترط أن يزول الألم والكراهية للشيء إذا حصل الرضا، لكن بعض أصحاب المقامات العالية جدًّا يستلذّون بالألم إذا حصل في الجهاد أو الصيام.

لكن لا يشترط أن الفرد إذا أحس بالألم في العبادة أن يكون غير راضٍ، فطريق الرضا طريقٌ مختصرةٌ قريبةٌ جدًّا، لكنْ فيها مشقةٌ، وليست مشقتها أصعب من مشقة المجاهدة، ولكن تعتريها عقبتان أو ثلاث:

(١) همةٌ عاليةٌ.

(٢) نفسٌ زكيّةٌ.

(٣) توطين النفس على الرضا بكل ما يَرِدُ عليها من الله تعالى.

ويسهُل ذلك على العبد إذا عرف ضعفه وقوة ربه، وجهله وعلم ربه، وعجزه وقدرة ربه، وأن الله رحيمٌ شفيقٌ بارٌّ به، فهو البرُّ الرحيم..

فالعبد إذا شهد هذه المقامات رضي، فالله عليمٌ حكيمٌ وهو رؤوفٌ،

وهو أعلم بما يُصْلِح العبد من العبد، وتوقن أن ما اختاره لك هو الأفضل والأحسن[1].

فهذا الرضا يوصل إلى أسمى مطلوب الذي هو الرضا بالله، وعن الله من تلك النفوس المطمئنة، فأحيانًا هناك مقاماتٌ إيمانيةٌ يبلغها الإنسان بقلبه ويأخذ بها أجرًا عظيمًا يرتقي بها عند الله.

والتفكّر من أعظم العبادات، فإذا تفكّر العبد أن ما يختاره له ربه هو الأحسن والأفضل، فإذا آمن بها وأيقن به الإنسان رضي.

كيف تحصّل الرضا عن الله؟! أن تؤمن بأن ما اختاره الله لك وقدّره عليك هو أحسن شيءٍ لك.. سواءٌ كان موتَ ولدٍ أو مرضًا أو تركَ وظيفةٍ.

فطريق الرضا يقطع بالعبد الراضي ما لا تقطعه طاعات أخر، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فطريق الرضا والمحبة تُسيِّر العبدَ وهو مستلقٍ على فراشه فيصبح أمام الركب بمراحل[2].

وأفرد ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله مسألة بعنوان: «تمام أجر الراضي واستمراره مع انشغاله بعملٍ آخر».

هناك أناسٌ يعملون ويجهدون وصاحب الرضا بعبادته القلبية يسبقهم بمراحل، وهم من خلفه مع أنه على فراشه وهم يعملون؛ لأنه راضٍ عن الله ويتفكّر في هذا الأمر ويؤمن به فيقترب من الله، وأناسٌ لم يصلوا لهذا المستوى وهم يعملون ويجهدون، لذلك فأعمال القلوب مهمةٌ جدًّا؛ لأن المرء يبلغ بها مراتب عند الله، سبق إليها بقلبه

---

(١) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد ٢/ ٢٤.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٧٦.

لما اجتمعت له أعمال القلوب مع أعمال الجوارح.

فأبو بكر ما سبق هذه الأمة لأنه أكثرهم صلاةً وقيامًا في الليل، هناك أناسٌ أكثر منه في عمل العبادات والجوارح لكن سبقهم بشيءٍ وَقَرَ في نفسه.

فقد يدرك الإنسان أحيانًا بتفطّنه وتأمله وتفكّره وإيمانه مراتب أعلى من الذي أكثر منه عملًا بالجوارح.

مقامات الرضا:

١- أن يرضى بالله بدلًا من كل ما سواه..

٢- الرضا بما قدّره الله وقضاه..

٣- الرضا بما قسم الله وأعطاه من الرزق.

هذه منازل قد يأتي البعض بواحدةٍ ولا يقدر على الأخرى، وقد يأتي البعض بجزءٍ من الدرجة ولا يحقق كل الدرجة، فقد يرضى عن الله فيما قسم له من الزوجة ولا يرضى بما قسم له في الراتب، وقد يصبر على سرقة المال ولا يصبر على فقد الولد.

درجات الرضا:

وقد ذكر في مدارج السالكين درجات ثلاث: الرضا بالله، والرضا عن الله، والرضا بقضاء الله.

منها الرضا بالله ربًّا وتسخّط عبادة ما دون الله، وهذا قطب رحا الإسلام لا بد منه، أن ترضى بالله ولا ترضى بأي إلهٍ غيره، والموفَّق من لم يتخذ غير الله ربًّا يسكن إليه في تدبيره ويُنزِل به حوائجه.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾[1] قال ابن عباس: «يعني سيدًا وإلهًا، فكيف أطلب ربًّا غيره وهو ربُّ كل شيءٍ؟!».

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] يعني: أغير الله أتخذ معبودًا وناصرًا ومُعينًا وملجأً؟

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾[3] هل أرضى بحَكَم آخر يحكم بيني وبينكم غير الله بكتابه وسنّة نبيه ﷺ؟

ثم إذا تأملتَ هذه الأمور عرفتَ أن كثيرًا من الناس يدّعون الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ نبيًّا ثم هنا يخالفون حكم الله ويرضون بحكم غيره ويخالفون السنّة وهناك يميلون ويوالون أصحاب دياناتٍ أخرى، فأين هم من هذه الثلاثة؟

و القرآن مليءٌ بوصف المشركين أنهم اتخذوا من دون الله أولياء، فمن تمام الإيمان صحة الموالاة ومدار الإسلام على أن يرضى العبد بعبادة الله وحده ويسخط عبادة غيره.

مسألة: ما حكم الرضا عن الله والرضا بالقضاء؟!

١- قضاءٌ شرعيٌّ:

وهو ما شرعه الله لعباده: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[4] قضى علينا وشرع، قد يلتزم العباد به وقد لا يلتزمون به.

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٤.

(٢) سورة الأنعام: ١٤.

(٣) سورة الأنعام: ١١٤.

(٤) سورة الإسراء: ٢٣.

فالقضاء الشرعي أن يكون عند العبد رضا به قطعًا وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[1].

٢- قضاءٌ كونيٌّ:

وهو كل ما يقدره الله في الكون فيقول: كُنْ فيكون، إذا قضى الله بموتِ شخصٍ أو مرضٍ أو شفاءٍ أو غنًى أو فقرٍ أو نزولِ مطرٍ فلا رادّ لقضائه.

الفرق بين الرضا والصبر:

هناك فرقٌ بين الرضا والصبر، الرضا درجةٌ أعلى من الصبر، وليس الرضا عمليةً سهلةً، وعلى ذلك يُحْمَل كلام من قال من العلماء: إن الرضا ليس بواجبٍ في المقدور.

فالله جلّ وعلا لم يوجب على عباده أن يرضوا بالمقدور (المصائب)؛ لأن هذه الدرجة لا يستطيعها كل العباد، ولكن أوجب عليهم الصبر، وهناك فرقٌ بين الرضا والصبر:

فقد يصبر الإنسان وهو يتجرّع المرارة وألم المصيبة، ويمسك نفسه ويحبسها عن النياحة وشقّ الجيب أو قول شيءٍ خطأٍ، فنقول: هو صابرٌ، لكن هل وصل إلى مرحلة الرضا وهل وصل إلى مرحلة الطمأنينة والرضا بهذه المصيبة؟ ليس كل الناس يصلون إلى هذا.

المقدور يكتنفه أمران:

- الاستخارة قبله.

---

(١) سورة النساء: ٦٥.

- الرضا بعده.

فمن توفيق الله لعبده وإسعاده إياه أن يستخير قبل وقوعه ويرضى عن الله بعد وقوعه، ومن خذلان الله للعبد ألا يستخير قبل الأمر، وألا يرضى بعده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: الرضا بالقضاء ثلاثة أنواعٍ:

١- أحدها: الرضا بالطاعات: وحكمها طاعةٌ.

٢- الرضا بالمصائب: فهذا مأمورٌ به، فهو إما واجبٌ أو مستحبٌّ.

أما الواجب: فهو ما يوازي الصبر وهو الدرجة الأولى من الرضا، أما الدرجة العليا من الرضا عند المصيبة التي فيها سكينة النفس التامة: فهذا عزيزٌ لا يصل إليه إلا قلّةٌ من المخلوقين، والله من رحمته لم يوجبه عليهم؛ لأنهم لا يستطيعونه.

٣- الرضا بالمعصية: معصيةٌ[1].

فالرضا بالمعصية معصيةٌ وحرامٌ، والرضا بالكفر كفرٌ. والعبد مأمورٌ ببغض المعصية، والله لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب المعتدين ولا يحب الظلم ولا الظالمين.

ثمرات الرضا:

١- الرضا والفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى، والنبي ﷺ كان أرضى الناس بالله وأسرّ الناس بربه وأفرحهم به تبارك وتعالى.

٢- حصول تمام العبودية فلا تتم العبودية بدون صبرٍ وتوكلٍ ورضا وذلٍّ وخضوعٍ وافتقارٍ إلى الله، لذا جاء في تعريف العبودية «هي

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٠/ ٤٨٢.

الطاعة مع الخضوع لأمره الشرعي والكوني والاستجابة له سبحانه».

٣- إن الرضا يثمر رضا الرب عن عبده، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يرضى عمَّن يعبده، وإذا ألححتَ عليه وطلبتَه وتذلّلتَ إليه أقبل عليك، لذا كان أعظم القلوب عند علام الغيوب، وأقربها زلفى لديه هي قلوب الراضين: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[1].

٤- الرضا يخلّص من الهمّ والغمّ والحزن وشتات القلب وكسف البال وسوء الحال، ولذلك فإن باب جنة الدنيا يفتَح بالرضا قبل جنة الآخرة؛ فالرضا يوجب طمأنينة القلب وبَرْده وسكونه وقراره بعكس السخط الذي يؤدي إلى اضطراب القلب وريبته وانزعاجه وعدم قراره، فالرضا ينزِل على قلب العبد سكينةً لا تتنزّل عليه بغيره ولا أنفع له منها؛ لأنه متى ما نزلت على قلب العبد السكينة: استقام وصلُحت أحواله وصلُح باله، ويكون في أمنٍ ودَعَةٍ وطيبِ عيشٍ.

٥- الرضا يُشْعِر العبد بعدل الرب، ولذلك كان ﷺ يقول: «عدلٌ فيَّ قضاؤك»، والذي لا يشعر بعدل الرب فهو جائرٌ ظالمٌ، فالله أعدل العادلين حتى في العقوبات التي يُنزلها على من خالف أمره.

٦- الرضا يجعل العبد لا يأسف على ما فاته ولا يحزن ولا يتكدّر على ما أصابه؛ لأنه مقدّرٌ مكتوبٌ.

---

(١) سورة المائدة: ١١٩.

٧- الرضا يفتح باب السلامة من الغشّ والحقد والحسد؛ لأن المرء إذا لم يرضَ بقسمة الله سيبقى ينظر إلى فلانٍ وفلانٍ، فيبقى دائمًا في ضيق وكدر وحسد وتمني زوال النعمة عن الآخرين.

٨- الرضا يجعل العبد لا يشكّ في قضاء الله وقدره وحكمته وعلمه، فيكون مستسلمًا لأمره معتقدًا أنه حكيمٌ مهما حصل، لكن الإنسان الساخط يشكّ ويوسوس له الشيطان؛ ولذلك فإن (الرضا واليقين) أخوان مصطحبان، و(السخط والشكّ) توأمان متلاصقان، فإذا استطعتَ أن تُعمِلَ الرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر خيرًا كثيرًا.

٩- من أهم ثمرات الرضا: أنه يثمر الشكر، فصاحب السخط لا يشكر؛ فهو يشعر أنه مغبونٌ وحقّه منقوصٌ وحظّه مبخوسٌ، لأنه يرى أنه لا نعمة له أصلًا، والسخط نتيجة كفران المنعم والنعم، والرضا نتيجة شكران المنعم والنعم.

١٠-الرضا يجعل الإنسان لا يقول إلا ما يرضي الرب جل جلاله، والسخط يجعل الإنسان يتكلّم بما فيه اعتراضٌ على الرب سبحانه، وربما يكون فيه قدحٌ في الرب عَزَّوَجَلَّ، فصاحب الرضا متجرّدٌ عن الهوى، وصاحب السخط متّبعٌ للهوى.

١١- الرضا يخلّص العبد من سخط الناس؛ لأن الله إذا رضي عن العبد أرضى عنه الناس، والعبد إذا سعى في مرضاة الله لا يبالي بكلام الناس.

١٢- الله يعطي الراضي عنه أشياءَ لم يسألها، ولا تكون عطايا الله نتيجة الدعاء فقط.

١٣- الرضا يفرّغ قلب العبد للعبادة، فهو في صلاته خالٍ قلبُه من الوساوس، وفي الطاعة غير مشتّت الذهن، فيستفيد من عبادته، فالرضا يركّز ويصفّي الذهن فينتفع صاحبه بالعبادة.

١٤- الرضا له شأنٌ عجيبٌ مع بقية أعمال القلوب الصالحة، فأجره لا ينقطع وليس له حدٌّ بخلاف أعمال الجوارح، فأجرها له حدٌّ تنتهي بمدّةٍ معينةٍ، فعمل الجوارح محدودٌ، لكن عمل القلب غير محدودٍ.

فأعمال الجوارح تتضاعف على حدٍّ معلوم محسوبٍ، أما أعمال القلوب فلا ينتهي تضعيفها وإن غابت عن بال صاحبها[١].

الرضا في كلام السلف رحمهم الله:

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله إذا قضى قضاءً أحبَّ أن يُرضى به من قِبَل العباد»..

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله بقسطه وعدله جعل الرَّوح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشكّ»..

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصبحتُ وما لي سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر». فينعكس هذا على نفسه انشراحًا وطمأنينةً، ومن وصل إلى هذه الدرجة كان عيشه كله في نعيم وسرورٍ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[٢].

قال بعض السلف: «الحياة الطيبة هي الرضا والقناعة»..

---

(١) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد ٢/ ٣٢.

(٢) سورة النحل: ٩٧.

قال عبد الواحد بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومُستراح العابدين» وربما رضي المبتلى حتى لم يَعُدْ يشعر بالألم.

قال عمر بن الخطاب لأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أما بعد: فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعتَ أن ترضى وإلا فاصبر».. وهذا لما تقدّم أن الرضا منزلةٌ أعلى من الصبر..

وقال عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إذا تُوُفِّي العبد المؤمن أرسل الله إليه مَلَكين وتحفةً من الجنة، فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رَوْحٍ وريحانٍ وربٍّ عنكِ راضٍ»..

وقال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لم يرضَ بالقضاء فليس لحمقه دواءٌ»..

ونقل عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ عبارة: «يا بنيّ إنما تستدلّ على تقوى الرجل بثلاثة أشياءَ: بحُسْن توكله على الله فيما نابَه، وبحُسْن رضاه فيما آتاه، وبحُسْن زهده فيما فاته»..

كيف أكون من الراضين؟

أولًا: اعرف ربَّك، فعندما تعرف ربَّك ستُحبه، وإذا أحببته سترضى عنه وعن كل ما قدره لك، وكلما ازددت قُربًا من ربِّك، زاد حبك له حتى يتملَّك حبه كل ذرة في وجدانك.

عاد حماد بن سلمة سفيان الثوري، فقال سفيان: يا أبا سلمة أترى يغفر الله لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خيرت بين محاسبة الله إياي وبين محاسبة أبوي لاخترت محاسبة الله على

محاسبة أبوي، وذلك أن الله تعالى أرحم بي من أبوي[1]. فالله ﷻ أرحم بك من أمك وأبيك، ولو علمت الحكمة من ابتلائه لك لما تسخطت على قدره.

ثانيًا: بث شكواك إلى ربِّك وفوِّض أمرك إليه، فلا تَشْتكِ لأحدٍ سوى ربِّك، فهو ﷻ يحب أن يسمع أنينك وهو وحده القادر على أن يفرِّج كربك.

ثالثًا: القيـــام بأعمال يحبها الله تعالى ويرضى عن فاعلها منها بر الوالدين، قال رسول الله ﷺ: «**رضا الرب تبارك وتعالى في رضا الوالدين، وسخط الله تبارك وتعالى في سخط الوالدين**»[2]، ومنها شكر الله تعالى على نِعَمِه، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليه أو يشرب الشربة فيحمده عليها**»[3]. ومنها الرفق وعدم العنف، يقول الرسول ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق ويرضاه ويعين عليه ما لا يعين على العنف**»[4] فعليك أن تكون هادئًا في معاملتك للناس، ولا تلجأ إلى الشدة والعنف، ومنها كظم الغيظ، قال رسول الله ﷺ: «**ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا**»[5]

---

(١) حلية الأولياء، الأصبهاني ٣/ ٧٦.

(٢) سنن الترمذي: ١٨٩٩.

(٣) صحيح مسلم: ٢٧٣٤.

(٤) صححه الألباني: ١٧٧٠.

(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٩٠٦

ومنها الإصلاح بين الناس، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب: «**ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله**»، قال: بلى، قال: «**صل بين الناس إذا تفاسدوا، وقرب بينهم إذا تباعدوا**»[1].

اللهم اجعلنا من الراضين بحكمك، المسلمين لقضائك، الراضين يوم لقائك.

(١) حسنه الألباني: ٢٨١٨.

المعراج الحادي عشر

الشـــكر

قال ﷺ:

«ما أنعم الله على عبد نعمةً فحمد الله عليها
إلا كان ذلك الحمد أفضل من تلك النعمة»

المعراج الحادي عشر

الشـكر



الشكر لغة:

عِرْفانُ الإِحسان ونَشْرُه[1].

واصطلاحًا:

هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، والاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، والثناء على المحسن بذكر إحسانه، ورؤية النعم والمنعم، واستفراغ الطاقة في الطاعة، وأن لا يعصى الله بنعمه[2].

الشكر في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[3].

يعني واشكروا لي بالطاعة ولا تكفروني بالمعصية؛ فإن من أطاع الله فقد شكره، ومن عصاه فقد كفره[4].

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[5].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٢٤.

(٢) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ٨/ ٢٠٧.

(٣) سورة البقرة: ١٥٢.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٦٨.

(٥) سورة الأنعام: ٥٣.

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الشاكرون هم الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومنته عليهم، دون من ليس بشاكر، فإن الله تعالى حكيم، لا يضع فضله عند من ليس له بأهل(١).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾(٢).

أي: لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب، وقيل: الشكر: قيد الموجود، وصيد المفقود(٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾(٤).

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {وَإِن تَشْكُرُوا} لله تعالى بتوحيده، وإخلاص الدين له {يَرْضَهُ لَكُمْ} لرحمته بكم، ومحبته للإحسان عليكم، ولفعلكم ما خلقكم لأجله(٥).

وفي الحديث: «**لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ**»(٦).

لمَ الحديث عن الشكر؟

١- لأن الله قرن ذكره بشكره وكلاهما المراد بالخلق والأمر، والصبر خادم لهما ووسيلة إليهما وعون عليهما، فقد قرن الله الشكر بالذكر

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ٢٥٨.

(٢) سورة إبراهيم: ٧.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٣٧.

(٤) سورة الزمر: ٧.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ص ٧١٩.

(٦) سنن أبي داود: ٤٨١١، وسنن الترمذي: ١٩٥٤، وصححه الألباني..

فقال: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[1].

٢- قرن الشكر بالإيمان، وأنه لا غرض له في عذاب الخلق إذا قالوا آمنا ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾[2] أي وفيتم حقه وما خلقتم من أجله وهو الشكر والإيمان.

٣- أخبر ﷻ أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[3].

٤- قسَّم الله الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهل الكفر، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهل الشكر ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[4].

٥- يبتلي الله عباده ليستخرج الشكور فقال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[5].

٦- وعد ﷻ الشاكرين بالزيادة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾[6]. علّق الله المزيد بالشكر والمزيد لا نهاية له، كما أن الشكر لا نهاية له: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ

---

(١) سورة البقرة: ١٥٢.
(٢) سورة النساء: ١٤٧.
(٣) سورة الأنعام: ٥٣.
(٤) سورة الإنسان: ٣.
(٥) سورة النمل: ٤٠.
(٦) سورة إبراهيم: ٧.

رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ (١).

٧- لأن الله يرضى عمل الشاكرين ويرضى الشكر ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ (٢) فيقارن الله بين الشكر والكفر وأنهما ضدّان ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ (٣) والشاكرون في هذه الآيات الذين ثبتوا على نعمة الإيمان ولم ينقلبوا على أعقابهم، فمن الناس من لا يصمد عند الابتلاء والمحنة فيكفر ولا يثبت، ومنهم من يظهر لربه حقيقة ما في قلبه عند المحنة والابتلاء، فيتعالى لسانه بذكر ربه وحمده فيثبت ويشكر شكرًا عمليًّا بالقلب واللسان والجوارح، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ (٤).

٨- أخبر ﷻ أن إبليس من مقاصده أن يمنع العباد من الشكر، فتعهد إبليس بغوايتهم والوسوسة لهم ليصرفهم عن الشكر ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ

(١) سورة إبراهيم: ٧.
(٢) سورة الزمر: ٧.
(٣) سورة آل عمران: ١٤٤.
(٤) سورة الحج: ١٥.

أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[1].

٩- وصف الله الشاكرين بأنهم قليل من عباده ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[2]، وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رجلًا يقول: «اللهم اجعلني من الأقلين» فقال: ما هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾[3] ويقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[4] ويقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[5] قال عمر: «صدقت!»، وإذا كان الشكر من صفات الأنبياء والمؤمنين فإنه ليس كذلك عند كل الناس فإن كثيرًا منهم يتمتعون بالنعم ولا يشكرونها.

١٠- أثنى الله على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر وهو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾[6] إشارة إلى الاقتداء به.

١١- أخبر الله أنه يعبده من شكره وأن من لم يشكره فإنه ليس من أهل عبادته: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾[7] وأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليف بالشكر ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ

(١) سورة الأعراف: ١٧.
(٢) سورة سبأ: ١٣.
(٣) سورة هود: ٤٠.
(٤) سورة سبأ: ١٣.
(٥) سورة ص: ٢٤.
(٦) سورة الإسراء: ٣.
(٧) سورة البقرة: ١٧٢.

ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[1].

١٢- أول وصية أوصى بها الإنسان بعدما عقل أن يشكر له ثم لوالديه ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[2].

١٣- أخبر الله أن رضاه في شكره ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[3]، وأخبر عن خليله إبراهيم بشكر نعمته ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾[4] فمن صفات الأمة القدوة الذي يؤتم به في الخير أنه كان قانتًا لله شاكرًا لأنعمه فجعل الشكر غاية خليله.

١٤- الشكر هو الغاية من الخلق والأمر ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[5] فهذه غاية الخلق، أما غاية الأمر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[6] فكما قضى الله لهم بالنصر فليشكروا هذه النعمة. وقد صرح ﷻ أن الشكر غاية الخلق وغاية الأمر، فخلق ليشكر، وأمر ليشكر ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٤.

(٢) سورة لقمان: ١٤.

(٣) سورة الزمر: ٧.

(٤) سورة النحل: ١٢٠-١٢١.

(٥) سورة النحل: ٧٨.

(٦) سورة آل عمران: ١٢٣.

﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ (١) (٢).

مسألة: الفرق بين الصبر والشكر؟

الشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره، أنت تصبر لأجل أن يحدث ما يترتب عليه وما يؤدي إليه من الأشياء، والشكر غاية في نفسه والصبر وسيلة إلى غيره وإلى ما يحمد وليس مقصودًا لنفسه.

وفي منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ (٣) ذكر ابن القيم في الشكر أيضًا سبعة عشر وجهًا، وهي:

- أنه من أعلى المنازل.
- فوق منزلة الرضا والزيادة، فالرضا مندرج في الشكر ويستحيل وجود الشكر بدونه.
- نصف الإيمان شكر ونصفه صبر.
- أمر الله به ونهى عن ضده.
- أثنى على أهله ووصفهم بخواص خلقه.
- جعله غاية خلقه وأمره.
- وعد أهله بأحسن الجزاء.
- جعله سببًا للمزيد من فضله.
- حارسًا وحافظًا للنعمة.
- جعله أهل الشكر هم المنتفعون بآياته.

---

(١) سورة البقرة: ١٥٢.

(٢) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد ٢/ ٤.

(٣) سورة الفاتحة: ٥.

- اشتق لهم اسمًا من أسمائه (الشكور) وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكورًا.
- غاية الرب من عبده.
- سمى نفسه شاكرًا وشكورًا، وسمى الشاكرين بهذا الاسم فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلًا.
- أخبر الله عن قلة الشاكرين في عباده.
- الشكر لابد معه من مزيد.
- أخبر عن إعادته للشاكر مشكورًا ورضا الرب عن عبده به.
- الشكر عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره والثناء عليه[1].

أركان الشكر:

١- معرفة النعمة:

استحضارها في الذهن وتمييزها والتيقن منها، فإذا عرف النعمة توصل بمعرفتها إلى معرفة المنعم بها، وهذا ما نجده في القرآن الكريم ليستحضر العبد هذه النعم فيشكر، وإذا عرف النعمة سيبحث العقل عن المنعم فإذا عرف المنعم أحبّه فإذا أحبه جد في طلبه وشكره، ومن هنا تحصل العبادة لأنها طريق شكر المنعم وهو الله.

٢- قبول النعمة:

وهو تلقيها بإظهار الفقر إلى المنعم والحاجة إليه وأن وصول النعم تمّ بغير استحقاق منا، فالله أعطانا النعم منّة وتفضُّلًا.

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٢٤٤.

أقسام الخلق في شكر النعمة ثلاثة:

١- شاكر للنعمة مثن بها.

٢- جاحد لها كاتم لها.

٣- مظهر أنه من أهلها وهو ليس من أهلها، كما في الحديث: المتشبع بما لم يعطَ كلابس ثوبي زور.

مسألة.. مقابلة النعمة:

قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾[1]، فلا سبيل إلى المجازاة ويبقى في قضية الثناء عليه استعمالها فيما يرضيه، أما المجازاة، فلا سبيل إليها ولا ينتفع الله من خلقه بشيء.

وواجب العبد نحو الله في النعم:

١- الخضوع له، خضوع الشاكر للمشكور.

٢- حبه له، حب الشاكر للمشكور.

٣- اعترافه بنعمته عليه(الإقرار).

٤- الثناء عليه بها.

٥- ألا يستعملها فيما يكره بل يستعملها فيما يرضيه.

متعلقات الشكر:

الشكر لله يكون بالقلب واللسان والجوارح.

١- الشكر بالقلب:

علم القلب وذلك بأن يعلم أن الله هو المنعم بكل النعم التي يتقلب فيها

---

(١) سورة الحج: ٣٧.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾[1].

أول نعمة: نعمة الخلق والإيجاد، ورصد النعم والتعرف إليها مرحلة تمهيدية للشكر، وجاءت كثير من الآيات بإحصاء النعم ليكتشف الإنسان كثرتها فيعلم أن النعم لا يمكن حصرها ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[2].

والله عز وجل خص آدم أنه خلقه بيده ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[4].

٢- الشكر باللسان:

لسان المرء يعرب عما في قلبه، فإذا امتلأ القلب بشكر الله لهج اللسان بحمده والثناء عليه، وتأمل ما في أذكار النبي ﷺ من الحمد والشكر لرب العالمين.

كان لما يفيق من نومه يقول: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه**

(١) سورة فاطر: ٣.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٤.

(٣) سورة ص: ٧٥.

(٤) سورة إبراهيم: ٣٢-٣٤.

النشور»[1]، **«الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورد علي روحي وأذن لي بذكره»**[2].

وإذا أوى إلى فراشه لينام يقول: **«الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وآوانا فكم ممن لا كافي له ولا مُؤْوِيَ»**[3].

ومن أذكار الصباح والمساء: **«اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد والشكر»** من قالها حين يصبح فقد أدى شكر ذلك اليوم[4].

وفي سيد الاستغفار: **«أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي»**[5] اعتراف بالنعمة واعتراف بالتقصير في شكرها لأنه يذنب.

دعاء الاستفتاح- سورة الفاتحة- الرفع من الركوع - أذكار ما بعد السلام- ربنا ولك الحمد - أدعية التهجد - اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن - الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرة وأصيلًا.

وقعت يد عائشة على بطن قدَمَي النبي ﷺ وهو ساجد في جوف الليل وقدماه منصوبتان يقول: **«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»**.[6].

---

(١) صحيح البخاري: ٦٣١٢.

(٢) سنن الترمذي ٣٤٠١، قال الشيخ الألباني: حسن.

(٣) صحيح مسلم: ٢٧١٥.

(٤) صحيح ابن حبان ٨٦١، قال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن.

(٥) صحيح البخاري: ٦٣٠٦.

(٦) صحيح مسلم: ٤٨٦.

وقال ﷺ: «**يا معاذ إني أحبك فلا تدع أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(١).

٣- الشكر بالجوارح:

وهي ما سوى القلب واللسان من الجوارح، فما من عمل يعمله ابن آدم من الطاعات والعبادات إلا وهو شاكر فيه لنعم ربه ﷻ.

والخلاصة في الشكر بالجوارح: العمل الصالح، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾(٢)، فسأل الله العمل الصالح عقب سؤاله التوفيق على شكر نعمته؛ يعني أن الشكر باللسان وحده لا يكفي.

ومن وسائل الشكر بالجوارح ما صح عنه ﷺ في حديث: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»(٣)(٤).

كيف أكون من الشاكرين؟

١- أن تنظر إلى من هو دونك، قال ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل

---

(١) صحيح ابن حبان: ٢٠٢١، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) سورة الأحقاف: ١٥.

(٣) صحيح مسلم: ٧٢٠.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ١٧/ ٤.

منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله»[١].

فمما يحفظ العبد من ترك الشكر عندما ينظر إلى من هو فوقه أن يعلم أن هذه قسمة الله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾[٢].

٢- أن يعلم العبد أنه مسؤول عن النعمة ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾[٣] ومحاسب عليها حتى الماء البارد، ومن نوقش الحساب عُذِّب، ومن فقه شكر النِّعم كثرة العطاء.

وقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تفطرت قدماه وتشققت قيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[٤].

٣- الدعاء بالإعانة على الشكر: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»، قالها لمعاذ، وسئل الرسول ﷺ: أي المال نتخذ؟ فلفت نظرهم ﷺ فقال: «**ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة**»[٥].

وتأمل ما قاله ﷺ: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها**»[٦].

---

(١) صحيح مسلم: ٢٩٦٣.
(٢) سورة الأنعام: ١٦٥.
(٣) سورة التكاثر: ٨.
(٤) صحيح البخاري: ١١٣٠، وصحيح مسلم: ٢٨١٩.
(٥) سنن ابن ماجه ١٨٥٦، قال الشيخ الألباني: صحيح.
(٦) صحيح مسلم: ٢٧٣٤.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابًا»؛ ولهذا كانوا يسمون الشكر (الحافظ) لأنه يحفظ النعم الموجودة و(الجالب) لأنه يجلب النعم المفقودة.

ولا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد، فهو يقيد النعمة ألا تنقلب أو تزول.

قال عمر بن عبد العزيز: «قيدوا نعم الله بشكر الله»، والشكر مع المعافاة عند بعض أهل العلم أعظم من الصبر على الابتلاء؛ قال مطرف بن عبد الله: «لأن أعافى فأشكر أحبُّ إليّ من أن أُبتلى فأصبر».

فإذا رزقت الشكر على النعمة فإن هذا لا يقل عن الصبر على المصيبة.

وقال الحسن: «أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر»، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾»[٧].

والله يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وقال أبو رجاء العطاردي: خرج علينا عمران بن حصين وعليه معطف من خزّ لم نره عليه من قبل ولا من بعد فقال: «إن رسول الله ﷺ قال: إذا أنعم الله على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[٨].

وقال ﷺ: «**كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[٩]، وهذا هو الضابط والحد

---

(٧) سورة الضحى: ١١.

(٨) مسند أحمد: ١٩٩٣٤.

(٩) مسند أحمد: ٦٧٠٨.

الشرعي، فإذا أردت أن تظهر نعم الله عليك فإن ذلك مقيد بعدم الخيلاء والإسراف.

عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة فقال: هل لك من مال؟ قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: من كل المال، الإبل، الرقيق، النعم، الخيل.. قال: «**إذا آتاك الله مالًا فليرَ عليك**»[1].

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر فإذا شكروه كان قادرًا على أن يزيدهم، وإذا كفروه كان قادرًا على أن يبعث عليهم عذابًا.

وقد ذم الله الكنود وهو الذي لا يشكر نعمه، قال الحسن: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾[2] أي يعد المصائب وينسى النعم.

وهو في النساء أظهر، فلو أحسنت إلى إحداهن الدهر وطيلة العمر ثم رأت منك تقصيرًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط![3]، وهذا ظلم، والنساء أكثر أهل النار؛ لأنهن يكفرن العشير، وإذا كان ترك شكر نعمة الزوج يؤدي إلى جهنم فما حال من يكفر نعمة الله؟!

قرأ الرسول ﷺ على أصحابه سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودًا منكم فلما قرأت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾[4] قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد[5].

---

(١) صحيح ابن حبان ٥٤١٦، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) سورة العاديات: ٦.

(٣) صحيح البخاري: ٢٩.

(٤) سورة الرحمن: ١٣.

(٥) سنن الترمذي ٣٢٩١، قال الشيخ الألباني: حسن.

وقال شُريح: وما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم: ألا تكون في دينه -أنها لا تكون أعظم مما كانت- أنها لابد كائنة فقد كانت.

كان عمر بن عبد العزيز إذا قلّب بصره في نعمة أنعمها الله عليه قال: «**اللهم إني أعوذ بك أن أبدّل نعمتك كفرًا وأن أكفرها بعد أن عرفتها وأن أنساها ولا أثني بها**»، لأن الله ذم الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار.

والنبي ﷺ كان إذا رُفعت مائدته قال: «**الحمد لله الذي كفانا وأَرْوانا غير مكفيٍّ ولا مكفور، الحمد لله ربنا غير مكفي ولا مودّع ولا مُستغنًى ربنا**»[1].

٤- من شكر النعم المتجددة أنك تسجد سجود الشكر وفي ذلك أن النبي ﷺ أتاه أمر فسرّ به فخرّ لله ساجدًا، وأبو بكر لما جاءه قتل مسيلمة المرتد الذي ألب عليه العرب وأشد الناس على المسلمين خرّ لله ساجدًا، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما رأى ذا الثدية في الخوارج أسود مخدَّجًا مقطوع اليد عند العضد مثل حلمة المرأة، وأنه علامة وآية أنه سيقاتل الخوارج أمرهم فبحثوا في جثث القتلى وأخرجوه؛ سجد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شكرًا لله. وكعب بن مالك سجد في عهد النبي ﷺ لما بشر بتوبة الله عليه.

والسنة لم ترد بسجود الشكر يوميًّا أو بعد الصلوات المفروضة كما ينتشر عند بعض العوام لكنها وردت في النعم المتجددة والتي تذكر بالنعمة المستديمة، ولأن هذه النعم المتجددة العظيمة لها وقع في النفوس، والقلوب

---

(١) صحيح البخاري: ٥٤٥٩.

أعلق بها وأهنأ والإنسان يُعزّى بفقدها، لما توجبه من فرح النفس وانبساطها الذي يدفع إلى الأشر والبطر عند نزول النعمة فجأة.

ومن النعم المتجددة كما يقول أحد السلف: بشّرت الحسن بموت الحجاج وهو مختفٍ فخرّ لله ساجدًا، فموت ظالم نعمة، وولادة المولود نعمة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الدين نصفان، نصف شكر ونصف صبر، فهو قاعدة كل خير، والشكر مما يحبه الله فهو يحب أن يُشكر عقلًا وشرعًا وفطرةً[1].

مسائل أجاب عنها الشيخ محمد صالح المنجد - حفظه الله:

مسألة.. كيف نوفق بين ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[2]. و« استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود »[3]؟

إظهار النعم عام، كيف يحدث بنعم الله قولًا وفعلًا؟ بأن يظهرها وأن يكون الإظهار ليس فيه إسراف ولا خيلاء ولا كسر لنفوس الفقراء، وألا يغترّ بها، كذلك إن وُجد حاسد فله أن يكتم النعمة عنده فهذا خاص. فإذا وجد حاسد فكتمانها لأجل الحسد وليس كفرانًا بالنعمة.

مسألة.. ما هو الفرق بين الحمد والشكر؟

الحمد يتضمن مدح المحمود والثناء عليه بذكر محاسنه ولو لم يحسن إليك بشيء لأنه مستحق للحمد بصفاته، ويكون باللسان أكثر ما يكون

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٢٤٢.

(٢) سورة الضحى: ١١.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الصغير: ١١٨٦.

بغيره، والشكر لمن أحسن إليك، وإحسان الشاكر إلى المشكور يكون بالقلب واللسان والجوارح.

مسألة.. هل الحمد بعد العطاس واجب؟

قال بعض العلماء بوجوبه لوروده في الحديث بصيغة الأمر: «فليقل: الحمد لله،وليقل صاحبه: يرحمك الله»[1].

مسألة.. شكر المفاصل؟

إذا لم يستطع فإن ركعتي الضحى تجزيان عن ذلك، وتصلى ركعتين أو أربعًا أو ستًّا أو ثمانيًا أو اثنتي عشرة، من بعد ارتفاع الشمس إلى قبيل الظهر قبل أن تسير الشمس في وسط السماء، وقبل أذان الظهر برُبع ساعة.

اللهم اجعلنا من الشاكرين.



(١) صحيح البخاري: ٦٢٢٤.



المعراج الثاني عشر

الخشـــوع

من خشع قلبه فاضت عينه
واستقامت جوارحه

المعراج الثاني عشر

الخشـــوع



في اللغة:

خَشَع يَخْشَعُ خُشوعًا واخْتَشَع وتَخَشَّعَ رمى ببصره نحو الأَرض وغَضَّه وخفَضَ صوته[1].

في الاصطلاح:

الخشوع هو قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والانقياد للحق، وقيل: الخشوع خمود نيران الشهوة وسكون دخان الصدور وإشراق نور التعظيم في القلب.

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب[2].

وروده في الكتاب والسنة:

في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾[3].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بالصبر والصلاة) أي إنهما معونتان على رحمة الله، و(الخاشعين) أي المتواضعين المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته[4].

(١) لسان العرب ٨/ ٧١.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٥٢٢.

(٣) سورة البقرة:٤٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٣.

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ} فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع، وخشية الله، ورجاء ما عنده يوجب له فعلها، منشرحًا صدره لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه، ذلًا وافتقارًا، وإيمانًا به وبلقائه[1].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾[2].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل على محمد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله أي مطيعون له، خاضعون متذللون بين يديه، {لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا}، أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته[3].

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[4]. يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم[5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ السعدي ص٥١.

(٢) سورة آل عمران: ١٩٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٤٥.

(٤) سورة الأنبياء: ٩٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ السعدي ص ٥٣٠.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾[1].

يقول الإمام البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: اختلفوا في معنى الخشوع، فقال ابن عباس: مخبتون أذلاء. وقال الحسن وقتادة: خائفون. وقال مقاتل: متواضعون. وقال مجاهد: هو غض البصر وخفض الصوت.

والخشوع قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن، والخشوع في القلب والبدن والبصر والصوت.

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هو ألا يلتفت يمينًا ولا شمالًا. وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو ألا يعرف من على يمينه ولا من على يساره، ولا يلتفت من الخشوع لله عَزَّوَجَلَّ».

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**»[2].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لا يزال الله مقبلًا على العبد ما كان في صلاته ما لم يلتفت، فإذا التفت أعرض عنه**»[3].

وقال عمرو بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: هو السكون وحسن الهيئة. وقال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره: هو ألا ترفع بصرك عن موضع سجودك.

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزل: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} رموا بأبصارهم إلى مواضع السجود[4].

---

(١) سورة المؤمنون: ١-٢.

(٢) صحيح البخاري ٧٥١.

(٣) سنن أبي داود ٩٠٩، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤٠٥.

في السنة النبوية:

عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان إذا ركع قال: «**اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت أنت ربي، خشع سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين**»(١).

أحوال السلف:

يقول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع.

رأى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا طأطأ رقبته في الصلاة فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب.

ورأت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شبابًا يمشون ويتماوتون في مشيتهم فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقًّا.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: كان يكره أن يُرِي الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه.

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، ورُب مصلٍّ لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا(٢).

---

(١) صحيح ابن حبان: ١٩٠١.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥٢٢.

ثمرات الخشوع:

١- الخشوع يطرد الشيطان، لأن الشيطان لا يجتمع مع الخشوع إطلاقًا، فالخواطر والوساوس تشغل القلب، والخشوع حضور القلب بكليته، وصاحب القلب الخاشع لا يجد الشيطان طريقًا في وساوسه وخواطره إلى قلبه، ولذلك قال من قال من أهل العلم: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان(١).

٢- الرفعة وعلو المنزلة: ومن تخشع لله تواضعًا-كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- رفعه الله يوم القيامة (٢).

٣- بلوغ المرام وتحصيل المطلوب: الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ فذكر ذلك في أول صفاتهم وهي الفلاح الذي قد حكم الله به بطريقة محققة بالتعبير بقد، وهو تحصيل المطلوب، والنجاة من المرهوب، قال رجل للحسن: أوصني، قال: رطب لسانك بذكر الله، ونَدِّ جفونك بالدموع من خشية الله، فقل من طلبت لديه خيرًا فلم تدركه، فمن كان بهذه المثابة حصل له مطلوبه من ربه تبارك وتعالى، فأكرمه وقربه.

٤- أن الخشوع يورث صاحبه أخلاقًا محمودة: وذلك أن الخشوع أصل من أصول الأخلاق، وأساس من أسسها كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فالكبر والمهانة والدناءة أصل الأخلاق المذمومة، والكبر يقابل الخشوع، والخشوع يقابله الصلف والتعالي، والجفاء والرعونة

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥٢٢.

(٢) الزهد، وكيع ١/ ٢٤٢.

والدناءة، وأما الخشوع فهو عكس ذلك، فهو أصل الأخلاق الفاضلة، كالصبر والشجاعة، والعدل والمروءة، والعفة والسيادة، والجود والحلم، والعفو والصفح، والاحتمال والإيثار، وعزة النفس عن الدناءات، والتواضع والقناعة، والصدق والإخلاص، والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس، وترك الانشغال بما لا يعنيه، وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك، فكلها ناشئة من الخشوع وعلو الهمة، والله ﷻ أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة، ثم ينزل عليها الماء؛ فتهتز وتربو، وتأخذ زينتها وبهجتها، فكذلك المخلوق منها إذا أصاب حظه من التوفيق-إلى أن قال-: فمن علت همته، وخشعت نفسه؛ اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته، وطغت نفسه، اتصف بكل خلق رذيل[1].

٥- الخشوع يرد العبد إلى حكم العبودية: والكبر يرفعه عن هذا المقام، ولذلك كان الكبر لا يتناسب إطلاقًا مع عبودية القلب، ومع عبودية العبد، فالكبر كمال لله عَزَّوَجَلَّ، أما المخلوق فكماله في الخشوع والتواضع والإخبات، فالعبد لو ترك مع نفسه فإن فيه صفات مذمومة قبيحة تدعو إليها النفس من التعالي على الخلق، والأشر؛ فيخرج عن أصله الذي خُلق له، ويثب على حق ربه من الكبرياء والعظمة، فينازع ربه ذلك، وقد أمر العبد بالسجود -كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ خضوعًا لعظمة ربه وفاطره، وخشوعًا

(١) الفوائد، ابن القيم ١/ ١٤٤.

له، وتذللًا بين يديه وانكسارًا له، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلل ردًّا له إلى حكم العبودية، فيتدارك بذلك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض، الذي خرج به عن أصله، فتمثل له حقيقة التراب الذي خلق منه وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه وهو الوجه، وقد صار أعلاه أسفله خضوعًا بين يدي ربه الأعلى، وخشوعًا له، وتذللًا لعظمته، واستكانة لعزته مرددًا: سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذه غاية الخشوع الظاهر فإن الله ﷻ خلقه من الأرض التي هي مذللة للوطء بالأقدام، واستعمله فيها، ورده إليها، ووعده بالإخراج منها، فهي أمه وأبوه، وأصله وفصله، فضمته حيًّا على ظهرها، وميتًا في بطنها، وجعلت له طهورًا ومسجدًا، فأمر بالسجود إذ هو غاية خشوع الظاهر، وأجمع العبودية لسائر الأعضاء، فيعفر وجهه في التراب؛ استكانة وتواضعًا وخضوعًا، وإلقاء باليدين، ويقول مسروق لسعيد بن جبير: ما بقي شيء يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا في التراب لله، وكان النبي ﷺ لا يتقي الأرض بشيء قصدًا بل إذا اتفق له ذلك فعله، ولذلك سجد في الماء والطين كما جاء في الصحيحين[1] لم يكن يتكلف شيئًا دون جبهته ووجهه، فإذا صلى على التراب، لم يكن يضع رداءه ﷺ دون وجهه، وإذا صلى على الحصير لم يتكلف وضع وجهه على الأرض مباشرة من دون حصير.

(١) الصلاة وحكم تاركها، ابن القيم ١/ ٢١٠.

٦- ما يحصل به من تفاضل الأعمال وتفاوتها: فكم من الفرق بين اثنين كل منهما قائم في الصف يصلي، هذا خاشع وهذا لم يخشع؟ فلا شك أن هذه الصلاة التي حصل بها هذا الخشوع أنها في غاية الكمال، ويؤجر عليها غاية الأجر، هذه سورة قل هو الله أحد، أخبر النبي ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذه السورة مع ما فيها من الثواب والأجر والمنزلة إلا أن العبد قد يقرأ آية سواها ويخشع فيها، فيكون ذلك أعظم من قراءته هذه السورة، بل يقول: إن العبد قد يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، مع حضور القلب واتصافه بمعانيها فيكون ذلك أفضل في حقه من قراءة سورة قل هو الله أحد مع الجهل والغفلة، ويقول: والناس متفاضلون في فهم هذه السورة وما اشتملت عليه كما أنهم متفاضلون في فهم سائر القرآن[١].

حكم الخشوع في الصلاة:

الخشوع في الصلاة واجب من واجبات الإيمان، ومما يدل على أهميته:

أنه من واجبات الصلاة:

على قول طائفة من أهل العلم، وممن اختار هذا القول: القرطبي صاحب التفسير، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وابن القيم[٢] وطائفة من السلف والخلف، وقد استدل شيخ الإسلام ابن تيمية على أن الخشوع واجب من واجبات الصلاة بأدلة متعددة، منها:

(١) أعمال القلوب، للشيخ خالد السبت، ص ١٥٣.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥٥٣، وانظر الوابل الصيب ص٢٤.

الدليل الأول:

أن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1] يقول مبينًا وجه هذا الاستدلال: وهذا يقتضي ذم غير الخاشعين {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ} فغير الخاشع تكون كبيرة عليه، فمعنى ذلك أنه مذموم، لأن الله قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾[2]. فهؤلاء الذين يكبر عليهم التحول من بيت المقدس إلى الكعبة، فهؤلاء فقدوا أساسًا وأمرًا عظيمًا، حيث إنهم خرجوا عن هذا الوصف: {وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ} والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[3]. يقول شيخ الإسلام: من مجموع هذه الآيات، دل كتاب الله عَزَّوَجَلَّ على أن من كبر عليه ما يحبه الله أنه مذموم بذلك، وأن ذلك مسخوط منه، والذم أو السخط لا يكون إلا لترك واجب، أو فعل محرم، وإذا كان غير الخاشعين مذمومين دل ذلك على وجوب الخشوع، فمن المعلوم أن الخشوع المذكور في قوله تعالى:{وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ} لا بد أن يتضمن ذلك الخشوع في الصلاة، فإنه لو كان المراد الخشوع خارج الصلاة؛ لفسد المعنى، إذ لو قيل: إن الصلاة لكبيرة إلا على من خشع خارجها ولم يخشع فيها، كان يقتضي أنها لا تكبر على من لم يخشع فيها وتكبر على من خشع فيها، وقد انتفى مدلول الآية، فثبت أن الخشوع واجب في الصلاة.

(١) سورة البقرة:٤٥.

(٢) سورة البقرة:١٤٣.

(٣) سورة الشورى:١٣.

الدليل الثاني:

الذي استدل به رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾[1] إلى أن قال بعد أن سرد جملة من الأمور الواجبة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾[2].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأخبر الله تَعَالَىٰ أن هؤلاء هم الذين يرثون فردوس الجنة وذلك يقتضي أنه لا يرثها غيرهم، وقد دل هذا على وجوب هذه الخصال إذ لو كان فيها ما هو مستحب لكانت جنة الفردوس تورث بدونها لأن الجنة تنال بفعل الواجبات دون المستحبات، ولهذا لم يذكر في هذه الخصال إلا ما هو واجب» ا. هـ.

الدليل الثالث:

أن النبي ﷺ توعد تاركيه، كالذي يرفع بصره في السماء، فإن حركته ورفعه ضد حال الخاشع، فعن أَنَس بْن مَالك قالَ: قَال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «**مَا بَالُ أَقْوَام يَرْفعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّماء في صَلاتهمْ**» فَاشْتَدَّ قَوْلُهُ في ذَلك حَتَّى قَالَ: «**لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلك أَوْ لتخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ**»[3].

وكذلك حديث جَابر بْن سَمُرَةَ قَال: قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّماءِ فِي الصَّلاةِ أَوْ لا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ**»[4].

---

(١) سورة المؤمنون: ١-٤.

(٢) سورة المؤمنون: ١٠-١١.

(٣) صحيح البخاري ٧٥٠.

(٤) صحيح مسلم: ٤٢٨.

فاستدل به على أن الخشوع واجب، وبهذا استدل أيضًا الحافظ العراقي[1].

كما أن الله عَزَّوَجَلَّ ذم قسوة القلوب المنافية للخشوع في غير موضع من كتابه كما قال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[2].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قست: بمعنى غلظت ويبستو عَسِيَتْ؛ فقسوة القلب: هي ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه، والقلب القاسي والعاسي: هو الشديد الصلابة.

ويقول ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوة القلب المحمودة غير قسوته المذمومة، فإنه ينبغي أن يكون قويًّا من غير عنف، ولينًا من غير ضعف، وهذا كاليد فإنها قوية لينة، بخلاف ما يقسو من العقب فإنه يابس لا لين فيه وإن كان فيه قوة»[3].

الدليل الرابع:

أن الصلاة -يعني: صلاة الظهر- يشرع تأخيرها عن أول الوقت إلى حد الإبراد، مع أن الصلاة في أول الوقت محبوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ وهي أفضل العمل: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»[4]. ومع ذلك شرع لنا النبي ﷺ الإبراد بالصلاة، وحكمة هذا التأخير كما ذكره الحافظ ابن القيم: أن الصلاة في شدة الحر تمنع صاحبها من الخشوع وحضور القلب والتأثر بها[5].

---

(١) انظر طرح التثريب ٢/ ٣٧٢.

(٢) سورة البقرة: ٧٤.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٧/ ٢٨ -٣٠.

(٤) صحيح البخاري: ٥٢٧.

(٥) الوابل الصيب، ابن القيم، ص٢٤.

والعبادة التي يصاحبها الخشوع تفضل العبادة التي لا خشوع فيها: وشتان بين اثنين أحدهما يصلي وهو خاشع، والآخر يصلي وهو أبعد ما يكون من الخشوع. يقول حسان بن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وإن بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض.

والخشوع هو أول ما يفقد من هذه الأمة؛ كما قال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، ورُب مُصَلٍّ لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيه خاشعًا.

واستبطأ الله -عز وجل- المؤمنين في تحقيق هذا الوصف معاتبًا إياهم: فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[٦] يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فدعاهم إلى خشوع القلب في ذكره وما نزل من كتابه، ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وهؤلاء هم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[٧] وكذلك قال في الآية الأخرى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٨].

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والذين يخشون ربهم هم الذين إذا ذكر الله تعالى وجلت قلوبهم، فإن قيل: فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب؟ قيل: نعم»[٩].

---

(٦) سورة الحديد:١٦.

(٧) سورة الأنفال: ٢.

(٨) سورة الزمر:٢٣.

(٩) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٨-٣٠.

- الأمور التي تنافي الخشوع:

أولها: كثرة الحركة سواء في الصلاة أو خارج الصلاة:

قلة الحركة تنبئ عن سكينة وتؤدة ووقار وخشوع، وكذلك في الصلاة، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[1] والمراد به أن يكون العبد ساكنًا مع طول القيام فيها، لا يلتفت، ولا يرفع بصره؛ ولا يتحرك، ولا ينشغل بشيء من جوارحه، أو ببصره عما هو بصدده، لأن الخشوع يتضمن السكينة والتواضع جميعًا؛ ولهذا نقل عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه رأى رجلًا يعبث بلحيته فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه، يعني: سكنت وخضعت.

والله يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[2]، فأخبر أنها بعد الخشوع تهتز، والاهتزاز حركة، وتربو، والربو: الارتفاع، فعُلم أن الخشوع فيه سكون وانخفاض، ولهذا كان الرسول ﷺ يقول في حال ركوعه: «**اللهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعِظامِي وَعَصَبِي...**»[3] فوصف نفسه بالخشوع في حال الركوع؛ لأن الراكع ساكن متواضع.

الأمر الثاني: هو رفع البصر:

وهو منهي عنه في الصلاة؛ لكونه مما ينافي الخشوع، والله عَزَّوَجَلَّ قد ذكر خشوع أهل الموقف فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٨.

(٢) سورة فصلت: ٣٩.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سورة القمر: ٦-٧.

وقال: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾[1] وقال: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيٍّ﴾[2].

أي: أنهم لا يحركون أبصارهم يمنة ويسرة، ولا ينظرون إلى أعلى، ولا يحركون جوارحهم، وإنما ينظرون من طرف خفي يُسارقون فيه النظر مسارقة.

موانع تمنع حصول الخشوع وتعيقه عن العبد:

١. الغفلة والإعراض عن الذكر.
٢. التفريط في أداء الفرائض.
٣. المبالغة في الترف والجري وراء الدنيا.
٤. التأخر في الحضور إلى الصلاة.
٥. قلة العلم والفقه في أحكام العبادة.
٦. قلة المعرفة عن الله.

الخطة العملية للخشوع في الصلاة:

قال أبو بكر المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من مثلك يا ابن آدم، كلما اشتهيت دخلت على ملك الملوك ليس بينك وبينه إلا أن تقول: الله أكبر».

أولًا: تحقيق الإخلاص لله في أداء العبادة؛ فإذا توجه القلب لله وللدار الآخرة وتخلص من حظوظ الدنيا واستحضر الثواب وتيقن ذلك خشع القلب.

ثانيًا: تمام المعرفة بأفعال الله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته؛ فإذا

---

(١) سورة المعارج: ٤٤.
(٢) سورة الشورى: ٤٥.

تعرف العبد على الله، وقَّره وخضع قلبه له وأدرك عظمة الله وجلاله وجماله سبحانه.

ثالثًا: التفقه في معاني أذكار الصلاة من قرآن وتكبيرات وتسبيحات؛ فإذا أدرك العبد معاني الثناء والمدح والدعاء والتعظيم والتنزيه كان لذلك أثرٌ عظيم على نفسه وتحرك قلبه لهذه المعاني الشرعية.

رابعًا: الإقبال على الطاعة والإكثار من الأذكار والمحافظة على الأوراد اليومية؛ فإن العبد إذا واظب على ذلك رق قلبه وذلت نفسه وأصبح قلبه محلًّا صالحًا ينتفع بسماع الذكر.

خامسًا: التذلل بين يدي الله قصدًا وموقفًا بانكسار القلب وسكون الجوارح وخفض النظر وقبض اليدين، فإن التذلل علامة الافتقار لرحمة الله وعطائه، وبه تستنزل السكينة لأن كرم الله وجوده أليق بالسائل الذليل، وقد سئل الإمام أحمد عن المراد بوضع اليدين إحداهما على الأخرى حال القيام فقال: «هو ذلّ بين يدي العزيز».

سادسًا: تفريغ القلب والبدن من كل ما يشغلهما عن الخشوع من أمور الدنيا كالتجارة وغير ذلك؛ فإذا أقبل الإنسان على الصلاة وقد فرغ نفسه من جميع الأشغال استقبل العبادة بقلب حاضر وبال واع، فحصل له التأثر والخشوع. أما إذا أقبل مشغول القلب أو البدن بشيء من الدنيا كان قلبه محجوزًا عن الخشوع. قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من فقه المرء إقباله على حاجته حتى يقبل على صلاته وقلبه فارغ».

سابعًا: الفراغ من حاجات النفس ورغباتها الخاصة التي تعلقت بها من أكل وشرب ووطر وقضاء حاجة ونحوها، وعدم الإقبال على

العبادة إلا إذا فرغ منها؛ لأن الإنسان إذا دخل في العبادة وقلبه متعلق بشيء خارج عنها لم يعقل صلاته ولم يدرك الخشوع ولذلك ورد في صحيح مسلم: (لا صلاة بحضرة الطعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان»[1]، وورد في الصحيحين: «**إذا قُدِّم العَشاء فابدؤوا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب ولا تعجلوا عن عشائكم**»[2]. وكان عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من فقهه إذا قدم العشاء جلس فأكل والصلاة قائمة.

ثامنًا: السعي إلى المسجد لأداء الصلاة بسكينة ووقار كما أرشد النبي ﷺ لذلك بقوله: «**إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا**»[3]، فإن السعي بسكينة ووقار له أثر عظيم في الدخول للعبادة بصدر منشرح وتفكر وتأمل، أما إذا سعى الإنسان مسرعًا للعبادة دخل فيها بنفَس متردد وخاطر مشوش يتعذر معه الخشوع غالبًا.

تاسعًا: التبكير في الحضور للمسجد عند سماع الأذان أو قبله كما ورد في الصحيحين: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلى أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه**»[4]. فإذا بكّر المسلم للمسجد قبل الفريضة وانتظر الصلاة كانت نفسه مهيأة لسماع القرآن والانتفاع بالصلاة والتأثر بها مع إدراكه الفضيلة، أما إذا حضر وقت تكبيرة الإحرام أو بعد

---

(١) صحيح مسلم: ٥٦٠.

(٢) صحيح البخاري: ٦٧٢، وصحيح مسلم: ٥٥٧.

(٣) صحيح البخاري: ٦٣٥، وصحيح مسلم: ٦٠٣.

(٤) صحيح البخاري: ٦١٥، وصحيح مسلم: ٤٣٧..

فوات الركعة لم تكن نفسه مهيأة للخشوع وانصرف همه لإدراك الجماعة وشعر بالندم والتفريط.

عاشرًا: الاشتغال بالنافلة من تحية المسجد وتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم بتدبر والسنن الرواتب والاستغفار؛ فإن هذه الأعمال تصفي القلب وتهذب الروح وتهيئها لفعل الصلاة وإدراكها، قال الله في الحديث القدسي: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**»(١).

الحادي عشر: تجنب الصلاة في الأحوال المؤذية من شدة حر وشدة برد ومطر ووحل وخوف وغضب ونحو ذلك مما يفسد الصلاة ويذهب الخشوع؛ فإن الإنسان إذا دخل في الصلاة منزعج الخاطر حال المشقة تشتت همه وانصرف عنه الخشوع؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**أبردوا بالصلاة؛ فإن شدة الحر من فيح جهنم**»(٢). ولذلك كره الفقهاء الصلاة في مكان شديد الحر أو شديد البرد.

الثاني عشر: يتجنب الاشتغال بالحركات التي لا حاجة إليها ولا طائل وراءها وترك العبث بالثوب أو الشعر أو اللحية أو الساعة أو جهازه الجوال أو مكان السجود وعدم الالتفات؛ لأن هذه الحركات تشوش الذهن وتشتت الهم وتصرف القلب عن الخشوع، ولذلك نهى النبي ﷺ عن التخصر في الصلاة. ونهى عن الالتفات في الصلاة بقوله: «**إذا صليتم فلا تلتفتوا؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه**

---

(١) صحيح البخاري: ٦٥٠٢.

(٢) صحيح البخاري: ٥٣٦، وصحيح مسلم: ٦١٥.

عبده في الصلاة ما لم يلتفت»[1]. وقال ﷺ: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**»[2].

الثالث عشر: الحرص على متابعة النبي ﷺ في هديه في الصلاة وفعل السنن والهيئات المشروعة من حسن القيام وقبض اليدين على الصدر والنظر في موضع السجود ورفع اليدين في المواضع التي يشرع فيها الرفع والتمكن من الركوع والسجود والجلسة بين السجدتين وتحريك الأصابع وقد قال النبي ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[3]. فإن اتِّباع السنة له أثر عظيم في فهم الصلاة وعقل معانيها وحصول الخشوع فيها.

الرابع عشر: الطمأنينة في أداء الصلاة وفعلها بتؤدة وتأنٍّ، وعدم الإسراع في الركوع والسجود والجلسة بين السجدتين، فإن الطمأنينة في الصلاة من أعظم الأسباب التي تعين على الخشوع والتأثر، والعجلة فيها مفسدة لذلك؛ ولذلك قال النبي ﷺ للمسيء في صلاته: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**»[4].

الخامس عشر: التأمل والتأثر والتدبر في الآيات والأذكار في الصلاة وتآلف ذلك والاعتناء به. قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾[5]. فإذا كبر الإنسان تكبيرة الإحرام استشعر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صحيح البخاري ٦٠٠٨.

(٤) صحيح البخاري: ٧٥٧، وصحيح مسلم: ٣٩٧.

(٥) سورة الإسراء:١٠٩.

عظمة الله وأنه أكبر من كل شيء، وإذا قرأ الفاتحة استحضر مناجاة الله ومخاطبته وأنه مستحق لجميع المحامد وأنه ذو الرحمة التامة الشاملة وأنه المنجي في الدنيا والآخرة وأن ملكه أحاط بكل شيء وأنه المستحق للعبادة ولا تكون العبادة إلا بمعونة منه وأن الهداية والتوفيق منه لا من غيره، وهكذا إذا ركع وسبح الله استحضر عظمة الله وتنزيهه من كل سوء ونقص وإذا رفع من الركوع تفكر في الثناء والتمجيد لله وإذا سجد استحضر علو الله وشرفه وافتقاره إليه وتذللـه لله، وهكذا في باقي أحوال الصلاة وأذكارها، وكلما تفكر العبد وتدبر فتح الله عليه من المعاني اللطيفة والمآخذ الدقيقة، وهو باب عظيم القدر واسع لا تحيطه الكلمات ولا تحده الجمل، والناس يتفاوتون في هذا تفاوتًا عظيمًا.

السادس عشر: البعد عن الملهيات والمشغلات حال الصلاة كالنظر إلى الصور والزخارف والنساء وتجنب الصلاة في أماكن الزحام التي تعلو فيها الأصوات وتكثر فيها الحركة كالأسواق والملاعب فإن ذلك يشغل القلب ويصرفه عن الخشوع؛ ولذلك ثبت في صحيح البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها فقال لها النبي: أميطي عني فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي**»[1]. قال المهلب: «وإنما أمر باجتناب مثل هذا لإحضار الخشوع في الصلاة وقطع دواعي الشغل». وفي البخاري: أن النبي ﷺ: «صلى في خميصة بها أعلام فنظر إلى أعلامها نظرة فلما انصرف **قال: اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم**

(١) صحيح البخاري: ٥٩٥٩.

وائتوني بِأَنْبِجَانِيَّةِ أبي جهم فإنها ألهتني آنفا عن صلاتي». وقد نص أحمد على كراهة أن يكون في القبلة شيء معلق من مصحف أو غيره. ونص الفقهاء على كراهة زخرفة المساجد وتزويقها لأنها تشغل المصلي وتذهب الخشوع وقد ورد في ذلك آثار عن السلف.

السابع عشر: مجاهدة النفس حال الصلاة في تحضير القلب والتعقل في المعاني والتأثر والتفاعل بأحوال الصلاة المتنوعة والمصابرة؛ في هذا المقام العظيم وعدم الاقتصار على فعل الحركات الظاهرة؛ فإن من داوم على المجاهدة وبذل وسعه على ذلك فتح عليه قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾[1].

وقال أحد السلف: «جاهدت نفسي على الخشوع عشرين سنة، فتمتعت بالصلاة عشرين أخرى».

الثامن عشر: ومن أعظم الأسباب المعنوية التي تجلب الخشوع في الصلاة ولذة العبادة الورع عن المكاسب المحرمة وتحري الرزق الحلال؛ فإن الرزق الطيب يرقق القلب ويبارك في العمل ويجعله مقبولاً عند الله، والكسب الخبيث يورث ظلمة في القلب ويمحق بركة العمل ويحرم العبد من اللذة والخشوع وهذا من باب العقوبة العاجلة للعبد.

وهذه الأمور مع إقبال القلب على الله والبعد عن ذنوب الخلوات، وكذلك التخفف من الشواغل والمباحات: سبب لنيل هذه المنزلة الرفيعة، والقربة العظيمة، نسأل الله من فضله.

---

(١) سورة العنكبوت:٦٩.

المعراج الثالث عشر

المحاسبة

كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا

المعراج الثالث عشر

المحاسبة



لغةً:

الحَسْبُ: العَدُّ والإِحْصاءُ[1].

اصطلاحًا:

هي التمييز بين ما للإنسان وما عليه[2].

وعرّف الماوردي المحاسبة فقال: أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره؛ فإن كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل[3].

ورودها في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾[4].

يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يأمر الله تعالى عباده المؤمنين

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣١٠.

(٢) موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ٨/ ٢٣٧.

(٣) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد ٣/ ١.

(٤) سورة الحشر: ١٨.

بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه سرًّا وعلانية في جميع الأحوال وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وحدوده وينظروا ما لهم وما عليهم وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم يوم القيامة؛ فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم واهتموا للمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقف عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أن الله خبير بما يعملون لا تخفى عليه أعمالهم ولا تضيع لديه ولا يهملها أوجب لهم الجد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللًا تداركه بالإقلاع عنه والتوبة النصوح والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرًا في أمر من أوامر الله ﷻ بذل جهده واستعان بربه في تتميمه وتكميله وإتقانه، ويقايس بين منن الله عَزَّوَجَلَّ عليه وبين تقصيره هو في حق الله فإن ذلك يوجب الحياء لا محالة، والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر ويشابه قومًا نسوا الله عَزَّوَجَلَّ وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل بل أنساهم الله عَزَّوَجَلَّ مصالح أنفسهم وأغفلهم عن منافعها وفوائدها فصار أمرهم فرطًا فرجعوا بخسارة الدارين وغبنوا غبنًا لا يمكن تداركه ولا يجبر كسره لأنهم هم الفاسقون[1].

وقال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ص ٨٥٣.

(٢) سورة القيامة: ١-٢.

عن الحسن البصري في هذه الآية: إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي، ما أردت بأكلتي، ما أردت بحديث نفسي؟! وإن الفاجر يمضي قدمًا ما يعاتب نفسه، وقال جويبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال: ليس أحد من أهل السموات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة [1].

وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [2].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «يا ابن آدم بُسِطَت لك صحيفتك ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك؛ فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجُعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابًا تلقاه منشورًا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك».

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٩.

(٢) سورة الإسراء: ١٢-١٥.

أنواع محاسبة النفس:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل ونوع بعده.

فأما **النوع الأول**: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رحم الله عبدًا وقف عند همه؛ فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

وشرح هذا بعضهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولًا ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدورًا لم يقدم عليه، وإن كان مقدورًا وقف وقفة أخرى ونظر: هل فعله خير له من تركه أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عَزَّوَجَلَّ وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم عليه وإن أفضى به إلى مطلوبه لئلا تعتاد النفس الشرك ويخف عليها العمل لغير الله فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر: هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجًا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار وإن وجده معانًا عليه فليقدم عليه فإنه منصور ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح.

فهذه أربعة مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل؛ فما

كل ما يريد العبد فعله يكون مقدورًا له، ولا كل ما يكون مقدورًا له يكون فعله خيرًا له من تركه، ولا كل ما يكون فعله خيرًا له من تركه يفعله لله، ولا كل ما يفعله لله يكون معانًا عليه، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يقدم عليه وما يحجم عنه[1].

وأما **النوع الثاني**: محاسبة النفس بعد العمل فهي ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور تقدمت وهي: الإخلاص في العمل والنصيحة لله فيه ومتابعة الرسول ﷺ فيه وشهود مشهد الإحسان فيه وشهود منة الله عَزَّوَجَلَّ عليه وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه: هل وفى هذه المقامات حقها وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

فصل

وأضر ما عليه الإهمال، وترك المحاسبة والاسترسال، وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يغمض عينيه عن العواقب، ويُمشِّي الحال، ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر فى العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنس بها

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ٨٢.

وعسر عليها فطامها ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني رجل من قريش ذكر أنه من ولد طلحة بن عبيد الله قال: كان توبة بن الصمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالرقة وكان محاسبًا لنفسه فحسب يومًا فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي! ألقى ربي بأحد وعشرين ألف ذنب كيف وفي كل يوم آلاف من الذنوب ثم خر مغشيًّا عليه...

وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولًا على الفرائض فإن تذكر فيها نقصًا تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا، تَداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لابد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته وكيف فعلته فالأول سؤال عن الإخلاص والثاني سؤال عن المتابعة، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾[3].

---

(١) سورة الحجر: ٩٢-٩٣.

(٢) سورة الأعراف: ٦-٧.

(٣) سورة الأحزاب: ٨.

فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟![1].

حق الله في الطاعة ستة أمور وهي:

١- الإخلاص في العمل.

٢- النصيحة لله فيه.

٣- متابعة الرسول فيه.

٤- حصول المراقبة فيه.

٥- شهود منة الله عليه.

٦- شهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

كيف أحاسب نفسي؟

ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما سبق- أن محاسبة النفس تكون كالتالي:

أولًا: البدء بالفرائض، فإذا رأى فيها نقصًا تداركه.

ثانيًا: ثم المناهي، فإذا عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.

ثالثًا: محاسبة النفس على الغفلة، ويتدارك ذلك بالذكر والإقبال على الله.

رابعًا: محاسبة النفس على حركات الجوارح؛ من كلام اللسان، ومشي الرجلين، وبطش اليدين، ونظر العينين، وسماع الأذنين، ماذا أردت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته[2].

---

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ٨٣.

(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ٨٣.

ثمرات محاسبة النفس:

١- الاطلاع على عيوب النفس، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته.

٢- التوبة والندم وتدارك ما فات في زمن الإمكان.

٣- معرفة حق الله تعالى؛ فإن أصل محاسبة النفس هو محاسبتها على تفريطها في حق الله تعالى.

٤- انكسار العبد وذلته بين يدي ربه تبارك وتعالى.

٥- معرفة كرم الله ﷻ وعفوه ورحمته بعباده في أنه لم يعجل عقوبتهم مع ما هم عليه من المعاصي والمخالفات.

٦- مقت النفس والإزراء عليها، والتخلص من العُجب ورؤية العمل.

٧- الاجتهاد في الطاعة وترك العصيان؛ لتسهل عليه المحاسبة فيما بعد.

٨- رد الحقوق إلى أهلها، وسل السخائم، وحسن الخلق، وهذه من أعظم ثمرات محاسبة النفس[1].

جمع ثمرات المحاسبة الفضيل بن عياض بقوله: «من حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ولم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته وأكيس الناس من دان نفسه وحاسبها وعاتبها وعمل لما بعد الموت واشتغل بعيوبه».

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ٨٣.

المعراج الرابع عشر

الصدق مع الله



الركب السائر إلى الله في صدق
لن يضل الطريق

المعراج الرابع عشر
الصدق مع الله



معنى الصدق:

في اللغة:

قال ابن منظور: «الصِّدْق نقيض الكذب، صَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقًا وصِدْقًا وتَصْداقًا، وصَدَّقه قَبِل قولَه، وصدَقَه الحديث أَنبأَه بالصِّدْق قال الأَعشى:

فصدَقْتُها وكَذَبْتُها والمَرْءُ يَنْفَعُه كِذابُهْ

ويقال: صَدَقْتُ القومَ أي قلت لهم صِدْقًا» (١).

في الاصطلاح:

الصدق: «هو الخبر عن الشيء على ما هو به، وهو نقيض الكذب»(٢).

وقال الباجي: «الصدق الوصف للمخبر عنه على ما هو به» (٣).

وقال الراغب الأصفهاني: «الصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معًا، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقًا تامًّا»(٤).

ولما كان القرآن الكريم هو أساس الإسلام ودستوره، فقد حدثنا أن الصدق مع الله تعالى والإخلاص له يصنعان المعجزات، والأخيار من

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، ١٠/ ١٩٣.

(٢) الواضح في أصول الفقه، لابن عقيل، ١/ ١٢٩.

(٣) إحكام الفصول، للباجي، ص٢٣٥.

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني، ص ٢٧٠.

عباد الله موصوفون بالصدق، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[1]، فما أجمل الصدق بداية وغاية لأنه صنع الإيمان، وأعاد بناء الإنسان، فكان محمد ﷺ وصحبه خير قدوة تحتذى.

وإننا اليوم أشد احتياجًا إلى أن نصدق في نياتنا وأعمالنا، لعلنا ندرك الصفة التي وصف بها رب العزة والجلال صفوة خلقه فقال: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[2].

هؤلاء الرجال حثهم القرآن الكريم على البذل والعطاء في سبيل الله تعالى، ووعد بقبول الفداء الصادق المستقيم الخاص، وضمن لأصحابه عاجل الثواب وآجله، وزاد المعنى وضوحًا فوجه إلى مضاعفة الجهود فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[3]، وأرشدهم إلى أن طريق الجهاد ليس مفروشًا بالورود والرياحين، وإنما هو طريق شاق له متاعبه وتبعاته، ولكنه طريق المجد والشرف، وبه تنال سلعة الله تبارك وتعالى في النهاية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾[4].

وأكد لهم القرآن الكريم أن صدقهم وإقدامهم وتضحيتهم في سبيل الله تعالى ما هو إلا صفقة مباركة يعقدها الله ﷻ مع عباده الصادقين فقال: ﴿إِنَّ

---

(١) سورة البقرة: ١٧٧.

(٢) سورة الأحزاب: ٢٣.

(٣) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٤) سورة النساء: ١٠٤.

﴿ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1].

ثم يعود القرآن فيرسم للمؤمنين طريق هذه الصفقة، ويصورها بصورة أخرى رائعة، ويوضح لهم فيها الثمن، ويبين ثمارها القريبة والبعيدة، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[2].

وأعطاهم نماذج باهرة للذين سبقوا في تاريخ الإسلام قبل رسول الله ﷺ فعرض عليهم من هذه النماذج ما قام به إبراهيم الخليل عليه السلام حين وقف وحيدًا في وجه الطغيان الاعتقادي والسفه الوثني، فكان الله تعالى معه لأنه آثر أن يكون مع الله جل وعلا: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[3].

ولم يكن هو النموذج الوحيد، وإنما النماذج كثيرة جدًا، فهناك الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وهناك السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام، وأصحاب الأخدود، ومؤمن آل فرعون، ولن تقف مسيرة الصادقين من عباد الله على طريقة الإسلام والمسلمين حتى يبلغ الكتاب أجله ويقضي الله أمرًا كان مفعولًا، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون[4].

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) سورة الصف: ١٠-١٣.

(٣) سورة الأنبياء: ٦٩-٧٠.

(٤) انظر كتاب دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب سلفية لا وهابية، أحمد الحصين، ١/ ٢٧-٢٩.

وروده في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: «في أقوالهم، وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقًا خالية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة»[2].

وقد امتدح الله تعالى بعض عباده ووصفهم بالصدق، فقال عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾[3].

كما امتدح نبيه إسماعيل عليه السلام فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾[4].

كما امتدح نفرًا من المؤمنين فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[5].

وفي الحديث قال ﷺ: «**من سأل الله الشهادة بصدق، بَلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**»[6].

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيد السؤال بالصدق، لأنه معيار الأعمال، ومفتاح بركاتها وبه ترجى ثمراتها (بلَّغه الله منازل الشهداء): مجازاة له

---

(١) سورة التوبة: ١١٩.
(٢) تفسير السعدي، ص ٣٥٥.
(٣) سورة مريم: ٤١.
(٤) سورة مريم: ٥٤.
(٥) سورة الأحزاب: ٢٣.
(٦) رواه مسلم: ١٩٠٩.

على صدق الطلب»[1].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا سأل الإنسان ربه وقال: اللهم إني أسألك الشهادة في سبيلك -ولا تكون الشهادة إلا بالقتال؛ لتكون كلمة الله هي العليا- فإن الله تعالى إذا علم منه صدق القول والنية، أنزله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»[2].

إن « الصدق مع الله» أجلُّ أنواع الصدق، ويكون المسلم صادقًا مع ربِّه تعالى إذا حقَّق الصدق في جوانب ثلاثة:

الإيمان والاعتقاد الحسَن.. والطاعات.. والأخلاق..

فليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، والصادق فيه هو من حققه على الوجه الذي أراده منه ربه تعالى، ومنه الصدق في اليقين، والصدق في النية، والصدق في الخوف منه تعالى، وليس كل من عمل طاعة يكون صادقًا حتى يكون ظاهره وباطنه على الوجه الذي يحبه الله تعالى.

وقد بَيَّن الله تعالى الصادقين في آية واحدة، وهي قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[3].

---

(١) فيض القدير، ٦/ ١٤٤.

(٢) شرح رياض الصالحين، ١/ ٣١٢.

(٣) سورة البقرة: ١٧٧.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اشتملت هذه الآية الكريمة على جُمَل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة»[1].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«(أُوْلَٰٓئِكَ) أي: المتصفون بما ذُكر من العقائد الحسنة، والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية: فأولئك هم (ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ) في إيمانهم؛ لأن أعمالهم صدَّقت إيمانهم، (وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ) لأنهم تركوا المحظور، وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير، تضمنًا، ولزومًا؛ لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية: أكبر العبادات، ومن قام بها: كان بما سواها أقوم، فهؤلاء هم الأبرار، الصادقون، المتقون»[2].

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ومن فوائد الآية: أن ما ذُكر هو حقيقة الصدق مع الله، ومع الخلق؛ لقوله تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ)؛ فصِدْقهم مع الله: حيث قاموا بهذه الاعتقادات النافعة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وأنهم أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وبذلوا المحبوب في هذه الجهات، وأما صدقهم مع الخلق: يدخل في قوله تعالى: (وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ)، وهذا من علامات الصدق، ولهذا قال تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ) فصدقوا في اعتقاداتهم، وفي معاملاتهم مع الله، ومع الخلق»[3].

---

(١) تفسير ابن كثير، ١ / ٤٨٥.

(٢) تفسير السعدي، ص ٨٣.

(٣) تفسير سورة البقرة، ٢/ ٢٩٣- ٢٩٤.

اعلم أن الصدق مع الله تعالى ليس شيئًا نتجمل به، ونقنع به أنفسنا وندع العمل، بل الصدق مع الله يكون في النية، ويكون في العمل إذا قمنا به، وتيسرت أسبابه، والصادق مع ربه تعالى يبلغ بصدق نيته ما يبلغ العامل إن تعذر عليه القيام بالعمل.

إن الصدق مع الله جل وعلا ليس عبارات يرددها القائل!..

ولا شعارات يرفعها المدَّعي!..

وإنما تظهر حقيقته في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وطاعة نبيه ﷺ.

فطاعة الله تكون بتوحيده ﷻ بالعبادة، والكفر بكل ما يُعبد من دونه، وامتثال أوامره بتحقيق الطاعات والابتعاد عن المعاصي والمحرمات، ولا يُقبل ذلك إلا بالإخلاص له تعالى سواء في فعل الطاعة أو ترك المعصية، ولهذا كان المخلص لله ﷻ من عباده المقربين وأوليائه الصالحين.

ولا ينفع في العمل إلا الصدق، ولا يقبل الله عملًا إلا إذا كان صادقًا ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾[1].

قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا عليٍّ ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا، لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا.

والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة[2].

وبدون الصدق مع الله تعالى لن يستقيم لنا أمر، ولن تصلب لنا قناة، ولن نستمر على ثبات، ومآلنا إلى تمزق وشتات.

---

(١) سورة الملك: ٢.

(٢) مجموع الفتاوى، (١/ ٣٣٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن كان مخلصًا في أعمال الدين يعملها لله، كان من أولياء الله المتقين أهل النعيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[1] [2]».

وطاعة نبيه ﷺ تكون باتباع هديه وسنته ومحبته ومحبة ما جاء به، لأنه ﷺ مُرسل من ربه ﷻ ومُبلغ عنه، فطاعته طاعة لله، ومعصيته معصية لله.

فما دبَّ إلينا النقص وأصابنا الضعف والتفرق وتسلط علينا الكفار، إلا بعد أن تركنا الصدق مع الله عَزَّوَجَلَّ في أمورنا كلها، والله المستعان!!.

فعلينا إذا أردنا أن تقوى شوكة المسلمين، والنصر على أعداء الدين أن نَصدق مع رب العالمين، وذلك بامتثال أوامره والابتعاد عن نواهيه، وقد وعد ﷻ أن ينصر ويؤيد كل من أطاعه واتبع سنة نبيه ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾[3].

فلنغتنم هذه الحياة بالصدق مع الله فمن صدق مع الله صنع الله له فوق ما يصنع لغيره، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الفوائد:

«ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربَّه في جميع أموره، مع صدق العزيمة، فيصدقه في عزمه، وفي فعله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾[4] فسعادته في صدق العزيمة، وصدق الفعل، فصدق

---

(١) سورة يونس: ٦٢ - ٦٤.

(٢) مجموع الفتاوى، ١/ ٨.

(٣) سورة محمد: ٧.

(٤) سورة محمد: ٢١.

العزيمة: جمعها، وجزمها، وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد، ولا تلوُّم، فإذا صدقت عزيمته: بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع، وبذل الجهد فيه، وألا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور، ومَن صدَق الله في جميع أموره: صنع الله له فوق ما يصنع لغيره، وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص، وصدق التوكل، فأصدَقُ الناس: مَن صح إخلاصُه، وتوكله»[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مدارج السالكين: «فالذي جاء بالصدق:

«هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله، فالصدق في هذه الثلاثة:

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة، وبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صديقيته»[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقلب الصادق ممتلئ بنور الصدق ومعه نور الإيمان»[3].

---

(١) الفوائد، ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) مدارج السالكين، ٢/ ٢٥٨.

(٣) مدارج السالكين، ٢/ ٢٨٢.

العبودية الحقيقية لله هي الصدق مع الله، بمعنى أنني حين أصدق مع الله فمعناها أنني عبد بحق، وإذا كنت متكبرًا فلن أكون صادقًا مع الله؛ لأني سأكون منازعًا له ﷻ في صفة له وحده؛ فالله هو المتكبر العزيز الجبار..

ولن أكون صادقًا مع الله لو أنني راءيت الناس بالأعمال الصالحة حتى يقال عني: فلان سخي.. فلان كريم.. فلان معطٍ..

ولن أكون صادقًا مع الله لو أنني لم أؤدِّ الفرائض لأننا نقول في سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، فيقول الله: حمدني عبدي، ونقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ فيقول: أثنى عليَّ عبدي، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ فيقول: مجّدني عبدي، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فيقول: هذا بيني وبين عبدي، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فيقول: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل.

وهنا يظهر الصدق مع الله، وأريد أن أقول شيئًا من أجل ربط هذا بكلامنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ نقولها لربنا كل يوم في الصلاة، ولكن هل فعلًا نحن صادقون عندما نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، أم من الممكن أن يتسلل فيها أشياء خفية كالتعلق بغيره؟

إن الصدق مع الله سيعرّفني حقيقة العبودية، فأنا عندما أتعامل على أني غني وأني لا أحتاج إلى الله ﷻ، ففي سورة العلق يقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[1]..

فالإنسان أحيانًا يتعامل على أنه مستغنٍ وغير محتاج، فيطغى عندما يشعر أنه لا يحتاجه، لكن لو صدق مع الله ومع نفسه واعتبر نفسه فقيرًا

(١) سورة العلق: ٦- ٧.

ومحتاجًا فلن يكذب على الله ولن يعصيه، فإن لم أحقق هذا المعنى فلابد أن أكون قد كذبت على نفسي وكذبت على الله في عبوديتي له، ويمكن أن أكون مصليًا وأقول له في الصلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ولكنني أتعامل على أساس أني مستغنٍ عنه، وهنا أحب أن أوضح أنني أريد أن أصل لمعنى أن الصدق مع الله هو أن أتحقق من صفات عبوديتي ونقصي فأقول له: «أنت الغني وأنا عبدك الفقير إليك.. أنت القوي وأنا عبدك العاجز».

دائمًا نقول: إن الواحد منا عندما يشعر أنه ذليل ومحتاج إلى الله فإنه يقوى ولا يضعف، أليس هذا صحيحًا؟.

هذا هو معنى العبودية، أن يوقن العبد أن حقيقة الغنى لا تتأتى إلا من التحقق من الفقر، فأتحقق أنا بفقري إلى الله فأكون أغنى الناس، بعجزي أمام الله فأكون أقدر الناس، هذا من حكمته ﷻ..

تحقق من هذا المعنى في سجودك؛ فالله قد جعل أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.. أرأيت؟! وهو ساجد، أي في لحظة يكون فيها الإنسان أذل ما يكون.. إذن فالصدق مع الله يعني التحقق من العبودية.

قال ﷺ: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا؛ وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»[1].

---

(١) رواه البخاري: ٦٠٩٤، ومسلم: ٢٦٠٧.

فإن الصدق دعت إليه كل الرسالات ونادى به جميع الرسل؛ فهو خلق الأنبياء والصالحين، ومما تمدح به السيدة مريم أم سيدنا عيسى عليه السلام أنها صديقة قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾[1]. فالأخلاق الكريمة واحدة في كل الشرائع، ومن هذه الأخلاق ما نحن بصدده الآن وهو الصدق، فالصدق خلق نبيل فاضل دعت إليه كل الشرائع السماوية في كتبها وعلى ألسنة رسلها، ثم جاء الإسلام فأكد على هذا الخلق النبيل في كتابه الكريم، وعلى لسان سيد الأولين والآخرين رسول الإسلام والسلام سيدنا محمد ﷺ.

فمن أبرز صفات رسول الله ﷺ قبل مبعثه أنه عرف بالصادق الأمين؛ كان رسول الله ﷺ صادقًا في حديثه، صادقًا في تجارته، صادقًا في كل أحواله؛ وهذا الصدق هو الذي جعل هرقل يجزم بأنه نبي الله حقًّا، وأنه النبي المنتظر، وأنه سيملك موضع قدميه، وأن الخير كل الخير في اتباعه؛ إذ قال لأبي سفيان: هل يكذب محمد في حديثه معكم؟ قال أبو سفيان: لا، قال هرقل: ما كان ليذر -أي: ليترك- الكذب على الناس ثم يكذب على الله، ولما جاءته الرسالة ﷺ جمع أهل مكة وقال لهم: «**لو أخبرتكم أن خيلًا من وراء هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبًا قط.

---

(١) سورة المائدة: ٧٥.

ولقد وصفه الله تعالى بالصدق في دعوته قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (١) (٢).

كيف نعرف أنا صادقون مع ربنا عزّ وجل؟

والجواب: هنا مقامان:

الأول: مقام الضراء:

فإذا نزل الضر بالعبد جاءه البلاء لكي تظهر فيه المعادن، فيظهر صدق إيمانه وصدق اعتقاده وإخلاصه؛ فإن البلايا والرزايا تكشف عن معادن طاهرة، رضيت بالله ربًّا، وعلمت أن في الله عوضًا عن كل فائت، فتكون المصيبة خيرًا للعبد من حيث لا يحتسب.

الثاني: مقام السراء:

فإذا جاءت المنن والنعم للعبد فليعلم أن الله يبتليه ليكون صادقًا قريبًا من الله، والصادقون شأنهم في نعم الله عجب!.. تسمح بها أيديهم ليفرجوا هموم الفقراء والمساكين.

ثمرات الصدق مع الله:

للصدق ثمرات زكية ندية يجنيها الصادقون من بستان صدقهم مع الله عَزَّوَجَلَّ:

١- **راحة النفس**: فالصادق في أقواله وأفعاله يشعر براحة النفس وهدوء الخاطر وطمأنينة لا حدود لها؛ لقول النبي ﷺ: «**الصدق طمأنينة، والكذب ريبة**» (٣).

---

(١) سورة التكوير: ٢٤- ٢٥.

(٢) انظر تطريز رياض الصالحين، فيصل النجدي، ١/ ١٩٤-١٩٦.

(٣) رواه الترمذي: ٢٥١٨، وقال: حديث صحيح.

٢- **الفوز بمنزلة الشهيد**: لقوله ﷺ: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»(١).

٣- **والصادقون مع الله تعالى لهم كل خير في الدنيا والآخرة**، كما قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾(٢).

وإذا أردت دليلًا عمليًّا على عظم قدر الصدق مع الله تعالى فانظر إلى قصة كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه عند تخلفه عن تبوك، فقد قال له النبي ﷺ: «**ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟**» فقال: يا رسول الله إني والله لو جلست إلى غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلًا -أي فصاحة وقوة في الإقناع- ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه -تغضب عليّ بسببه- إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر في حين تخلفت عنك. قال الرسول ﷺ: «**أما هذا فقد صدق**»(٣). فأنزل الله توبته وإن كانت بعد مدة، يقول الله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾(٤).

---

(١) رواه مسلم: ١٩٠٩.

(٢) سورة محمد: ٢١.

(٣) صحيح البخاري: ٤٤١٨، وصحيح مسلم: ٢٧٦٩.

(٤) سورة التوبة: ١١٨ - ١١٩.

٤- **يصدقك الله في عطاياه:** ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ (١).

نزلت في ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحب له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن، فقال له رسول الله ﷺ: يا ثوبان ما غير لونك؟ فقال: يا رسول الله ما بي من ضر ولا وجع، غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف ألا أراك هناك، لأني أعرف أنك ترفع مع النبيين، وأني إن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة فذاك أحرى ألا أراك أبدًا. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

٥- **النجاة من المكروه:** فللصدق مع الله تعالى نجاة من الشدائد، ولهذا لما صدَق أهل الإيمان مع ربهم عَزَّوَجَلَّ تكفَّل بحفظهم ودفع الشرور عنهم..

ومن أمثلة ذلك:

حديث الثلاثة الذين أُغلق عليهم الغار أنه قال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه صدق فيه...

فتوسل أحدهم بعفته، وآخر بأمانته، وآخر ببره بوالديه ففرج الله عنهم.

وأعجب من ذلك قصة الخليل عليه السلام حين صدق الله في تنفيذ الرؤيا بذبح ولده، فإنه لما صدق مع الله وشرع في تنفيذ الأمر كان الفرج وكانت العطايا والخيرات العظام من الله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ

(١) سورة النساء: ٦٩.

الرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ (١).

وهذا الإمام أحمد رحمه الله تعالى حين صدق مع الله تعالى في فتنة المعتزلة بالقول بخلق القرآن وثبت على عقيدة أهل السنة أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، وابتلي في الله فصبر وثبت وصدق، فنجاه الله وكتب له الذكر الجميل وصار يعرف بإمام أهل السنة، برغم أنه ليس إمامهم الأوحد ولا الأسبق فقد سبقه على الدرب كثيرون لكنه الصدق مع الله تعالى.

وكذلك الرجل الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ مؤمنًا وهاجر معه فلما كانت غزوةٌ غنم فيها النبي غنائم فقسمها وجعل له نصيبًا، فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى بسهم هاهنا- وأشار إلى حلقه- فأموت فأدخل الجنة، فقال ﷺ: «**إن تصدق الله يصدقك**». فلبثوا قليلًا ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأصابه سهم حيث أشار فحملوه إلى النبي ﷺ فقال: «**أهو هو؟!**» قالوا: نعم. فقال: «**صدق الله فصدقه**».

فكفنه في جبته التي عليه ثم قدمه فصلى عليه فكان من دعائه: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك فقتل شهيدًا، أنا شهيد على ذلك**»(٢).

وهذه حكاية يرويها الشيخ علي الطنطاوي... يقول الشيخ:

كنت قاضيا في الشام وحدث أن كنا مجموعة نمضي المساء عند أحد الأصدقاء فشعرت بضيق نفس واختناق شديد.. فاستأذنت أصدقائي

---

(١) الصافات: ١٠٤ - ١٠٧.

(٢) سنن النسائي: ١٩٥٣.

للرحيل فأصروا أن أتم السهرة معهم ولكني لم أستطع، وقلت لهم: أريد أن أتمشى لأستنشق هواءً نقيًا..

خرجت منهم مشيا وحدي في الظلام وبينما أنا كذلك، إذ سمعت نحيبًا وابتهالًا آتيًا من خلف التلة.. نظرت فوجدت امرأة يبدو عليها مظاهر البؤس كانت تبكي بحرقة وتدعو الله.. اقتربت منها وقلت لها:

«ما الذي يبكيك يا أختي؟».

قالت: «إن زوجي رجل قاس وظالم طردني من البيت، وأخذ أبنائي وأقسم ألا أراهم يومًا وأنا ليس لي أحد ولا مكان أذهب له»!!..

فقلت لها: ولماذا لا ترفعين أمرك للقاضي؟!..

بكت كثيرًا وقالت:

كيف لامرأة مثلي أن تصل للقاضي؟!!..

يكمل الشيخ وهو يبكي يقول:

«المرأة تقول هذا وهي لا تعلم أن الله قد جر القاضي (يقصد نفسه) من رقبته ليحضره إليها»!!!..

سبحان من أمره بالخروج في ظلمة الليل ليقف أمامها بقدميه ويسألها هو بنفسه عن حاجتها!!!..

أي دعاء دعته تلك المرأة المسكينة ليستجاب لها بهذه السرعة، وبهذه الطريقة؟!!..

فيا من تشعر بالبؤس وتظن أن الدنيا قد أظلمت، فقط ارفع يديك للسماء وتضرع لمن يسمع دبيب النملة..

فيا ترى هل لك من عمل صدقت مع الله فيه تطمع أن ينجيك الله به

من الشدائد إذا نزلت بك؟!.

يقول مالك بن دينار: «إن الصدق يبدو في القلب ضعيفًا كما يبدو نبات النخلة، أي: ينبت في القلب نباتًا ضعيفًا، كما يبدو نبات النخلة، فهي تبدو غصنًا واحدًا؛ فيسقى فينتشر، ثم يسقى فينتشر، حتى يكون لها أصل أصيل عظيم يوطأ، وظل يستظل به، وثمرة يؤكل منها، كذلك الصدق مع الله عَزَّوَجَلَّ ينبت في القلب ضعيفًا أولًا، ويتفقده صاحبه ويزيده الله تعالى، حتى يجعله الله تعالى بركة على نفسه، فيكون كلامه دواء للخاطئين، ويحيي الله تعالى به الفئام من الناس، وربما صاحبه لا يعلم بذلك»(١).

٦- جزاء الصادقين مع الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة:

في يوم القيامة حيث الأهوال والشدائد والكُرُبات، لا نجاة لأحدٍ ولا منفعة إلا مَن صدَق مع الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى عمن ينجو في ذلك اليوم العظيم: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾(٢).

فالصدق مع الله عَزَّوَجَلَّ له سرّ عجيب في هذه الدنيا وفي الآخرة..

فإياك أن تتعامل مع الله إلا بالصدق والإخلاص.. إياك أن تعجبك نفسك فتقول: إنما أوتيته على علم عندي.. إياك أن يوسوس لك الشيطان فينفخ في عروقك الغرور وحب الظهور.

---

(١) انظر شرح صحيح مسلم، أبو الأشبال المصري، ٧٣ / ١١.
دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net
[الكتاب مرقم آليًا، ورقم الجزء هو رقم الدرس - ١٠٨ درس]

(٢) المائدة: ١١٩.

عن أبي حامد الخُلْقاني قال:

قلتُ لأحمد بن حنبل: ما تقول في القصائد؟

فقال: في مثل ماذا؟..

قلت: مثل ما تقول:

إذا مـا قال لي ربِّـي:... أما استحييت تعصيـني

وتُخفـي الذنب من غيري... وبالعصيان تأتيـني؟

فمـا قـولي له لما... يعـاتبـني ويقصيـــني؟

قال: فرد الباب، وجعل يقول:

إذا ما قال لي ربِّي:... أما استحييتَ تعصيـني

وتُخفي الذنبَ مِنْ غَيْري... وبالعصيان تأتيني؟

فمـا قـولي له لما... يعاتبـني ويقصيـني؟

فخَرَجتُ وتركته.

اللهم مُنَّ علينا بالصدق، واجعلنا من الصادقين معك في كل أحوالنا، وثبتنا على ذلك حتى نلقاك، وتوفنا وأنت عنا راضٍ يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام.

المعراج الخامس عشر

الحياء من الله

قال يحيى بن معاذ:
«من استحيا من الله مطيعًا
استحيا الله منه وهو مذنب»

المعراج الخامس عشر

الحياء من الله



الحياء لغة:

الحشمة، ضد الوقاحة، وقد حيي منه حياء واستحيا واستحى فهو حَيي، وهو الانقباض والانزواء[1].

الحياء اصطلاحًا:

انقباض النفس من شيء وتركه حذرًا عن اللوم فيه [2].

وقال ابن حجر: «الحياء خلق يبعث صاحبه على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق»[3].

ما الحياء وما حقيقته؟

الحياء: خلق يبعث على فعل كل مليح وترك كل قبيح، فهو من صفات النفس المحمودة التي تستلزم الانصراف عن القبائح وتركها وهو من أفضل صفات النفس وأجلها وهو من خلق الكرام وسمة أهل المروءة والفضل.

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس، ٢/ ١٢٢، لسان العرب، ١٤/ ٢١٧، المصباح المنير، للفيومي، ١/ ١٦٠.

(٢) التعريفات، للجرجاني، ٩٤.

(٣) فتح الباري، لابن رجب، ١/ ٥٢.

ومن الحكم التي قيلت في شأن الحياء: «من كساه الحياء ثوبه لم يرَ الناس عيبه» وقال الشاعر:

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها إلا الحيـــــاء

لذلك فعندما نرى إنسانًا لا يكترث ولا يبالي فيما يبدر منه من مظهره أو قوله أو حركاته يكون سبب ذلك قلة حيائه وضعف إيمانه كما جاء في الحديث: «**إذا لم تَستحْي فافعل ما شئت**»(١).

قال الحكماء: الحياءَ أمارة صادقة على طبيعة الإنسان فهو يكشف عن قيمة إيمانه ومقدار أدبه وعندما ترى الرجل يتحرج من فعل ما لا ينبغي أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهه إذا بدر منه ما لا يليق، فاعلم أنه حي الضمير نقي المعدن زكي العنصر، وإذا رأيت الشخص صفيقًا بليد الشعور لا يبالي ما يأخذ أو يترك فهو امرؤ لا خير فيه وليس له من الحياء وازع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب المعاصي.

قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه، ودفن مساوئه ونشر محاسنه.

والحياء من الأخلاق الرفيعة التي أمر بها الإسلام وأقرها ورغب فيها. وقد جاء في الصحيحين قول النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**»(٢).

والسر في كون الحياء من الإيمان: أن كلًّا منهما داع إلى الخير مُقرب

---

(١) صحيح البخاري: ٣٤٨٣.

(٢) صحيح البخاري: ٩، وصحيح مسلم: ٣٥.

منه، صارف عن الشر مُبعد عنه، فالإيمان يبعث المؤمن على فعل الطاعات وترك المعاصي والمنكرات، والحياء يمنع صاحبه من التفريط في حق الرب والتقصير في شكره. ويمنع صاحبه كذلك من فعل القبيح أو قوله اتقاء الذم والملامة.

ورب قبيحة ما حال بيني ... وبين ركوبها إلا الحياء

وقد قيل: «الحياء نظام الإيمان، فإذا انحل نظام الشيء تبدد ما فيه وتفرق».

وَقَالَ بَعضهم: صدق الْإِيمَان التَّعْظِيم لله، وثمرته الْحيَاء من الله.

فالحياء ملازم للعبد المؤمن كالظل لصاحبه وكحرارة بدنه لأنه جزء من عقيدته وإيمانه؛ ومن هنا كان الحياء خيرًا ولا يأتي إلا بالخير، كما في الصحيحين عن النبي: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[1] وفي رواية مسلم: «**الحياء خير كله**»[2].

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ مر على رجل يعظ أخاه في الحياء: أي يعاتبه فيه لأنه أضر به، فقال له الرسول: «**دعه فإن الحياء من الإيمان**»[3] فقد أمر الرسول ذلك الرجل أن يترك أخاه ويبقيه على حيائه ولو منع صاحبه من استيفاء حقوقه؛ إذ إن ضياع حقوق المرء خير له من أن يفقد حياءه الذي هو من إيمانه وميزة إنسانيته وخيريته.

ورحم الله تعالى امرأة كانت فقدت طفلها فوقفت على قوم تسألهم عن طفلها فقال أحدهم: تسأل عن ولدها وهي تغطي وجهها، فسمعته فقالت:

(١) صحيح البخاري: ٦١١٧.

(٢) صحيح مسلم: ٣٧.

(٣) صحيح البخاري: ٢٤، وصحيح مسلم: ٣٦..

«لأَنْ أُرزَأَ في ولدي خير من أن أرزأ في حيائي أيها الرجل». سبحان الله.. أين هذه المرأة من نساء اليوم تخرج المرأة مبدية زينتها لا تستحي من الله ولا من الناس أضاعت ولدها فعند الله لها العوض والأجر، أما المرأة التي خرجت في زينتها وضيعت حياءها وإيمانها فما أعظم الخسارة وما أسوأ العاقبة.

وصدق الشاعر حين قال:

فتاة اليوم ضيعت الصوابــا وألقت عن مفاتنها الحجابا

فلن تخشى حياءً من رقيــب ولم تخشى مــن الله الحسابا

معنى الحياء من الله :

سئل أحد الصالحين عن معنى الحياء من الله، فقال: الحياء من الله يكون فى ثلاث خصال:

١- أن تستشعر دومًا إحسان الله عليك مع إساءتك وتفريطك.

٢- أن تعلم أنك بعين الله عَزَّوَجَلَّ فى منقلبك ومثواك.

٣- أن تذكر وقوفك بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ ومساءلته إياك عن كل أمر صدر منك.

كيف نستحي من الله؟

١- لا نسأل غيره ولا نعظم سواه.

٢- أن نخلص له ﷻ في كل أعمالنا.

٣- أن نقيم فرائضه ولا نتعدى حدوده.

٤- أن نطيعه فيما أمر ونتجنب ما نهى عنه.

٥- أن نشعر دائمًا بالتقصير في حقه.

كيف نستحي من أنفسنا؟

١- ألا نرضى لنفوسنا بمعصية الخالق وإقبالها على النار.

٢- أن نصون قلوبنا مما يغضب الله.

٣- أن نصون نفوسنا عن الدنايا ومساوئ الأخلاق.

٤- إن الحييَّ من أقوى الناس شكيمة وأشدهم بأسًا في الدفاع عن الحق لا يخشى في الله لومة لائم.

٥- إن للخير والشر معانيَ كامنة في النفس تعرف بعلامات وسمات دالة كما قال الشاعر:

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد من الخبر

فمن سمات الخير: العفة والحياء والكرم، ومن سمات الشر: القحة والبذاءة واللؤم.

حياءك فاحفظه عليك وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

أما انقباض النفس عن الفضائل والانصراف عنها، فلا يسمى حياء. فخلق الحياء في المسلم غير مانع له من أن يقول حقًّا أو يطلب علمًا أو يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر، فإذا منَعَ العبدَ عن فعل ذلك باعثٌ داخلي فليس هو حياء وإنما هو ضعف إيمانه وجبنه عن قول الحق: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[1].

فهذا النبي ﷺ مع شدة حيائه إلا أنه لم يكن يسكت عن قول الحق بل كان يغضب غضبًا شديدًا إذا انتهكت محارم الله.. فمن ذلك عندما شفع مرة عند رسول الله أسامة بن زيد حب رسول الله وابن حبه فلم يمنعه حياؤه

(١) سورة الأحزاب:٥٣.

من أن يقول لأسامة في غضب: «**أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟! والله لو سرقت فاطمة لقطعت يدها**»(١).

ولم يمنع الحياء أم سليم الأنصارية أن تقول: يا رسول الله إن الله عَزَّوَجَلَّ لا يستحي من الحق فهل على المرأة غسل إذا احتلمت؟ فيقول لها ولم يمنعه الحياء من بيان العلم: «**نعم، إذا رأت الماء**»(٢) إذًا الحياء لا يمنع من الاستفسار والسؤال عما جهل من أمور الدين وما يجب عليه معرفته، وقد قيل: «لا يتعلم العلم مستكبر ولا مستح».

وهناك من النساء من يمنعها حياؤها بزعمها من ترك بعض العادات المحرمة التي اعتادت عليها في مجتمعها مثل مصافحة الرجال الأجانب والاختلاط بهم فلا تتحجب من أقارب زوجها ولا تمنع دخولهم عليها في بيتها حال غياب زوجها، والنبي يقول: «**إياكم والدخول على النساء**»(٣).

فإذا كان خير الخلق لا يصافح نساء الصحابة وهن خير القرون فما بال رجال ونسوة في عصر كثر فيه الشر وأهله أصبحوا لا يرون في المصافحة بأسًا محتجين أن قلوبهم تقية ونفوسهم نقية؟ فأيهم أزكى نفسًا وأطهر قلبًا؟ أهذا الغثاء أم تلك النفوس الكبيرة؟ فضلًا عن أن الرسول ﷺ حذر من مس النساء فقال: «**لأن يُطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير من أن يمس امرأة لا تحل له**»(٤).

ومن الناس من يتساهل في إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

---

(١) صحيح البخاري: ٣٤٧٥، وصحيح مسلم: ١٦٨٨.

(٢) صحيح البخاري: ١٣٠، وصحيح مسلم: ٣١٣.

(٣) صحيح البخاري رقم:٥٢٣٢، وصحيح مسلم: ٢١٧٢.

(٤) صحيح الجامع: ٥٠٤٥.

بحجة أنه يستحي من الإنكار على الناس، ومن ذلك ما يفعله بعض الناس من مجاملة بعضهم لبعض في سماع الغيبة أو سماع أي من المنكرات أو رؤيتها، فهذا جبن مذموم كل الذم وصاحبه شريك في الإثم إن لم ينكر أو يفارقهم.

والله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

وقد حذرنا رسول الله من التساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: «**والذي نفسي بيده لتأمُرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم لَتَدْعُنَّهُ فلا يستجاب لكم**»[2].

وينقسم الحياء من حيث الأصل إلى قسمين:

١- حياء فطري غريزي.

٢- حياء مكتسب.

قال القرطبي: «الحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان غير أن من كانت فيه غريزة الحياء فإنها تعينه على المكتسب وقد يتطبع بالمكتسب حتى يصير غريزيًّا».

وهذا قول صحيح ومعلوم بالتجربة في مجال التربية فإن المتربي قد يكون في بدايته لا يملك حياء غريزيًّا أو أن عنده حياءً غريزيًّا ناقصًا ثم ينشأ في جو ينمي بواعث الحياء في قلبه، ويدله على خصال الحياء فإن هذا المتربي سيكتسب الحياء شيئًا فشيئًا ويقوى الحياء في قلبه بالتوجيه

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

(٢) صحيح الجامع: ٧٠٧٠.

والتربية؛ حتى يصبح الحياء خلقًا ملازمًا له، وقد قال بعض الحكماء: «أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه» وهذا الكلام بديع المعنى بعيد الفقه؛ حيث إن كثرة مجالسة من لا يستحيا منه لوضاعته أو حقارته أو قلة قدره ومروءته تخلق في النفس نوعَ تجانُس معهم ثم إن قلة قدرهم عنده تجعله لا يستحي منهم فيصنع ما يشاء بحضرة هذه الجماعة فتضعف عنده خصلة الحياء شيئًا فشيئًا فيتعود أن يصنع ما يشاء أمام الناس جميعًا، أما مجالسة من يستحيا منه لصلاحه وعلو قدره فإنها تحيي في القلب الحياء فيظل الإنسان يراقب أفعاله وأقواله قبل صدورها حياء ممن يجالسه فيكون هذا خلقًا له ملازمًا فتتعود نفسه إتيان الخصال المحمودة، ومجانبة وكراهية الخصال المذمومة.

إن مجالسة الأخيار تقوي الحياء المكتسب وتنميه، أما مجالسة الأرذال فإنها تحول بين العبد وبين اكتساب الحياء.

«وهناك مقام شريف وهو مقام المراقبة قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾[1] هذا المقام أصله علم وحال ثم يثمر حالين: أما العلم: فهو معرفة العبد أن الله مطلع عليه، ناظر إليه يرى جميع أعماله. ويعلم كل ما يخطر على باله، وأما الحال فهو ملازمة هذا العلم للقلب بحيث يغلب عليه، ولا يغفل عنه، ولا يكفي العلم دون هذا الحال، فإذا حصل العلم والحال كانت ثمرتهما عند أصحاب اليمين: الحياء من الله، وهو يوجب بالضرورة ترك المعاصي، والجد في الطاعات، وكانت ثمرتها عند المقربين: الشهادة التي توجب التعظيم والإجلال

(١) سورة النساء: ١.

لذي الجلال، إلى هاتين الثمرتين أشار رسول الله ﷺ بقوله: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]؛ فقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه» إشارة إلى الثمرة الثانية، وهي المراقبة الموجبة للتعظيم. كمن يشاهد ملكًا عظيمًا فإنه يعظمه بالضرورة، وقوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» إشارة إلى الثمرة الأولى، ومعناه إن لم تكن من أهل التقوى والعفاف بحيث تراقب الله في كل عمل هو لك، فاعلم أنه يراك، فكن من أهل الحياء الذي هو مقام أصحاب اليمين، فلما فسر الإحسان أول مرة بالمقام الأعلى: رأى أن كثيرًا من الناس قد يعجزون عنه، فنزل إلى المقام الآخر»[2].

أنواع الحياء:

الحياء أنواع:

١- الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ.

٢- الحياء من النبي ﷺ.

٣- الحياء من الملائكة.

٤- الحياء من الناس.

٥- الحياء من الأموات.

٦- الحياء من النفس.

---

(١) صحيح البخاري: ٤٧٧٧.

(٢) كتاب التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد،عمر الحملاوي، ١/ ٢٤٨.

أولًا: الحياء من الله:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[3].

فتجرؤ العبد على المعاصي واستخفافه بالأوامر والنواهي الشرعية يدل على عدم إجلاله لربه وعدم مراقبته لربه.

فالحياء من الله يكون باتباع الأوامر واجتناب النواهي، قال النبيُّ ﷺ ذاتَ يوم لأصحابِه: استحيُوا من اللهِ حقَّ الحياءِ. قالوا: يا رسول الله إنا نستحي والحمد لله قال: «**ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**»[4].

معنى الحديث: «استحيوا من الله حق الحياء» أي استحيوا من الله قدر استطاعتكم لأنه من المعلوم أن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بكل ما عليه تامًّا كاملًا ولكن كل على حسب طاقته ووسعه قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[5].

قال: قلنا: «إنا نستحي والحمد لله»: أجابوا بذلك لأنهم قصدوا أنهم يفعلون كل مليح ويتركون كل قبيح على حسب استطاعتهم، فرد عليهم

---

(١) سورة العلق:١٤.

(٢) سورة الأنعام:٩١.

(٣) سورة النساء:١.

(٤) سنن الترمذي: ٢٤٥٨.

(٥) سورة التغابن: ١٦.

رسول الله أن ليس المقصود هذا العموم لأن هناك شروطًا للحياء حق الحياء فليس كما يظنون، «أن يحفظ الرأس وما وعى»: أي ما جمع من الأعضاء: العقل والبصر والسمع واللسان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[1].

«وليحفظ البطن وما حوى»: أي يحفظ بطنه وما يتْبعه من حفظ الفرج عن الحرام فيحفظ بطنه من أن يدخله طعام حرام أو من مال حرام؛ فالبدن ينبت ويقوى من الطعام، والرب عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من عبده أن يتقوى على طاعته بمطعم حرام ولا مشرب حرام لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

«وليذكر الموت والبلى»: أن يذكر الموت دائمًا لأننا في هذه الدنيا لسنا مخلدين وإنما سنموت وسنرجع وسنقف بين يدي الله تبارك وتعالى.

(ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا) قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2].

(استحيوا): الألف والسين والتاء في اللغة للطلب أي اسعوا وابذلوا الجهد في طلب تحصيل منزلة حق الحياء، وهو تنبيه ورد على القائلين بأن الحياء هبة وليس اكتسابًا فها هو أمر نبوي صريح واضح بتحصيل الأسباب المؤدية للوصول إلى منزلة حق الحياء، وعلى قدر بذل الجهد يكون تحصيل المنزلة والمرتبة.

---

(١) سورة الإسراء: ٣٦.

(٢) سورة القصص: ٨٣.

فالمقصود أن الحياء من الله يكون باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه ومراقبة الله في السر والعلن، أتى رجلٌ النبيَّ ﷺ فقال: أوصني، قال: «**أوصيك أن تستحي من الله تعالى كما تستحي من الرجل الصالح من قومك**»(١).

وهذا الحياء يسمى حياء العبودية الذي يصل بصاحبه إلى أعلى مراتب الدين وهي مرتبة الإحسان الذي يحس فيها العبد دائمًا بنظر الله إليه وأنه يراه في كل حركاته وسكناته فيتزين لربه بالطاعات. وهذا الحياء يجعله دائمًا يشعر بأن عبوديته قاصرة حقيرة أمام ربه لأنه يعلم أن قدر ربه أعلى وأجل.

قال ذو النون: «الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة مما سبق منك إلى ربك» وهذا يسمى أيضًا حياء الإجلال الذي منبعه معرفة الرب عَزَّوَجَلَّ وإدراك عظم حقه ومشاهدة مننه وآلائه، وهذه هي حقيقة نصب الرسول وإجهاد نفسه في عبادة ربه.

ومن هذا الحياء أيضًا حياء الجناية والذنب: ومثال ذلك ما ذكره ابن القيم في كتابه مدارج السالكين عندما فر آدم هاربًا في الجنة فقال الله تعالى له: أفرارًا مني يا آدم؟ فقال: لا بل حياء منك.

ومن أنواع الحياء من الله: الحياء من نظر الله إليه في حالة لا تليق كالتعري كما في حديث بهز بن حكيم عندما سأل رسول الله فقال: «عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟» قال: «**احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك**» قلت: يا رسول الله أرأيت إن كان القوم بعضهم في بعض؟ قال:

---

(١) صحيح الجامع: ٢٥٤١.

«**فإن استطعت ألا تُريَها أحدًا، فلا تُرِيَنَّهَا**» قلت: يا رسول الله إذا كان أحدنا خاليًا؟ قال: «**فالله أحق أن يُستحيا منه من الناس**»[1].

فقد أمر النبي ﷺ الرجل: أن يستر عورته. وإن كان خاليًا لا يراه أحد، أدبًا مع الله، على حسب القرب منه، وتعظيمه وإجلاله، وشدة الحياء منه، ومعرفة وقاره.

ولذلك عقد الإمام البخاري بابًا سماه: «التعري عند الاغتسال والاستتار أفضل».

وقد ورد أن ابن عباس كان يغتسل وهو يرتدي ثوبًا خفيفًا حياء من الله أن يتجرد .

وكان أبو بكر الصديق يقول: «والله إني لأضع ثوبي على وجهي في الخلاء حياء من الله».

وكان عثمان بن عفان لا يقيم صلبه عند الاغتسال حياء من الله.

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال له: أنا رجل عاصٍ ولا أصبر عن المعصية فعظني، فقال إبراهيم بن أدهم: «افعل خمسة وافعل ما شئت» قال الرجل: هات. قال: «لا تأكل من رزق الله وأذنب ما شئت» قال الرجل: كيف ومن أين آكل وكل ما في الكون من رزقه؟! قال: «اخرج من أرض الله وأذنب ما شئت» قال الرجل: هذه أعظم من تلك، فأين أسكن؟!

قال: «اطلب موضعًا لا يراك الله فيه وأذنب ما شئت»، قال الرجل: كيف ولا تخفى على الله خافية؟!. قال: «إذا جاءك ملك الموت فادفعه عن

---

(١) سنن ابن ماجه: ١٩٢٠، وسنن أبي داود: ٤٠١٧، وسنن الترمذي: ٢٧٦٩.

نفسك وأذنب ما شئت» قال الرجل: هذا مُحال. قال: «إذا دخلت النار فلا تدخل فيها وأذنب ما شئت». فقال الرجل: حسبك، لن يراني الله بعد اليوم في معصية أبدًا.

لقد بلغ الإيمان بالصحابة رضي الله عنهم أنهم أصبحوا يستحيون من الله في التقصير في النوافل وكأنهم قد ضيعوا الفرائض، قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أدركت أقوامًا يستحيون من الله في سواد الليل من طول الهجعة».

قال يحيي بن معاذ: «من استحيا من الله مطيعًا استحيا الله منه وهو مذنب». أي من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته فهو دائمًا يحس بالخجل من الله في تقصيره، فيستحي الله أن يرى من يكرم عليه في حال يشينه عنده.

ثم قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سبحان من يذنب عبده ويستحي هو». وفي الأثر: «**من استحيا من الله استحيا الله منه**»، ويجدر هنا أن ننبه إلى أن حياء الرب صفة من صفاته الثابتة بالكتاب والسنة وهي كسائر صفاته عَزَّوَجَلَّ لا تدركها الأفهام ولا تكيفها العقول بل نؤمن بها من غير تشبيه ولا تكييف. وحياء الله عَزَّوَجَلَّ صفة كمال تدل على الكرم والفضل والجود والجلال.

ففي الحديث: «**إن الله حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرًا**»[1].

عجيب شأن هذا العبد المسكين لا يستحي من ربه وهو ينعم عليه آناء

(١) سنن ابن ماجه: ٣٨٦٥، وسنن أبي داود: ١٤٨٨، وسنن الترمذي: ٣٥٥٦..

الليل وأطراف النهار مع فقره الشديد، والرب العظيم يستحي من عبده مع غناه عنه وعدم حاجته إليه؟!

أعظم الحياء ينبغي أن يكون من الله الحيي سبحانه وتعالى، الذي نتقلب في نعمه وإحسانه الليل والنهار، ولا نستغني عنه طرفة عين، ونحن تحت سمعه وبصره، لا يغيب عنه من حالنا وقولنا وفعلنا شيء. فهو الذي خلقنا وهو الذي رزقنا، فنطعم من خيره، ونعيش على أرضه، ونستظل بسمائه، وآلاؤه غمرتنا من المهد إلى اللحد وإلى ما بعد ذلك من خلود طويل في الجنة إن شاء الله تعالى. فكيف لا نستحي منه؟ وكيف نقابل كل هذه النعم بالإساءة؟!

ويتولد الحياء من المعرفة بعظمة الله وجلاله وقدرته، لأنه إذا ثبت تعظيم الله في قلب العبد، أورثه الحياء من الله والهيبة له، فغلب على قلبه ذكر اطلاع الله العظيم على ما في قلبه وجوارحه، وذكر المقام غدًا بين يديه، وسؤاله إياه عن جميع أعمال قلبه وجوارحه، وذكر دوام إحسانه إليه، وقلة الشكر منه لربه، فإذا غلب ذكر هذه الأمور على قلبه، هاج منه الحياء من الله، فاستحيا من الله أن يطلع على قلبه وهو معتقد لشيء مما يكره، أو على جارحة من جوارحه تتحرك بما يكره، فطهر قلبه من كل معصية، ومنع جوارحه من جميع معاصيه.

فإن من علم أن الله يراه حيث كان، وأنه مطلع على باطنه وظاهره وسره وعلانيته، واستحضر ذلك في خلواته، أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر.

قال القحطاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإذا خلوت بريبـــة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان

فاستحي من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

وكان ابن السماك ينشد:

يا مدمن الذنب أمـــا تستحي والله في الخلـــوة ثانيكا

فإن أصل أعمال القلوب الحياء، فمن اتصف بالحياء من الله، فقد انصبغ قلبه بمعرفة الله وحبه، وخوفه ورجائه، والتحبب إليه مهما أمكن[1].

ثانيًا: الحياء من النبي ﷺ:

ويتضمن اتباع أمره وحفظ سنته والإيمان الصادق به ﷺ وتصديقه فيما أتى به، والحياء من مخالفة أمره وسنته وقد قدمنا على نفسه، وادخر لنا دعوة مجابة ووعدنا بشفاعته ﷺ.

ثالثًا: الحياء من الملائكة:

من المعلوم أن الله قد جعل فينا ملائكة يتعاقبون علينا بالليل والنهار.. وهناك ملائكة يصاحبون أهل الطاعات مثل الخارج في طلب العلم والمجتمعين على مجالس الذكر والزائر للمريض وغير ذلك.

وأيضًا هناك ملائكة لا يفارقوننا وهم الحفظة والكتبة قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾[2]، وقول تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾[3].

إذًا فعلينا أن نستحي من الملائكة وذلك بالبعد عن المعاصي والقبائح

---

(١) كتاب الأسماء الحسنى والصفات العلى، عبد الهادي بن حسن وهبي (١/ ٢٤٦).

(٢) سورة الانفطار: ١١-١٠.

(٣) سورة الزخرف: ٨٠.

وأقوال السوء والأفعال المذمومة المستقبحة. قال ﷺ: «**إياكم والتعري؛ فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله؛ فاستحيوهم وأكرموهم**»[1].

رابعًا: الحياء من الناس:

وهذا النوع من الحياء هو أساس مكارم الأخلاق ومنبع كل فضيلة لأنه يترتب عليه القول الطيب والفعل الحسن والعفة والنزاهة، والحياء من الناس قسمان:

١- قسم أحسن الحياء وأكمله وأتمه، فإن صاحبه يستحي من الناس جازم بأنه لا يأتي هذا المنكر والفعل القبيح إلا خوفًا من الله تعالى أولًا، ثم اتقاء ملامة الناس وذمهم ثانيًا؛ فهذا يأخذ أجر حيائه كاملًا لأنه استكمل الحياء من جميع جهاته إذ ترتب عليه الكف عن القبائح التي لا يرضاها الدين والشرع ويذمه عليها الخلق.

٢- قسم يترك القبائح والرذائل حياء من الناس وإذا خلا من الناس لا يتحرج من فعلها، وهذا النوع من الناس عنده حياء ولكن حياء ناقص ضعيف يحتاج إلى علاج وتذكير بعظمة ربه وجلاله وأنه أحق أن يستحيا منه لأنه القادر المطلع الذي بيده ملكوت كل شيء الذي أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فكيف يليق به أن يأكل من رزقه ويعصيه؟ ويعيش في أرضه وملكوته ولا يطيعه؟ ويستعمل عطاياه فيما لا يرضيه؟

---

(١) سنن الترمذي: ٢٨٠٠.

وعلى ذلك فإن هذا العبد لا يليق به أن يستحي من الناس الذين لا يملكون له ضرًّا ولا نفعًا لا في الدنيا ولا في الآخرة، ثم لا يستحي من الله الرقيب عليه المتفضل عليه الذي ليس له غناء عنه.

أما الذي يجاهر بالمعاصي ولا يستحي من الله ولا من الناس، فهذا من شر ما مُنِيَتْ به الفضيلة وانتهكت به العفة، لأن المعاصي داء سريع الانتقال لا يلبث أن يسري في النفوس الضعيفة فيعم شر معصية المجاهر ويتفاقم خطبها، فشره على نفسه وعلى الناس عظيم، وخطره على الفضائل كبير، ومن المؤسف أن المجاهرة بالمعاصي التي سببها عدم الحياء من الله ولا من الناس ـ قد فشت في زماننا، فلا شاب ينزجر ولا رجل تدركه الغيرة ولا امرأة يغلب عليها الحياء فتتحفظ وتتستر، فقد كثر في المجتمعات المسلمة التبرج من النساء في الأسواق وفي الحدائق العامة وحتى في المساجد، تخرج المرأة مبدية زينتها بكل جرأة لم تُجِلَّ خالقًا ولم تستحي من مخلوق.

ومن مظاهر عدم الحياء في مجتمع النساء: تحدث المرأة بما يقع بينها وبين زوجها من الأمور الخاصة، وقد وصف النبي من يفعل ذلك بشيطان أتى شيطانة في الطريق والناس ينظرون.

ومن مظاهر ضعف الحياء لدى بعض النساء: تبسطها بالتحدث مع الرجل الأجنبي مثل البائع وتليين القول له وترقيق الصوت من أجل أن يخفض لها سعر البضاعة.

ومن المظاهر: تَشبُّهُ النساء بالرجال في اللباس وقصات الشعر والمشية والحركة. وهذا فعل مستقبح تأباه الفطرة السليمة والذوق

والحياء وحرمه الشرع ونهى عنه.

ومن المشاهد المؤسفة التي فشت في وسط النساء هذه الأيام ظاهرة النساء الكاسيات العاريات -أو النساء شبه العاريات- وذلك بلبس الملابس التي لا تليق بمسلمة حتى وصلت بقلة حيائهن في اللباس إلى حدود العورات المغلظة فلم يراعين دينًا ولا حياء ولا مروءة.

خامسًا: الحياء من الأموات:

تسطر أمنا أم المؤمنين عائشة حياءً لا نظير له في الحديث، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كنت أدخل بيتي الذي دفن فيه رسول الله ﷺ وأبي، فأضع ثوبي، فأقول: إنما هو زوجي وأبي، فلما دُفِنَ عمر معهم فوالله ما دخلت إلا وأنا مشدودة عليَّ ثيابي؛ حياءً من عمر[1].

سادسًا: الحياء من النفس:

وهو حياء النفوس العزيزة من أن ترضى لنفسها بالنقص أو تقنع بالدون.

ويكون هذا الحياء باستكمال محاسن الأخلاق بالعفة وصيانة الخلوات وحسن السريرة. فيجد العبد المؤمن نفسه تستحي من نفسه حتى كأن له نفسين تستحي إحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر.

---

(١) مسند أحمد: ٢٥٦٦٠.

والحياء يحفظ أمانة العبد وإيمانه لأنه رأس في رعاية ما تَحَمَّلَ العبد عن ربه أو عن الخلق.

يقول أحد العلماء: «من عمل في السر عملًا يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر».

والحقيقة أن هناك نفسًا أمارة بالسوء تأمر صاحبها بالقبائح؛ قال تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[1] والنفس الثانية هي النفس الأمارة بالخير الناهية عن القبائح وهي النفس المطمئنة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾[2].

إذًا فعلينا أن نجاهد أنفسنا فلا نجعلها تفكر في الحرام ولا تعمله حتى تكون من النفوس المطمئنة التي تُبشَّر بجنة عرضها السموات والأرض..

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[3].

فهذه جملة وسائل عملية يراد بها أن ينتقل العاصي من ستر للحياء مهتوك وأدب مع الله مفقود إلى صاحب حياء تستحي منه الملائكة، وصاحب أدب أدبه به رب العالمين، ولكن أين العزيمة والإرادة؟ أين الرغبة والتصديق؟ أين البذل والجهد:

(١) سورة يوسف: ٥٣.

(٢) سورة الفجر: ٢٧-٣٠.

(٣) سورة العنكبوت: ٦٩.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

(ألا إن سلعة الله غالية إلا إن سلعة الله الجنة ألا هل من مشمر)[1].



(١) انظر كتاب «أين نحن من أخلاق السلف»، عبد العزيز الجليل، مطويات دار القاسم، «وقفة مع الحياء»، ياسر عبد الرحمن، «هذه أخلاقنا» ـ محمود الخازندار.

المعراج السادس عشر

حسن الظن بالله

فما ظنكم برب العالمين

يقول ابن مسعود: قسمًا بالله ما ظن أحد بالله ظنًا إلا أعطاه الله ما يظن، وذلكَ لأن الفضل كله بيد الله

المعراج السادس عشر

حسن الظن بالله



لقد خلقنا الله في هذه الحياة وهيّأ لنا من الأسباب والمسببات ما يضمن لنا صلاح حياتنا القلبية والبدنية، إن نحن أحسنّا استغلالها وترويض أنفسنا عليها، فنحن في هذه الدنيا في مجاهدة مع أحوالها ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾[1] مكابدة لأنفسنا، ومكابدة لنزعات الشيطان، ومكابدة لمصاعب الحياة ومشاقها وأهوالها، نفرح ونحزن، نضحك ونبكي، فالحياة لا تصفو لأحد.

ولما كانت حالنا في هذه الدنيا يعتريها ضيق الصدر، ونبقى حبيسي الهواجس والوساوس، ومكايد الشيطان، فيؤثر ذلك على عباداتنا وسلوكياتنا، كنا بحاجة إلى حسن الظن به لتستقيم حياتنا ويصفو بالنا.

إن المتأمل في أسماء الله ﷻ وصفاته لن يجد بدًّا من التفاؤل وحسن الظن به والثقة في نصره فمن أسمائه تعالى البرّ الرحيم التواب العزيز اللطيف الودود وغيرها من الأسماء الحسنى، والصفات العُلى، فربٌّ هذه أسماؤه وتلك صفاته يُظَنُّ به ظن السوء؟ والله ما قدرنا الله حق قدره، وما عرفناه حق معرفته.

---

(١) سورة البلد: ٤.

فحُسن الظن بالله تعالى ركيزة مهمة من ركائز الإيمان، وأصل عظيم من أصول العقيدة الإسلامية تتعلق بمعرفته حق المعرفة ومن حققه واعتصَم به نال السعادة في الدنيا وكان من أهل النجاة في الآخرة، ومن أخلّ به أو فقده كان من أهل الشقاء في الدنيا ومن أهل الخسارة في الآخرة، وإن حُسن الظن بالله مبدأ كل خير يكسبه المسلم.

مفهوم حسن الظن بالله تعالى:

حسن الظن بالله من العبادات القلبية، التي تدل على حب العبد لربه وتصديقه بوعده، فلا يتم إيمان العبد إلا به لأنه من صميم التوحيد وواجباته، فيظن المسلم أن الله تعالى راحمه وفارج همه وكاشف غمه، وذلك بتدبّر الآيات والأحاديث الواردة في كرم الله وعفوه وما وعد به أهل التوحيد، فحسن الظن بالله عزّ وجلّ هو اعتماد المؤمن على ربه في أموره كلها، ويقينه الكامل وثقته التامة بوعد الله ووعيده، واطمئنانه بما عند الله، وعدم الاتكال على تدبير نفسه وما يقوم به من أعمال.

والأحاديث التي تؤكد هذا المعنى كثيرة، منها:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي ﷺ: يقول الله تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[1].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح: «أي قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامل به».

---

(١) صحيح البخاري: ٧٤٠٥، وصحيح مسلم: ٢٦٧٥.

قال النووي في شرح صحيح مسلم: «قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه».

وحُسن الظن بالله تعالى من حُسن العبادة، وفي الصحيح يقول الله تعالى: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، فلْيظُنَّ بي ما شاء»، وذلك يُناسِب قولَه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[1][2].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال القاضي: قيل: معناه: بالغفران له إذا استغفر، والقبول إذا تاب، والإجابة إذا دعا، والكفاية إذا طلب الكفاية»، وقيل: المراد به الرجاء وتأميل العفو، وهو أصح.

ففي هذه الجمل الثلاث وهي قوله تعالى في الحديث القدسي:(وإن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) ما يدل على هذا المعنى العظيم، وهو أن عطاء الله وثوابه أكثر من عمل العبد وكدحه، ولذلك فإنه يعطي العبد أكثر مما فعله من أجله، فسبحانه ما أعظم كرمه وأجلّ إحسانه.

ولما كان السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هم أقرب الناس إلى منهج الله وسنة رسوله ﷺ، أدركوا أهمية حسن الظن بالله ومدى أثره في المؤمن؛ فكانوا أحرص الناس عليه، وأكثرهم دعوة إليه، وحثًّا على التمسك به؛ فهذا سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يدعو: «اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك»، وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: «والذي لا إله غيره ما أُعطي عبد مؤمن شيئًا خيرًا من حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، والذي لا إله غيره لا يحسن عبد بالله عَزَّوَجَلَّ

(١) سورة الزمر: ٥٥.

(٢) انظر إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، محمد عز الدين اليمني،(١/ ٢٠٧).

الظن إلا أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ ظنه؛ ذلك بأن الخير في يده».

ويتأكد حسن الظن بالله في مواطن عديدة؛ منها:

١- إحسان العمل:

إنما يحمل المسلم على حسن العمل حسن ظنه بربه أنه سيجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فإذا عمل صالحًا ظن أن الله سيقبل عمله ويجازيه عليه أحسن الجزاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾[1].

فينبغي علينا أن نجتهد في القيام بما علينا من الأوامر والنواهي متيقنين بأن الله يقبلها ويغفر لنا؛ لأنه وعدنا بذلك وهو لا يخلف الميعاد، فإن ظن أحد أن الله لا يقبل عمله، فهذا هو اليأس من رحمة الله.

٢- إجابة الدعاء:

أمرنا الله بدعائه وتكفل بالإجابة؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[2].

فإذا دعا المسلم الله عَزَّوَجَلَّ ظن أن الله سيجيب دعاءه، ثم بيّن لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سعة فضله وعظيم كرمه وقربه من عبده، وأن المسلم كلّما تقرب من الله عَزَّوَجَلَّ ازداد الله منه قُربًا وقد أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذلك في كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[3].

---

(١) سورة الكهف: ٣٠.

(٢) سورة غافر: ٦٠.

(٣) سورة البقرة: ١٨٦.

كل ذلك من حسن الظن بالله ﷻ، ومنه قوله ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ**»[1]، ومن معنى اليقين أن يعتقد بأن الله قد سمع دعاءه وأنه مُجيبه، إذا حقق آداب الدعاء وانتفت موانعه، فإن حدث أن تأخرت الإجابة لم نستعجل لأن الرسول ﷺ قد أخبر أنه: «يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَلْ؛ يقول: دعوت فلم يُستجب لي»[2]، وهكذا يظل العبد متعلقًا بجميل الظن بربه، وحسن الرجاء فيما عنده كما قال الشاعر:

وإني لأدعو الله حتى كأنني ... أرى بجميل الظن ما الله صانع

٣- قبول التوبة:

والتوبة من العبادات الواجبة على المؤمنين جميعًا؛ قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾[3] ولا يتصور حصول التوبة من العبد المذنب الخطَّاء وحسن الظن بالله تعالى غائب غير حاضر، فإذا أذنب وتاب واستغفر ظن أن الله سيقبل توبته ويقيل عثرته ويغفر ذنبه، وإنما الذي يُيسر له التوبة والإنابة إلى الله تعالى أن يتذكر قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[4] ويستحضر قول نبيه ﷺ: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر

---

(١) رواه الترمذي: ٣٤٧٩، وقال الألباني: حسن.

(٢) صحيح البخاري: ٦٣٤٠، وصحيح مسلم: ٢٧٣٥.

(٣) سورة النور: ٣١.

(٤) سورة الزمر: ٥٣.

يرى ذنوبه كذُباب مرّ على أنفه فقال به هكذا». ثم قال: «**لَلهُ أفرح بتوبة العبد من رجل نزلَ منزلًا وبه مَهلَكةٌ، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى اشتدَّ عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده**»(١).

لأن من لقي الله ﷻ وهو يحسن الظن به أنه يغفر له، ويتوب عليه، فإن الله يكون عند ظنه به ولا يخيب رجاءه فيه.

قال سهيل أخو حزم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: رأيت مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد موته، فقلت: يا أبا يحيى، ليت شعري ماذا قدمت به على الله؟ قال: قدمت بذنوب كثيرة، محاها عني حُسنُ الظن بالله عز وجل.

٤- حال الاحتضار:

ويتأكد حسن الظن بالله في حال الضعف والافتقار كحال المحتضر فإنه أولى من غيره بإحسان الظن بالله جل وعلا، ولا شك بأن رسولنا ﷺ قد دلنا وأرشدنا إلى خير ما يعلمه لنا، وحذرنا وأنذرنا من شر ما يعلمه لنا؛ ولذا فقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله** عَزَّوَجَلَّ»(٢)، قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذا الحديث: «وقد يكون أيضًا حسن الظن بالله من ناحية الرجاء وتأميل العفو»، وقال العظيم آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عون المعبود: «أي لا يموت أحدكم في حال من الأحوال إلا في هذه الحالة وهي حسن الظن بالله بأن يغفر له؛ فالنهي وإن

(١) صحيح البخاري: ٦٣٠٨.
(٢) صحيح مسلم: ٢٨٧٧.

كان في الظاهر عن الموت؛ لكن في الحقيقة عن حالة ينقطع عندها الرجاء لسوء العمل كيلا يصادفه الموت عليها»، وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح المهذب: معنى تحسين الظن بالله تعالى: أن يظن أن الله تعالى يرحمه، ويرجو ذلك بتدبر الآيات والأحاديث الواردة في كرم الله تعالى وعفوه وما وعد به أهل التوحيد وما سيبدلهم من الرحمة، يوم القيامة، كما قال ﷺ في الحديث القدسي: «**قال الله** عَزَّوَجَلَّ: **أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء**»[1]، هذا هو الصواب في معنى الحديث وهو الذي قاله جمهور العلماء.

إذًا فحسن الظن بـالله عَزَّوَجَلَّ يجب أن يكون صفة المؤمن وسَمته طيلة حياته، ويتأكد أكثر عند مماته حتى يأتيه الموت وهو محب للقاء الله؛ ففي الحديث: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**»، قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: إنـا لنكره الموت، قال: «ليس ذاك يا عائشة، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه ممّا أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِرَ بُشِّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه»[2].

يروى عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «عمود الدين وغاية مجده وذروة سنامه حسن الظن بالله تعالى، فمن مات وهو يحسن الظن بالله دخل الجنة»[3].

---

(١) مسند أحمد: ١٦٠١٦، وقال الألباني: صحيح.

(٢) صحيح البخاري: ٦٥٠٧.

(٣) تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد، عبد الهادي بن محمد بن عبد الهادي البكري، ٢/ ٥٠٨.

٥- عند الهم والغم:

حسن الظن بالله تعالى عند الهم والغم، وذلك بأن تستشعر أن الله تعالى فارجٌ لهمومنا كاشفٌ لغمنا، فإذا أصاب المسلم شيء من الهم ينبغي ألا تتغير حاله، فيصاب بالوحشة، وضيق الصدر فيستسلم للشيطان ويظهر عليه اليأس والقنوط والشكوى فيشكو أمره إلى كل من يجالسه أو يهاتفه دون أن يجاهد نفسه طرفة عين، وعلى المسلم حين تأتي هذه المصائب وتأتي هذه الهموم أن يقبل على الله فيقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[1] والله تعالى يقول بعدها: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[2]، فإنه متى ما أحسن العبد ظنه بربه، فتح الله عليه من بركاته من حيث لا يحتسب، فعلينا أن نحسن الظن بربنا فنرى من الله ما يسرنا ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾[3].

٦- عند نزول الضر:

و إذا كان حسن الظن بـالله حاضرًا كان الرضا بالقضاء والقدر موجودًا، فإذا جاء المقدور الذي هو الضر رضي به، وليتذكر نبي الله أيوب عليه السلام عند نزول البلاء به قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾[4]، وقد كان أيوب عليه السلام غاية في الصبر والله تعالى بعدها يقول: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٧.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٨.

(٣) سورة الشرح: ٦.

(٤) سورة الأنبياء: ٨٣.

فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾[1]، وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ، وإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**»[2]، فعلينا الصبر وتذكر أن هذه الدنيا دار ابتلاء وامتحان قال النبي ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل**»[3].

آثار حسن الظن بالله:

بحُسن ظننا بالله، نحسن الرجاء فيما عنده، فإن الله لا يخيب أملنا ولا يضيع عملنا، فحسن الظن بالله تعالى له آثار عظيمة على المؤمن في حياته وبعد مماته، فمن آثاره:

١- استشعار أسماء الله الحسنى وصفاته العلى التي لا نقص فيها لله عز وجل، كالعلم، والقدرة على كل شيء، والإرادة المطلقة، فهو الغني الذي لا يحتاج إلى غيره، والعفو والغفور الذي يغفر ذنب عبده، إلى غير ذلك من صفات الكمال.

وقد قال الله تعالى في حق من ظن بالله ما لا يليق به: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[4].

٢- حسن الظن بالله له ارتباط وثيق بنواح عقدية متعددة، ومن ذلك مثلًا:

أ. التوكل على الله تعالى والثقة به، حيث إنك لا تتوكل إلا على من

(١) سورة الأنبياء: ٨٤.

(٢) رواه الترمذي: ٢٣٩٦، وقال الألباني: حسن.

(٣) سنن ابن ماجه: ٤٠٢٣، وسنن الترمذي: ٢٣٩٨، و قال الألباني: صحيح.

(٤) سورة فصلت: ٢٣.

تحسن الظن به؛ ولذا فقد جعله الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إحدى درجات التوكل فقال: «الدرجة الخامسة: - أي من درجات التوكل -: حسن الظن بالله عز وجل؛ فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه»؛ ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله، والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه؛ إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه[1].

ومن دون حسن الظن بالله تعالى لا يمكن للعبد أن يحصل عبادة التوكل عليه، والله تعالى يقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾[2] والتوكل على الله يقوم على ركنين أساسيين: الثقة بالله والاعتماد عليه، فلابد أن نعتقد أننا أودعنا قضايانا عند من لا يضيعها؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[3] أي فهو يكفيه ويغنيه عن غيره.

فإن من أحسن الظن بربه وتوكل عليه حق توكله، جعل الله له في كل أمره يسرًا ومن كل كرب فرجًا ومخرجًا.

ب. الاستعانة بالله والاعتصام به واللجوء إليه سبحانه، كلها تستلزم أن يحسن العبد الظن بربه عَزَّوَجَلَّ.

قال بعض السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: «استعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ في كشفها؛ فإن ذلك أقرب إلى الفرج».

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢١).

(٢) سورة المائدة: ٢٣.

(٣) سورة الطلاق: ٣.

ج. أن من أحسن ظنه بالله فإنه يرجو رحمة الله ويخاف غضبه وعقابه، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويكون الراجي دائمًا راغبًا راهبًا مؤملًا لفضل ربه حَسَنَ الظن به» والمراد منه اعتدال جانب الرجاء مع الخوف منه ﷻ، فإن حسن الظن بالله يجب أن يقترن بالخوف منه ﷻ حتى لا يفضي إلى الغرور وترك العمل، وقد قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من حسن ظنه بالله عَزَّوَجَلَّ ثم لا يخاف الله فهو مخدوع».

٣- الاستسلام لأحكامه وشرائع دينه جملة وتفصيلًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1] فيأمر الله عباده المؤمنين بالاستجابة لله ورسوله، وعدم الاعتراض على أوامره ونواهيه من القلب فضلًا عن أن يظهر ذلك على الجوارح، لأن المسلم يعتقد أن الله أحل لعباده الطيبات التي تنفعهم، وحرم عليهم الخبائث التي تضر بهم، ولم يأمرهم بشيء إلا وفيه تحقيق مصلحة لهم عاجلة في الدنيا أو آجلة في الآخرة، فالله تبارك وتعالى غني عنا وعن عبادتنا له، يقول ﷻ في الحديث القدسي الطويل: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا،**

(١) سورة الأنفال: ٢٤.

يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (١).

٤- أن من أحسن الظن بربه عَزَّوَجَلَّ وأيقن صدق وعده وتمام أمره وما أخبر به من نصرة الدين والتمكين في الأرض للمؤمنين، اجتهد في العمل لهذا الدين العظيم والدعوة إلى الله تَعَالَى، بل يقدم على العمل إقدام الواثق بوعد الله فلا نعلق آمالنا إلا بالله تَعَالَى ولا نتوكل إلا عليه.

٥- وحسن الظن بالله يعين على الإحسان في الدنيا سواء في الأقوال أو الأفعال، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا ريب أن حسن الظن بالله إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه.....»، وأحسن الناس ظنًّا بربهم أطوعهم له، كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل».

فكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاق الله، وأن الله يسمع كلامه

---

(١) رواه مسلم: ٢٥٧٧.

ويرى مكانه، ويعلم سره وعلانيته، وهو مقيم على مساخطه مضيع لأوامره معطل لحقوقه، وهو مع هذا يزعم أنه يحسن الظن به؟!

٦- المبادرة إلى طلب عفو الله ورحمته ورجائه ومغفرته ليطرق بعد ذلك العبد باب ربه منطرحًا بين يديه راجيًا مغفرته تائبًا من معصيته يقول ﷺ: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»[1]، ولقد عني السلف بهذا الأمر؛ لأن من لقي الله ﷻ وهو يحسن الظن به في أنه يغفر له ويتوب عليه؛ فإن الله يكون عند ظنه به، ولا يخيب رجاءه فيه؛ وهذا من أعظم الأثر لحسن الظن بالله.

٧- أن المؤمن حين يحسن الظن بربه لا يزال قلبه مطمئنًّا ونفسه آمنة تغمرها السعادة والرضا بقضاء الله وقدره وخضوعه لربه سبحانه؛ فالمؤمن دائمًا يتوقع الخير منه ﷻ في السراء والضراء، ويؤمن إيمانًا جازمًا بأن الله يريد به الخير، فبذلك يكون له أثر إيجابي على نفس المؤمن في حياته وبعد مماته، فمن أحسن الظن بربه وتوكل عليه حق توكله جعل الله له في كل أمره يسرًا ومن كل كرب فرجًا ومخرجًا، فاطمأن قلبه وانشرحت ونفسه، وغمرته السعادة والرضا بقضاء الله وقدره وخضوعه لربه جل وعلا.

٨- أن إحسان الظن بالله يبعث على الأمل في النفس والتفاؤل في

---

(١) صحيح مسلم: ٢٧٥٩.

الحياة، كيف لا يكون كذلك وربنا قد وعدنا وهو لا يخلف الميعاد: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1]؟ ولنعلم أن الله لا يظلم أحدًا من عباده؛ قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾[2]، يقول السعدي في هذه الآية: «وفي هذا حث على فعل الخير، وترك الشر وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} فيُحمِّل أحدًا فوق سيئاته»، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأكثر الخلق بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء؛ فعلى المسلم ألا يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله».

٩- حسن الظن بالله فيه النجاة والفوز بالجنان ورضا الرحمن، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾[3].

روى أبو بكر بن أبي الدنيا عن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه عَزَّوَجَلَّ».

(١) سورة النور: ٥٥.

(٢) سورة فصلت: ٤٦.

(٣) سورة الحاقة: ١٩-٢٢.

فحسن الظن بالله من العبادات المهمة في حياة العبد، فالخير لا يأتي إلا منه سبحانه، والفضل لا يحصل إلا من لدنه، والنعم لا تأتي إلا من قبله؛ فلا يغفر الذنوب إلا الله ولا يستر العيوب سواه، وحسن الظن بالله زاد المؤمن في طريقه إلى ربه فهو شحنة إيمانية يتعلق بها القلب بالله.

الفرق بين حسن الظن بالله والغرور:

إن حُسن الظن بالله المصحوب بالعمل الصالح هو السبب القوي والركن الوثيق الذي يجب على المسلم أن يتوجَّه إليه ويجعله وسيلةً للحصول على خير الدنيا والآخرة، وحيث جاء الأمر بحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ فإن بعض الناس قد أساء في هذا الأمر وغلا فيه حتى سقط في الغرور جاهلًا بكيفية إحسان الظن بالله عَزَّوَجَلَّ ناسيًا أليم عقابه عَزَّوَجَلَّ وغافلًا عن شدة عذابه ومحاسبته لعباده عما اقترفت أيديهم وكسبت نفوسهم.

ومما ينبغي أن يُعْلم أن حسن الظن بالله يعني حسن العمل، ولا يعني أبدًا القعود والركون إلى الأماني والاغترار بعفو الله، ولذا فإن على العبد أن يتجنب محذورين في هذه القضية: المحذور الأول هو اليأس والقنوط من رحمة الله، والمحذور الثاني هو الأمن من مكر الله، فلا يركن إلى الرجاء وحده وحسن الظن بالله من غير إحسان العمل، فإن هذا من السفه ومن أمْنِ مكر الله، وفي المقابل أيضًا لا يغلّب جانب الخوف بحيث يصل به إلى إساءة الظن بربه فيقع في اليأس والقنوط من رحمة الله، وكلا الأمرين مذموم، بل الواجب علينا أن نحسن الظن مع إحسان العمل.

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «حسن الظن بالله: ألا ترجو إلا الله ولا تخاف إلا ذنبك»؛ إذًا فهو مدعاة للعمل ومحفز للهمم وليس كما

يفهم بعضهم أنه سبب للركون للأماني والاستسلام للأحلام.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن قومًا ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا مفاليس يقول أحدهم: إني لأحسن الظن بربي، وكذب؛ لو أحسن الظن لأحسن العمل».

وقد فرق ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين حسن الظن بالله وبين الغُرور به فقال: «الفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها كغارس الشجرة وباذر الأرض، والمغتر العاجز قد فرط فيما أُمر به، وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصلح بعد بذل المجهود»، فبهذا يضع العالم الرجاء مواضعه، والجاهل يضعه في غير مواضعه.

وهل يعقل أن يكون في ميزان الله العدل الذي لا يقبل الحيف والجور أن يساوي بين أهل الجور وأهل الفجور؟ وأن يماثل بين البر والفاجر، وبين المؤمن والكافر وأن يساوي بين من أعرض عن الله ومن يتعرض لنفحات الله؟

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[1]، فعلى المؤمن مع إحسانه الظن بربه ألا يغفل عن محاسبة الله ﷻ لعباده بعدله وحكمته ومجازاته لهم بما كانوا يعملون حتى لا يقع في الغُرور فيهلك نفسه، فهو مسلك دقيق ومنهج وسط بين نقيضين لا يسلكه إلا من وفقه الله وجعل قلبه خالصًا له سبحانه، لذلك ينبغي أن يكون سمة لازمة تتجلى في حياته.

---

(١) سورة الجاثية: ٢١.

الآثار المترتبة على سوء الظن بالله:

إن سوء الظن بالله تعالى يتسبب في تزلزل دعائم الإيمان وأركان التوحيد في قلب المؤمن، لأنَّ الاعتقاد بأنَّ الله تعالى قد يخلف وعده ناشئ إمَّا من الجهل أو العجز أو الكذب، ومعلوم أن كل واحد من هذه الأمور محال على الله تعالى وأنّ الذات المقدّسة منزهة عن هذه الأمور.

وقد ذم الله تعالى من أساء الظن به، فأخبر عن المشركين أنهم يظنون بالله ظن السوء، قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ٦﴾[1].

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول هذه الآية: «وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر به، وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين وإحقاق الحق وإبطال الباطل؛ فاعتقاد هذا من الإيمان، وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان، وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد؛ لأنها سوء ظن بالله، ونفي لكماله وتكذيب لخبره، وشك في وعده، والله أعلم»[2].

وقد جعل المولى عَزَّوَجَلَّ سوء الظن به سبب ضلال المشركين فقال مخاطبًا لهم: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٢٣﴾[3]، المقصود ظنكم السيئ من أن الله تعالى لا يطّلع على أعمالكم هو

---

(١) سورة الفتح: ٦.

(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص: ١٩٨).

(٣) سورة فصلت: ٢٣.

الذي أهلككم، ولذا فقد قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ظن السوء، والظن بالله غير الحق ظن الجاهلية المنافي لحسن الظن بالله، قال: «وإنما كان هذا ظن سوء وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل وظن غير الحق؛ لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه».

وقال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾[1]، قال: «يدل على أن من ظن بالله ما لا يليق به -جل وعلا- فله النار»، وبعد هذا فكيف يستسيغ المؤمن أن يظن بربه ظن السوء وظن ما لا يليق بجلاله وهو يعلم أن هذا من صفة الكفار والمنافقين؟!

فلماذا نسيء الظن بربنا وقد علمنا أنه لا يخلف وعده؟ قال الله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾[2]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[3]، وقال الله تعالى: ﴿وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾[4]، فلم نتشاءم وعندنا هذه الوعود من الذي لا يخلف الميعاد، والله تعالى يقول في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي**»؛ فمن أحسن الظن به أعانه وبلغه مراده، ومن أساء بالله الظن فلن يعطيه الله تعالى إلا ظنه.

---

(١) سورة ص: ٢٧.

(٢) سورة الروم: ٦.

(٣) سورة التوبة: ١١١.

(٤) سورة الرعد: ٣١.

حسن الظن بالمؤمنين:

حسن الظن بالمؤمنين خلق حض عليه الإسلام، وحق من حقوق المسلمين، فلن تسلم الصدور، ولن تطمئن القلوب، وسوء الظن هو الغالب، والثقة بين المؤمنين مفقودة، ولكي نحقق سعادتنا، وندعم روابط الإخاء والألفة بيننا، لكيلا تحمل نفوسنا غِلًّا ولا حقدًا، وتسود المودة والرحمة والتسامح بيننا لابد أن يسود حسن الظن فتتآلف قلوبنا وتتوحد، ويصعب على الشيطان إيجاد سبيل لوسوسته في قلوبنا وتفشل محاولاته في غرس بذور الخلاف والضعف والكراهية، فيصفو العيش حين تصفو القلوب، ويسود المجتمعَ حسنُ الظن بالمؤمنين، والثقة بالنيات، ويغلب الصدق والخير، والقصد الحسن في أقوالهم ومواقفهم.

وأقوال السلف والخلف في عظيم أمر حسن الظن والحث عليه كثيرة: كان الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «من أحب أن يختم له بخير فليحسن الظن بالناس».

فالأصل في المؤمن أن تُحمل أفعاله وأقواله على الخير، وإذا صدر منه قول أو فعل قد أخطأ فيه يحمل على حسن نيته، وبهذا الأصل يسد المسلم منافذ الشيطان، لأنا إذا اجتهدنا في حمل تصرفات إخواننا المسلمين على الخير، سلمت قلوبنا، وبقينا على الإخاء والمودة، ولخطورة سوء الظن وما يحدثه من آثار فقد أكد الشارع الحكيم على ضرورة تجنبه فأمر ﷻ المؤمنين باجتناب كثير من الظن وهو كل ظن لم يقم عليه دليل، وإن بعض الظن إثم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ [1]، يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فلْيُجتنَبْ كثير منه احتياطًا»[2].

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[3].

ويروى عن أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلمة يحذر فيها من سوء الظن، وأن الشخص الذي يحمل هذه الصفه لا يستطيع أن يصنع علاقات سليمة مع الناس: «من لم يحسن ظنه استوحش من كل أحد».

وقد عد ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ سوء الظن بالمسلم من الكبائر الباطنة، وقال: «من كان في قلبه مرض منها لم يلق الله بقلب سليم» فعلينا أن نربأ بأنفسنا عن الظن، وأن نتعامل مع إخواننا وفق ما نرى، وبذلك تسلم لنا دنيانا وآخرتنا.

وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك» فنحن مطالبون بتفسير أي عمل بأحسن تفسير.

و بالمقابل فإن حسن الظن لا يعني ألا يكون الإنسان يقظًا في معاملاته مع الآخرين، بل يجب عليه أن يحتاط للأمور، ويتعامل مع الآخرين بفطنة وذكاء وحرص فالمؤمن كَيس فطن كما جاء في الحديث، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يسأل عبدًا في الآخرة عن حسن ظنه بخلقه، وإنما يسأله عن سوء ظنه بهم.

---

(١) سورة الحجرات: ١٢.

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٧)..

(٣) رواه البخاري: ٥١٤٣.

والإسلام يدعو إلى حسن الظن بالناس والابتعاد عن سوء الظن، فلنا الظاهر والله ﷻ يتولى السرائر، ولسنا مطالبين بالتفتيش في دخائل الناس والبحث عن أسرارهم.

من الأسباب المعينة على حسن الظن بالآخرين :

- **الدعاء**: فإنه باب كل خير، وله أثر عظيم في تغيير الأحوال والقلوب ولنا في رسولنا ﷺ أسوة حسنة؛ فقد كان يدعو ربه أن يرزقه قلبًا سليمًا فيقول: «**واسلل سخيمة قلبي**»[1] والمؤمنون يدعون الله بقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[2].

- **إنزال النفس منزلة الغير**: فلو أن كل واحد منا عند صدور فعل أو قول من أخيه وضع نفسه مكانه لحمله ذلك على إحسان الظن به، وقد وجه الله عباده لهذا المعنى حين قال سبحانه: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾[3]، وذلك في حادثة الإفك، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن ذلك لا يليق بهم، فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى».

- **حمل الكلام على أحسن المحامل**: هكذا كان دأب السلف رضي الله عنهم، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملًا».

---

(١) سنن ابن ماجه: ٣٨٣٠، وسنن أبي داود: ١٥١٠، وقال الألباني: صحيح.

(٢) سورة الحشر: ١٠.

(٣) سورة النور: ١٢.

- **التماس الأعذار للآخرين**: فعند صدور قول أو فعل يسبب لك ضيقًا أو حزنًا حاول أن تجتهد في التماس الأعذار فستريح نفسك من عناء الظن السيئ وستتجنب الإكثار من اللوم لإخوانك، واستحضر حال الصالحين الذين كانوا يحسنون الظن ويلتمسون المعاذير حتى قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التمس لأخيك سبعين عذرًا»، وقال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه».

- **تجنب الحكم على النيات**: لأن النيات محلها القلب ولا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما يبعث الناس على نياتهم**»[1].

- **استحضار آفات سوء الظن، وعدم تزكية نفسه**: فمن ساء ظنه بالناس كان في تعب وهم لا ينقضي فضلًا عن خسارته من يخالطه حتى أقرب الناس إليه، إذ من عادة الناس الخطأ ولو من غير قصد، ثم من آفات سوء الظن أنه يحمل صاحبه على اتهام الآخرين، مع إحسان الظن بنفسه، وهو نوع من تزكية النفس التي نهى الله عنها في كتابه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾[2]، وأنكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على اليهود هذا المسلك: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾[3].

---

(١) سنن ابن ماجه: ٤٢٢٩، وقال الألباني: صحيح.

(٢) سورة النجم: ٣٢.

(٣) سورة النساء: ٤٩.

- **مجاهدة النفس لحملها على حسن الظن**: خاصة وأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، ولا يكاد يفتر عن التفريق بين المؤمنين والتحريش بينهم، وأعظم أسباب قطع الطريق على الشيطان هو إحسان الظن.

ولا يصل أحد إلى مقام حسن الظن إلا إن طهر الله تعالى باطنه من سائر الرذائل إما بالفطرة وإما بالمران.

- **الابتعاد عن مواطن الشبهات والتهم**: ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة؛ فعن صفية بنت حيي قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفًا فأتيته أزوره ليلًا، فحدثته ثم قمت فانقلبت، فقام معي لِيَقْلِبَنِي، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: **على رسلكما، إنها صفية بنت حيي**، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، قال: **إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءًا، أو قال شرًّا**»[1].

فعلينا ألا نقترب من مواطن الشبهات ونستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا كان العمل الصادر عن مسلم يحتمل وجهًا يكون فيه خيرًا، وأكثر من وجه يكون فيها شرًّا، فينبغي حمل هذا العمل على وجه الخير المحتمل.

---

(١) رواه البخاري: رقم ٣٢٨١.



المعراج السابع عشر

حقيقة العبودية

شرف العبودية ينال بالمحبة مع الخضوع

المعراج السابع عشر

العبودية



معنى العبودية:

يقول ابن تيمية: «هي الطاعة مع الخضوع لأمره الشرعي والكوني والاستجابة له سبحانه».

وقيل: «هي الخضوع إلى الإله على وجه التعظيم».

ويقال: «هي التنسك والتذلل».

ويقال: «عبد الله يعبده عبادة: أي تألّه له، وتنسك وانقاد له وخضع وذلّ».

مقام العبودية مقام رفيع لا يُنال بالأمنيات، لكنه مقام يحتاج إلى تعب ونصب، ومجاهدة حتى يصل العبد بقلبه إلى الله ﷻ.

والعبد في أعماله الصالحة يجمع في عبوديته مقاماتٍ عدة، منها مقام صبر، ومقام شكر، ومقام رضا، ومقام افتقار، ومقام تذلل وخضوع لله رب العالمين.

ويقول كذلك ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريفها:- «هي اسم يجمع كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته».

لا يمكن لعبد أن يحقق العبودية دون المحبة، ولا يمكن لعبد أن يحقق العبودية دون خوف، فهو محتاج إلى الخوف والرجاء.

كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلب في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة

الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر».

إن الله عَزَّوَجَلَّ فطر الخلق على الإقرار بربوبيته، فمؤمنهم وكافرهم، برّهم وفاجرهم معترف بوجود الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن أين هم من عبوديته؟

قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[1].

فالحمد لله الذي دل العباد إليه، وأدخلهم عليه من باب عبوديته، والخضوع بين يديه وإظهار الافتقار إليه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عرف الله أحبه على قدر معرفته به، وخافه ورجاه وتوكل عليه وأناب إليه ولهج بذكره، واشتاق للقائه واستحيا منه وأجلّه وعظّمه على قدر معرفته به».

فتأمل حالك من هذا المقام الذي ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى.

العبودية درجة عالية ومنزلة رفيعة، وكلما ازداد العبد في العبادة ترقى في مقام العبودية، ومن هنا يعلم الفرق بين العبادة والعبودية.

وكفى بمقام العبودية فخرًا أنها سمة وسم بها الصالحون من الخلق، فقال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾[3].

---

(١) سورة مريم: ٩٣.

(٢) سورة الفرقان: ٦٣.

(٣) سورة الزمر: ١٨.

هذه بعض أفعالهم وبعض قرباتهم التي أوصلتهم إلى مقام العبودية، بل إن أهل العبودية سابقون إلى ربهم بالطاعات، قال تعالى عنهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾[1].

فهم مقربون بفضله وإحسانه وبحبّه لهم، ولم يقل: متقربون، ففيه إظهار للفاقة والحاجة، والبراءة من الحول والقوة إلا حول الله وقوته.

وليعلم أن مدار العبودية في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾[2].

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، وقدم العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتمامًا بتقديم حقه تعالى على حق عبده.

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة. والاستعانة هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هي الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصودًا بها وجه الله، فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر الاستعانة بعد {العبادة} مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي[3].

(١) سورة الواقعة: ١٠-١٤.

(٢) سورة الفاتحة: ٥.

(٣) تفسير السعدي (ص: ٣٩).

لمَ الحديث عن حقيقة العبودية؟!..

* لأن تكون عبدًا لله كما أمر فليس أشرف ولا أرفع من هذه المنزلة، فالتذلل بين يدي الله منتهى العز، والخضوع أمام سلطانه قمة العظمة، والخوف من قهره وانتقامه منبع الأمن، والبكاء من خشيته مبعث الصدق معه، وذلك كله لا يكون إلا لله، فهو وحده المستحق للعبادة بلا منازع أو شريك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾[1].

* ولأن العبودية لله هي اختيار الله للناس، إذ إنها غاية وجودهم، ومن أجلها خلقهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾[2]، والعبادة هنا لا تعني أداء أركان الدين فقط، ولكن تتسع لتشمل كل عمل صغير أو كبير يُقصد به وجه الله تعالى، وبالتالي يصبح المرء عبدًا لله في كل لحظة من عمره، وذاك هو المعنى الكبير والشامل للعبادة، بما يؤكد أن التمتع بنعم الله على نحو ما أراد الله يُعد عبادة، وعليه فكل عادة يمكن أن تتحول إلى عبادة، متى أخلص المرء نيته لله، ومن ثم فإن التزام الخلق باختيار الخالق لهم يحقق لهم نعيم الدنيا، كما يحقق لهم نعيم الآخرة، في آن واحد.

* ولأن الله ﷻ قلد رسوله محمدًا ﷺ وسام العبودية في أعظم المواطن وأجلها، ففي مقام رحلة الإسراء -وهو من الأحداث المهمة والمؤثرة في التاريخ الإسلامي- أسبغ الله على رسوله نعمة «العبودية

(١) سورة البينة:٥.

(٢) سورة الذاريات:٥٦.

له» ويا لها من نعمة، فقال جل وعلا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[1] وفي مقام الوحي وهو أمر جلل أفاء الله على رسوله بنعمة «العبودية»، فقال سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾[2]، وفي مقام الدعوة والبلاغ عن الله وهب الله رسوله نعمة «العبودية»، فقال جل شأنه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾[3]، وفي مقام تحدي أهل مكة في أبرز ملكاتهم ومواهبهم امتن الله على رسوله بنعمة «العبودية»، فقال عز من قائل: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾[4].

* ولأن الأنبياء وهم صفوة الله من الخلق وصفهم الله بصفة العباد، حين تحدث عنهم القرآن في مقام الذكر، فإذا كان الناس يذكرون بأفضل صفاتهم، فإن أفضل ما يُذكر به الأنبياء هو كونهم عبادًا لله، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾[5].

قال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد.

---

(١) سورة الإسراء: ١.

(٢) سورة النجم: ١٠.

(٣) سورة الجن: ١٩.

(٤) سورة البقرة: ٢٣.

(٥) سورة ص: ٤٥.

قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن عبدالرحمن الراجحي:

هذه المقالة مقالة الملاحدة والزنادقة، والعبادة لا تكون إلا بالحب والخوف والرجاء، فلابد من أن يعبد الإنسان ربه حبًّا وخوفًا ورجاء، كما أخبر الله تعالى بذلك عن أنبيائه ورسله الذين هم أفضل وأخص الناس وأعرفهم بالله.

قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[1].

وقال في وصف عباده المتقين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[2].

أنواع العبودية:

العبودية نوعان: عامة وخاصة:

أ- **فالعبودية العامة:**

هي عبودية القهر والتسخير والملك والتسيير، وهذه تعمّ جميع الخلق مكلّفهم وغير مكلفهم، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم.

ب- **والعبودية الخاصة:**

هي عبودية التأله والطاعة والمحبة وهذه خاصة بعباد الله المؤمنين، الذين استجابوا لداعي الله، وهم المقصودون في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ

(١) سورة الأنبياء: ٩٠.

(٢) سورة السجدة: ١٦.

عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[1] وقوله: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[2].

فهذه العبودية هي صفة قلبية إيمانية، وعمل وتقرب إلى الله تعالى، وحقيقة هذه العبودية الخضوع لأمر الله الشرعي، رغبة ورهبة، ومحبة وتعظيمًا للمعبود الحق الذي عرفه عباده فآمنوا به وخضعوا له، وذلّوا لعظمته، وانقادوا لأمره طائعين مختارين، فهي أخص من الأولى، وأصحابها هم المؤمنون العابدون، الطائعون عن اختيار ومحبة.

وهذه العبودية هي مناط الكفر والإيمان، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾[3].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة؛ لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع. يقال: طريق معبد، إذا كان مذللًا بوطء الأقدام، فأولياؤه خضعوا له وذلوا طوعًا واختيارًا وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا (في حياتهم ومماتهم والأقدار التي تجري عليهم وغير ذلك)؛ فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته».

وهذه العبودية الخاصة يتفاضل العباد في تحقيقها والارتقاء في درجاتها تفاضلًا كبيرًا.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن العبد يراد به المعبّد الذي عبّده الله فذلّله ودبره

---

(١) سورة الحجر:٤٢.

(٢) سورة الزخرف:٦٨.

(٣) سورة الزمر:٢.

وصرفه، وبهذا الاعتبار فالمخلوقون كلهم عباد الله، الأبرار منهم والفجار، والمؤمنون والكفار، وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم لا يخرجون عن مشيئته وقدرته، وكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، فما شاء كان وإن لم يشاءوا، وما شاءوا إن لم يشأه لم يكن، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ (١)، ومثل هذه العبودية لا تفرّق بين أهل الجنة وأهل النار، ولا يصير بها الرجل مؤمنًا... والمعنى الثاني من معنى العبد، وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابدًا لله لا يعبد إلا إياه، فيطيع أمره وأمر رسله، ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين ويعادي أعداءه، وهذه العبادة متعلقة بألوهيته، ولهذا كان عنوان التوحيد (لا إله إلا الله)، بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبده أو يعبد معه إلهًا آخر، وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها وبها وصف المصطفَيْنَ من عباده وبها بعث رسله، وأما العبد بمعنى المعبَّد سواء أقر بذلك أو أنكره فهذا المعنى يشترك فيه المؤمن والكافر.

قال ابن جرير في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ (٢) وأولى معاني القنوت في قوله: «كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ» الطاعة والإقرار لله عَزَّوَجَلَّ بالعبودية بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة، والدلالة على وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الله تعالى ذكره بارئها وخالقها، وذلك أن الله ﷻ كذّب الذين زعموا أن لله ولدًا بقوله: {بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ} ملكًا وخلقًا، ثم أخبر عن جميع ما في السموات

(١) سورة آل عمران:٨٣

(٢) سورة البقرة:١١٦.

والأرض أنها مقرة بدلالتها على ربها وخالقها، وأن الله ﷻ بارئها وصانعها، وإن جحد ذلك بعضهم فألسنتهم مذعنة له بالطاعة بشهادتها له بآثار الصنعة التي فيها بذلك، وأن المسيح أحدهم، فأنى يكون لله ولدًا وهذه صفته؟ وقال الله ﷻ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فذكر إسلام الكائنات طوعًا وكرهًا؛ لأن المخلوقات جميعها متعبّدةٌ له التعبد العام، سواءٌ أقر المقر بذلك أو أنكره، وهم مدينون له مُدبَّرون، فهم مسلمون له طوعًا وكرهًا، ليس لأحد من المخلوقات خروجٌ عما شاءه وقدّره وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو رب العالمين ومليكهم، يُصرّفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلّهم، وبارئهم ومُصورهم، وكل ما سواه فهو مربوب مصنوعٌ مفطورٌ، فقيرٌ محتاجٌ معبَّد مقهورٌ، وهو ﷻ الواحد القهار الخالق البارئ المصوّر[2].

فضائل العبودية:

لقد أجزل الله الفضل لعباده الموحدين الذين أخلصوا العبودية لله تعالى، ولم يشركوا معه أحدًا سواه، وأعد لهم الثواب العظيم في الدنيا والآخرة، وذلك حسب عبوديتهم له، وإتمامهم لها، وإحسانهم فيها.

ومن تلك الفضائل:

- **استجابة دعائهم**: كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى

(١) العبودية (ص: ١٠٤).

(٢) سورة آل عمران: ٨٣.

لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[1] ومن عباد الله من بلغ مراتب عالية في عبوديته حتى قال رسول الله ﷺ في مثل هؤلاء: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه»[2].

- **حفظهم من غواية الشيطان:** كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾[3] قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد بين أن عباده المخلصين هم الذين يجتنبون السيئات التي زينها الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[4].
- **قبول توبة المسيء منهم:** ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾[5].
- **ابتلاؤهم لمحو ذنوبهم:** كما في الحديث القدسي أنه ﷺ قال: قال الله تعالى: «إذا ابتليت عبدًا فحمدني وصبر على ما بليته، فإنه يقوم من مضجعه ذلك اليوم كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الرب عَزَّوَجَلَّ للحفظة: إني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته، فأجْرُوا له ما كنتم تجرون له من قبل ذلك من الأجر وهو صحيح»[6].
- **حبه تعالى لعباده المؤمنين:** قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا**

---

(١) سورة البقرة:١٨٦.

(٢) صحيح البخاري:٢٧٠٣، وصحيح مسلم: ١٦٧٥.

(٣) سورة الحجر:٤٢.

(٤) سورة الحجر:٣٩-٤٠.

(٥) سورة الشورى:٢٥.

(٦) المعجم الكبير للطبراني: ٧١٣٦.

أَحبَّ عَبْدًا قَالَ لجبْريلَ عَلَيْه السَّلامُ: إنِّي أُحبُّ فُلانًا فَأَحبَّهُ، قَالَ: فَيَقُولُ جبْريلُ عَلَيْه السَّلامُ لأَهْل السَّمَاء: إنَّ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ يُحبُّ فُلانًا فَأَحبُّوهُ، قَال: فَيُحبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لهُ الْقَبُول في الأرض»[1].

- **تقربه ﷻ إليهم**: كما جاء في الحديث القدسي: «**يَقُول الله عزَّ وَجَلَّ: إنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إلَيْه ذرَاعًا، وَإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ منهُ بَاعًا، وَإنْ أَتَاني يَمْشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَة**»[2].

وأما وعده لهم: فقال: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾[3].

آداب العبودية:

الإخلاص والاتباع: قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[4] قال: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنّة».

الشعور بالتقصير: فأهل العبودية يشعرون بتقصيرهم في حق ربهم مهما كثرت طاعتهم، وعظُمت قرباتهم، ذلك لأنهم ينظرون إلى نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، ويعلمون أن تلك الطاعة إنما هي بفضل الله وتوفيقه، وإعانته وتسديده، وهذا الشعور بالتقصير جعلهم يحتقرون أنفسهم في ذات الله.

---

(١) صحيح البخاري: ٧٤٨٥، وصحيح مسلم: ٢٦٣٧

(٢) صحيح البخاري: ٧٤٠٥، وصحيح مسلم: ١٢٦٧٥.

(٣) سورة مريم:٦٣.

(٤) سورة الملك:٢.

الخوف من عدم القبول: مع أنهم يسارعون في الطاعات، ويبادرون إليها، ولكنهم ما بين خوف من أنفسهم ورجاء لفضل ربهم لذا قال عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1] وحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: يا رسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال: «**لا يا بنت الصديق، هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه**»[2].

واحذر من تلبيس إبليس وود لو ظفر منك بعد الطاعات ليحرمك الفرح بها والمبالغة بالشكر لمن أعانك عليها فيقول لك: لن يُقبل منك لقد رُددت؛ ليذهب بعبادة قلبك وتذللـه وخضوعه، فقل: من الذي هداني؟ من الذي أعانني؟ من الذي يسر لي؟ إنه الله عَزَّوَجَلَّ وهو الشكور الكريم الغني فلماذا لا يقبل منك وقد ابتدأك بالإحسان جل جلاله.

والسلف إنما كانوا يتهمون أنفسهم ولا يسيئون الظن بربهم.

- **كثرة الاستغفار والإقرار بالعبودية لله:** في آداب أهل العبودية كثرة استغفارهم حتى قال سيدهم وإمامهم ﷺ: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[3].

- **الرضا بالله والتسليم له:** قال ﷺ « **ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولا**»[4].

---

(١) سورة المؤمنون: ٦٠.

(٢) مسند أحمد: ٢٥٢٦٣، وسنن ابن ماجه: ٤١٩٨، وسنن الترمذي: ٣١٧٥.

(٣) صحيح البخاري: ٦٣٠٧.

(٤) صحيح مسلم: ٣٤.

تحقيق العبودية:

التحقيق: تفعيل من حقق الشيء تحقيقًا.

ويقال: بلغ حقيقة الأمر إذا بلغ يقين شأنه، وفي الحديث: «**لا يستكمل أحدكم حقيقة الإيمان حتى يخزن لسانه**»(١). يعني خالص الإيمان وكماله.

كذلك قول النبي ﷺ للحارث: «**لكل حقّ حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**».

وهذا الحديث جزء من حديث معضل، يستأنس هنا بدلالة لفظه في توضيح معنى التحقيق ونصه «عن صالح بن مسمار أن رسول الله ﷺ قال للحارث بن مالك:كيف أصبحت يا حارث بن مالك؟ قال: من المؤمنين، قال: أعلم ما تقول، قال: مؤمن حقًّا، قال: فإن لكل حق حقيقة فما حقيقة ذلك؟ قال: أظمأت نهاري وأسهرت ليلي وعزفت عن الدنيا حتى كأني أنظر إلى العرش حين يجاء به، وكأني أنظر إلى عواء أهل النار في النار وتزاور أهل الجنة في الجنة، قال: مؤمن نوّر الله قلبه».

وبين ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك بقوله: «مدار الدين على النصح في العبودية، وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له».

ما حقيقة العبودية وكيف نصل إليها؟!

حقيقة العبودية أمر عظيم ولن نصل إليه إلا بالمحبة المشروعة التي تبعث على تحقيق العبودية بالتزام الأمر والنهي، أما المحبة التي يزعم بها العبد ارتفاعه عن العبودية وسقوط تكاليف الأمر والنهي عنه، فهي غاية التلبيس ومنتهى مراد إبليس.

(١) السلسلة الضعيفة: ٢٠٢٧.

وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤكد على أهمية الحب الصحيح الذي يُخضِع صاحبه لله عَزَّوَجَلَّ: «حقيقة العبودية: الحب التام مع الذل التام والخضوع للمحبوب».

وأكد على أهمية التذلل لله عَزَّوَجَلَّ بقوله: «إن مقام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد، وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلًّا وانقيادًا وطاعة».

فالعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذّل؛ فهو ذليل لقهره، وذليل لربوبيته فيه وتصرفه، وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه، فإن من أحسن إليك فقد استعبدك وصار قلبك معبدًا له وذليلًا تعبد له لحاجته إليه على مدى الأنفاس في جلب كل ما ينفعه ودفع كل ما يضره.

كيف تتحقق العبودية؟!

أعظم المواطن التي تتحقق فيها العبودية هي عند اتباع الأمر والنهي فعندها تتبين حقيقة العبودية والمحبة.

يقول ابن القيم: «الخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية من الله تعالى».

انظر للخشوع كيف هو حال ملازم للعبد في يومه كله، في مشيه، في صوته، في معاملته.

وتحقيق العبودية أمر يشترك فيه القلب واللسان وسائر الجوارح، فلكل عضو عبودية خاصة به، بتكميلها يبرهن على محبته الصادقة، وخضوعه التام، ويكون بذلك عبدًا حقًّا لله رب العالمين.

ومن العبودية خشية الله تعالى التي مستقرها القلب واللسان والجوارح كلها، أما الخوف فهو في القلب، والرهب في العقل.

فتأمل بماذا اختص الله أهل طاعته!!

ومراتب العباد في تحقيق العبودية في حياتهم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى؛ ولهذا التفاوت بين العباد أسباب جعلتهم يتفاوتون في أداء العبودية لله عَزَّوَجَلَّ وإليك معينات العبد على تحقيق العبودية:

- **تجريد التوحيد**: التوحيد هو مفتاح دار العبودية التي لا يفتح بابها إلا به، ولا يلج إليها إلا من خلاله؛ ولهذا كان التوحيد أول دعوة الرسل جميعًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1] والعبد يرتقي في مدارج العبودية كلما كمل توحيده علمًا وعملًا ودعوة واجتهادًا وجهادًا، وخلص توحيده من لوثات الشرك وآفات البدع، وجمع في قلبه توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

- **العلم**: وهو السلّم الذي يرتقي به العبد في مدارج العبودية، وكلما ازداد علمًا وعملًا ازدادت عبوديته لله، وخشيته له، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2] نص على الخشية لأنها تستوعب الجوارح كلها ومنها القلب، أما الخوف فلا يكون إلا في القلب، والرهبة لا تكون إلا بالعقل.. فسبحان من اختار أهل طاعته وجعلهم أخشاهم له، ففضل العالم العامل عظيم؛ لعلو مرتبة عبوديته، فيستغفر له من في السموات ومن في الأرض، لذا قال ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب،**

---

(١) سورة النحل:٣٦.

(٢) سورة فاطر:٢٨.

وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1].

- **الدعوة إلى الله**: وهي من أجلّ الطاعات التي تعزز العبودية في القلب، وتقوي الإيمان وتثبت الأقدام، ولهذا كانت الدعوة مهمة الأنبياء وسبيل الأتباع الأتقياء ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[2] وبهذا يعيش المسلم عبودية تصله بأمته، ينشر الخير فيها، ويحبب الحق إليها.

- **القيام بالواجبات والإكثار من المستحبات**: من أعظم أسباب الوصول إلى كمال العبودية محافظة العبد على ما افترضه الله عليه والإكثار مما حثّه إليه مما يحبّه الله ورسوله ﷺ، وقد جاء في الحديث القدسي: قال الله تعالى: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته**»[3].

- **فقه النية**: باستحضار النية في الأعمال كلّها وتصحيحها وإخلاصها لله وحده، مما يحيي العبودية في الجنان، ويقوي حضورها في الكيان،

(١) سنن ابن ماجه: ٢٢٣، وسنن أبي داود: ٣٦٤١، وسنن الترمذي: ٢٦٨٢.
(٢) سورة يوسف:١٠٨.
(٣) صحيح البخاري: ٦٥٠٢.

ويحول العادات إلى عبادات، والمباحات إلى مستحبات، قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»(١).

- **الدعاء**: الدعاء حقيقة معنى العبودية القائم على المحبة والذل والخضوع؛ ولهذا فإن أهل العبودية من أكثر الخلق دعاءً وأعظمهم ابتهالاً، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾(٢).
- **مصاحبة أهل العبودية**: الذين برؤيتهم يزداد الإيمان، إذا رؤوا ذُكِر الله، بصحبتهم تحيا القلوب، وتزكو النفوس، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾(٣).

أقسام العبودية:

تقسم العبودية بحسب جهتها ومتعلقها من الجوارح لأقسام ثلاثة:

١- عبودية القلب.

٢- عبودية اللسان.

٣- عبودية باقي الجوارح.

قال ابن القيم: « العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه».

وأعظم أقسامها عبودية القلب؛ ولذا خصت بالذكر وقدمت على سائر

---

(١) صحيح البخاري: ١، وصحيح مسلم: ١٩٠٧.

(٢) سورة الأنبياء: ٩٠.

(٣) سورة العصر: ١-٣.

أقسام العبودية لأنها أصل لعبودية الجوارح، وقد علق الله النجاة يوم القيامة على صلاح القلب وسلامته من الشرك فقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1] فصلاح سائر الجسد وسلامته متعلق به، دل على ذلك حديث رسول الله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[2].

فالقلب أصل مكان الاستقامة والتقوى، بين ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**التقوى ها هنا**» ويشير إلى صدره ثلاث مرات[3].

كذلك القلب هو مستقر الإيمان؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف المؤمنين الصادقين: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[4].

وغاية الخسارة أن يصاب القلب بالمرض، قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾[5].

وبين رسول الله ﷺ أن القلب هو محل نظر الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[6].

ويتضمن هذا البيان ندبًا إلى الاهتمام بما يصلح القلب ويحقق عبوديته ويزينه ويجمله، ورأس هذا معرفة أسماء الله وصفاته واعتقاد وحدانيته وإلهيته التي تبعث على طاعته وإفراده بالعبادة الباطنة منها والظاهرة.

---

(١) سورة الشعراء: ٨٩.

(٢) السلسلة الصحيحة.

(٣) السلسلة الصحيحة.

(٤) سورة المجادلة: ٢٢.

(٥) سورة البقرة: ١٠.

(٦) صحيح مسلم: ٢٥٦٤.

كذلك خصت عبودية اللسان بالذكر وأفردت عن عبودية باقي الجوارح لكون اللسان هو المترجم الأول لما في القلب، كما أن القول الذي هو عمل اللسان، أسهل وأسبق من عمل سائر الجوارح، ولهذا حذر الله عَزَّوَجَلَّ من تبعة القول، فقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[1].

كما بين رسول الله ﷺ أهمية القول وعلاقته بالإيمان بقوله: «**من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[2]، وأوضح خطورته بقوله لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « **وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم**»[3].

فحذر النبي ﷺ من آفات اللسان ومزالق القول، كما ندب إلى استعماله في الخير أو كفّه والصمت.

أما العبادات المتعلقة باللسان والتي بها يكتسب صفة العبودية، فمنها ما هو واجب الفعل: كالشهادتين التي يتوقف عليها صحة دخول صاحبها في الإسلام، وكذا الأذكار الواجبة للصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهل وأداء الشهادة وصدق الحديث وغيرها.

ومنها ما هو مستحب: كدوام قراءة القرآن، والإلحاح في الدعاء، والإكثار من ذكر الله من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير.

ومنها ما هو واجب الترك: كالشرك كبيره وصغيره، ثم القول ببدعة، أو كذب أو فحش أو غيبة أو نميمة.

بل إن من أهمية تحقيق عبودية اللسان، أنه إذا نطق هذا اللسان بما يجب

(١) سورة ق: ١٨.

(٢) صحيح البخاري: ٦٠١٨، وصحيح مسلم: ٤٧.

(٣) سنن ابن ماجه: ٣٩٧٣، وسنن الترمذي: ٢٦١٦، السلسلة الصحيحة: ٣٢٨٤.

عليه، واستزاد من الأقوال المستحبة، وحذر من المحرمات ترقى في درجات العبودية.

أما عبودية سائر الجوارح كالأذن والعين واليد والرجل فهي التقوى في السر والعلن، ومن أنواع العبادة التي تشترك الجوارح كلها أو أكثرها في إقامته: في الصلاة تظهر أنواع من العبادات القلبية من محبة وخوف ورجاء وتعظيم ومهابة، وأنواع من عبادات اللسان بين تكبير وقراءة القرآن وتسبيح وتحميد، وتتحرك اليدان والرجلان حركات مخصوصة، وفي الصيام والحج والزكاة والجهاد كذلك.

من هنا كانت للعبودية درجات يرتقي فيها العباد بحسب ما يحققون من عبودية القلب واللسان وسائر الجوارح، من واجبات مستحقة أو كمالات مستحبّة.

درجات العباد في تحقيق العبودية:

أصل التفاوت إنما هو في تحقيق عبودية القلب، وأول عبادة قلبية: معرفة الله ﷻ واعتقاد كماله كما دلت عليه أسماؤه وصفاته.

والعباد في هذه المعرفة درجات، ذلك لأن ألوهية الله متفاوتة في القلوب على درجات عظيمة تزيد وتنقص.

وتفاوت قلوبهم في معرفة الله، يجعلهم يتفاوتون في حبهم وخوفهم ورجائهم، ومن ثم يتفاوتون في القيام بمقتضيات العبودية وأداء الطاعات وإن كانوا يشتركون جميعًا في الطاعة العامة: إذ منهم من يقوم بالحد الأدنى، والآخر بالحد الأقصى الذي يطيقه، ومنهم المتوسط في ذلك، ومثال ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ

﴿ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾[1].

فبين ﷻ أن أهل هذه الدرجات كلهم من عباد الله الذين اصطفاهم لعبادته، فدل ذلك أن العباد المصطفين ليسوا درجة واحدة، بل هم درجات كثيرة متباينة في أعمال القلوب والأبدان، والآية تجعل هذه الدرجات متفرعة حول ثلاث درجات رئيسية:

أدناها: الظالم لنفسه:

وهو الذي يظلم نفسه بارتكاب المعاصي والآثام التي هي دون الكفر، فهذه الدرجة درجة الذين أدوا جانبًا من العبودية، ولكنهم كثيرًا ما يميلون إلى المعاصي، ويتبعون غواية الشيطان، ويغفلون عن بعض مقتضيات أسماء الله وصفاته، فيظلمون أنفسهم بما يقترفون من الذنوب، وبما يفرطون في جنب الله، فقلوبهم غفلت عن مقتضى العبودية الحقة، وعن كثير من حق الألوهية.

يا أيها الظالم لنفسه.. تأمل ما قاله الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾[2].

قال: يا ابن آدم، إنما هذه الدنيا غدوة أو روحة أما تصبر عن المعصية!!

فمن هؤلاء الظالم لنفسه من يعبد الله بأسمائه وصفاته الدالة على غناه وعفوه ومغفرته، وحلمه وتجاوزه فيمتلئ قلبه بحسن الظن بالله، وعظيم الرجاء في مغفرته ما يجعله ذليلًا مفتقرًا إلى ربه، داعيًا راجيًا من جوده وكرمه، وبقدر ما

---

(١) سورة فاطر:٣٢.

(٢) سورة النازعات:٤٦.

يصدق في طلبه، ويكثر من عمله يرتفع في عبوديته عن درجة الظالم لنفسه.

وأعظم القلوب وأحبها إلى الله قلب رضي عن ربه، وأحبه وأحب أمره، فأحسن الظن بربك وعامله ﷻ بحسن الظن في قدره وشرعه وفي أفعاله لأنه لو كُشف للعبد القدر والحكمة لمنع السوء عنه لحمد الله وشكره حتى يستنفد ذلك الشكر يومه وحاله.

أوسطها: درجة المقتصد:

وهو الذي يقيم الفرائض ويجتنب الكبائر وكثيرًا من الصغائر وحظه من النوافل قليل، فهو غير مجتهد في عبادة ربه، بل عمله في ذلك قصدٌ.

ومثال هؤلاء ذلك الرجل الذي سأل الرسول ﷺ عن الإسلام فأخبره بالشرائع فقال: والذي أكرمك بالحق لا أتطوع شيئًا ولا أنقص مما فرض الله علي شيئًا، فقال الرسول ﷺ: «**أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق**»[1].

وأصحاب هذه الدرجة معرفتهم بأسماء ربهم وصفاته أكثر من سابقيهم، وغفلتهم عن مقتضيات تعبدهم بها أقل منهم، ومن ثم فعبوديتهم لله أتم، إذ كلما ازداد علم العبد ومعرفته بأسماء الله وصفاته ارتفع درجة في التعبد، وهم يجمعون بين الرغبة والرهبة، لا تحجبهم عبودية من عبودية، ولهذا اتقوا المعاصي والسيئات، وتقربوا إلى الله بما افترضه عليهم، فكانوا بذلك أرفع درجة من الظالمين لأنفسهم، إلا أنهم لم يأتوا بمنتهى القربات فلم يجمعوا مع الفرائض النوافل والمستحبات، وإنما اقتصروا على ما افترضه الله عليهم، وانتهوا عما نهاهم عنه، وليعلم هؤلاء أنه ما تأمل عبدٌ أملًا إلا كان الله أكرم من أمله.

---

(١) صحيح البخاري: ١٨٩١، وصحيح مسلم: ١١

أما أعلى درجات العبودية:

فهي درجة السابق بالخيرات -جعلنا الله منهم:

فالسابقون بالخيرات هم الذين تقربوا إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ففعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات، فهم يتتبعون محبوبات الله ﷻ ليفعلوها موافقين له فيما أوجبه وأحبه، وأولئك أراد الله أن يغمر قلوبهم بألوان العطاء لأنهم حققوا الافتقار التام بين يدي الله سبحانه.

وأصحاب هذه الدرجة عظمت في قلوبهم معرفة الله عَزَّوَجَلَّ؛ عرفوه بصفات ربوبيته فتذللوا إليه، وافتقروا إلى جنابه، وتوكلوا عليه، راجين رحمته، خائفين من عذابه، وعرفوه بصفات ألوهيته، فأحبوه واشتاقوا إلى لقائه، وتنافسوا في التودد إليه، واللهج بذكره، والسرور بطاعته، فسبقوا إلى ما دعاهم الله إليه، وشقوا الغبار في طلب مرضاته، مؤثرين محابه على محابهم؛ فجمعوا بتذلل العبودية أنواع الطاعات والقربات سواء كانت من أعمال القلوب أو أقوال اللسان أو أفعال الجوارح.

وهذه درجة الكمّل من عباد الله الذين استجابوا للدعوة الإلهية في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1] فإنه ﷻ يدعو عباده أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

وكلما زادت معرفتهم بأسمائه وصفاته عَزَّوَجَلَّ؛ عظمت محبتهم له، واشتد خوفهم من سخطه، وقوي رجاؤهم في فضله؛ فارتفعت بذلك وآثاره درجتهم.

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٠.

وهؤلاء السابقون في هذا السبق متفاوتون أيضًا كخيل الحلبة، بحسب ما جمعوا من الخيرات والأعمال الصالحة، فأعلاهم درجة الأنبياء فالصديقون فالشهداء فالصالحون، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾[1] فهم في الجنة درجات، كما هم في الدنيا درجات، بحسب ما احتوت صدورهم عليه من الحب والتعظيم للمعبود الحق ﷻ، وبحسب فضل الله عليهم أولًا وآخرًا، ومن أعلى درجاتهم درجة أهل التعبد المطلق الذين قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصفهم: «وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق.. والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت».

ورسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة كما يتراءون الكوكب الدري الغارب في أفق السماء إذا تطالع في تفاضل الدرجات، قالوا: يا رسول الله أولئك النبيون؟ قال: بلى، والذي نفس محمد بيده أقوام آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين**».

وقول تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾[2].

فقد شرفهم الله بهذه الولاية لتتبعهم محابه فجمعوا مع امتثال الأمر بأداء

---

(١) سورة النساء: ٦٩.

(٢) سورة يونس: ٦٢ - ٦٤.

الفرض وتعظيمه، أداء النوافل إيثارًا لرضا ربهم فجازاهم بالمحبة التي هي غاية مطلوبهم.

وتجد أنه ليس لكل درجة من هذه الدرجات أهل لها لا يتجاوزونها لأعلى منها، ولا ينزلون عنها لأدنى منها، بل السعي لتحقيق الكمال فيها هو كمال العبودية واعترافه بعظمة الربوبية وإظهاره لذل العبودية.

والعبد قد يحقق درجة منها، ثم ما يلبث أن ينزل درجات إذا ما اشتدت غفلته عن مقتضيات أسماء الله وصفاته، ثم هو قد يرتقي درجات إذا قويت بالله معرفته وعلت همته لنيل مرضاة الرب مع استعانة وتضرع..

ليرَ الله من نفسك انطراحًا بين يديه وتقربًا إليه وأظهِرْ حاجتك وفاقتك، فالعباد متقلبون في هذه الدرجات، متفاوتون في نصيبهم منها.

فإلى كل مكروب ومهموم ترقى في درجات العبودية، كيف تحزن وربك الله؟ كيف تحزن وقد رعاك في أضعف حالاتك يوم أن كنت جنينًا، ثم طفلًا رضيعًا؟ من الذي هداك؟ من الذي عافاك؟ أليس هو الله!!!!

أتجزع لمصيبة يوم أو لحزن ساعة؟؟.

أكمل العباد تحقيقًا للعبودية:

يرتقي عباد الله في درجات العبودية بحسب نصحهم فيها وسعيهم في تحقيقها، وأهل الكمال في ذلك الذين سبقت لهم من الله الحسنى يتبوءون منها أرفعها بما ينالونه من معرفة ربهم، وإقبالهم على مرضاته، مصداق قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ

(١) سورة العنكبوت:٦٩.

هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ [1] فيزيدهم محبة له وتعظيمًا لقدره عَزَّوَجَلَّ، وأكمل الخلق وأفضلهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم: أتمهم عبودية لله من هذا الوجه؛ وجه كمال المعرفة وكمال المحبة، التي هي أصل تحقيق العبودية.

عرف هذه الحقيقة أصحاب محمد ﷺ وسلف هذه الأمة، فباعوا أنفسهم لله، وجعلوا حياتهم كلها لله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [2].

هذا محمد ﷺ يتشرف بعبوديته لله -وهو أشرف الأنبياء والمرسلين وسيدنا ولا فخر- ويمدحه الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن بالعبودية في أشرف أحواله فيقول عنه سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [3] ويقول عنه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [4]، ويقول أيضًا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [5] فكان محمد ﷺ أعبد الناس لله، وأشد الناس خشية لله، بل كان لا يجد الراحة والطمأنينة واللذة إلا في عبودية ربه سبحانه، فكان يقول: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**» [6]، وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول لمؤذنه بلال بن رباح: «أرحنا بها يا بلال»، كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، وتتشقق رجلاه من طول القيام، فيقال له: هون

---

(١) سورة محمد:١٧.

(٢) سورة الأنعام:١٦٢.

(٣) سورة الإسراء:١.

(٤) سورة الجن:١٩.

(٥) سورة الفرقان:١.

(٦) سنن النسائي: (٣٩٣٩)، وأحمد: (١٤٠٦٩) واللفظ له.

على نفسك فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيقول: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!!**». يصوم الأيام الشديدة الحر، بل يواصل الليل بالنهار، بل يواصل اليوم باليومين وبالثلاثة، فأراد بعض الصحابة أن يواصلوا فنهاهم الرسول عن ذلك وقال لهم: «**لا، إنكم لستم كهيئتي، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**» لا يطعمه ولا يسقيه شرابًا وإنما حكمًا ومعارفَ وفتوحات ربانية وإلهامات إلهية.

إن هذه والله هي الحياة، حياة الركعات، حياة السجدات، حياة الخضوع والتذلل والخشوع بين يدي رب البريات.

ومن هؤلاء العباد مؤمن آل فرعون، كان هذا الرجل من حاشية فرعون المقربين؛ فآمن بموسى، وكتم إيمانه، وأصبح جنديًّا وفيًّا لدينه ورسوله، يدافع عنه ما استطاع.

فلما سمع أن فرعون يريد قتل موسى، تحرك هذا الرجل المؤمن بين الناس يخوفهم من عاقبة ذلك، ويحذرهم بأس الله عَزَّوَجَلَّ أن يصيبهم بتكذيبهم موسى وإعراضهم عن الحق بأسلوب حكيم، وكأنه واحد منهم خائف عليهم وشفيق بهم، ولكن فرعون وقومه ما زادهم ذلك إلا استكبارًا وجحودًا.

وامرأة فرعون: وهي آسية بنت مزاحم، إحدى النساء اللاتي كملن، آمنت بما جاء به موسى عليه السلام، ورأت الآيات على صدقه وصدق دعوته، وعرفته عن كثب، حيث تربى في كنفها، ولم تجرب عليه كذبًا، وصدها فرعون عن عبادة إله موسى عليه السلام، وغضب غضبًا شديدًا إذ اتخذت إلهًا غيره، وعذبها على إيمانها برب العالمين، فهددها وخيّرها بين الموت وبين الكفر برب موسى، ولكنها أصرت على الإيمان بالله وحده، فتحررت من عبودية فرعون، فألقى الله تعالى في قلبها

الثبات والصبر على صنيع فرعون وجنوده، فقال تعالى مخبرًا عنها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾[1] فأجاب الله تعالى دعاءها، وأخذ روحها إلى الرفيق الأعلى، فاختارت الجار قبل الدار.

وقبل ذلك عباد الله حقًّا، وأولياؤه المتقون، وعلى رأسهم أنبياء الله ورسله، فعبوديتهم هي عبودية خاصة الخاصة التي لا يستطيع أحد أن يباريهم فيها ولكن نجاهد لعلنا نبلغ بعض ما بلغوا.

تأمل تضرعهم، تأمل عباداتهم، تأمل بكاءهم، تأمل ذكرهم واستغفارهم، تأمل كمال خلقهم صلوات الله وسلامه عليهم.

وكلما سعى العبد في تقوية معرفته بالله، واستحضار معاني أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وسعى للاهتداء بهدي محمد ﷺ اهتداءً تامًّا، وتشبه بالصحابة الكرام في ذلك، فإن عبوديته لله عَزَّوَجَلَّ تكمل، وهكذا يرتقي العبد في درجات العبودية مرتقى عاليًا، ويمن عليه ﷻ من فضله ما لا يخطر له ببال..

والعبد كلما ذل لله وعظم افتقارًا إليه وخضوعًا له كان أقربَ له، وأعزَّ وأعظم لقدره، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله، يقول النبي ﷺ: «قال الله ﷻ: يا ابن آدم، تفرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسُدَّ فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلًا ولم أسدَّ فقرك»[2].

---

(١) سورة التحريم: ١١.

(٢) صححه الألباني: ١٣٥٩.

المعراج الثامن عشر

فقه الابتلاء

من فقه الابتلاء أن تعلم يقيناً
أن اختيار الله لك خير من اختيارك لنفسك

المعراج الثامن عشر

فقه الابتلاء



معنى الابتلاء:

أصل معنى الابتلاء هو الاختبار، فالابتلاء اختبار من الله تعالى لعبيده، ومع أن الله تعالى يعلم كل ما يقع للعباد قبل وقوعه وبعد وقوعه أيضًا، إلا أن الله يبتلي العباد لتظهر ظهور العيان حقيقة حالهم وما هم عليه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[1] فصار بذلك معنى الابتلاء شاملًا لجميع أحوال الناس، سواء كان ذلك في أمور الخير التي يحبونها، أو في أمور الشر التي يكرهونها، فالخير والنعمة ابتلاء، والشر والمصيبة ابتلاء أيضًا، سواء بسواء، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2] والمعنى أن الله يبتلي العباد بأمور الشر والخير لاختبارهم وامتحانهم، والمرجع والمعاد إلى الله تعالى، فيجازي العباد بعدله أو رحمته وعفوه.

والحديث عن الابتلاء حديث عن حقيقة هذه الحياة الدنيا، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾[3] فالأصل فيها البلاء ولا يسلم منه أحد؛ لأن حقيقة الحياة

---

(١) سورة آل عمران:١٤٢.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٣) سورة الإنسان:٢.

الدنيا تدور حول الابتلاء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾[1]، والابتلاء سنة جارية وقدر نافذ، يبتلي الله عباده بالسراء والضراء والخير والشر، فتنة واختبارًا كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[2]، وليتميز المؤمن من غيره، والصادق من الكاذب، فبالبلاء تتميَّز معادن الناس، فينقسمون إلى مؤمنين صابرين، وإلى مدَّعين أو منافقين، وعلى قدر دين العبد وإيمانه يكون البلاء، والمتأمل للبلاء يجده في حال الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، هذا البلاء العظيم يجعل العبد يقف أمام القضاء والقدر مطمئن البال، قرير العين، مرتاح النفس، لا يكسف له بال، ولا يقلق ولا يندم ولا يتحسَّر، لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فتطمئن النفس من هذا الباب.

وفي المسند عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة»[3].

فوالله لو لم يكن من حقيقة البلاء إلا أن الله يكفر به الخطيئات، ويرفع به الدرجات، لكان حريًّا بالعبد المؤمن أن يفرح به فرح سلفنا الصالح، فيفرح أحدهم بالبلاء كفرحنا بالنعماء، وهذا من فقه الابتلاء.

---

(١) سورة الملك: ٢.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٣) مسند أحمد: ١٤٨١.

ولا يتأتَّى إيمان دون بلاء: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾[1] ومن ظن أنه سيبقى بلا بلاء فقد أخطأ؛ لأن هذه حقيقة الحياة الدنيا.

لمَ الحديث عن فقه الابتلاء؟!

١. الابتلاء ضرورة إيمانية، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾[2] فلا بد أن يمتحن الله أهل الإيمان ويبتليهم حتى يميز الصادق من الكاذب، ولذلك اقتضت حكمة الله -تعالى- البالغة أن نَصَبَ الابتلاء سببًا مفضيًا إلى تمييز الخبيث من الطيب، والشقي من السعيد، ومن يصلح ممن لا يصلح ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[3].

٢. لأن المرء يُبتلى على قدر دينه، وكلما اشتد إيمانه عظم ابتلاؤه، حتى يخلص من شرور نفسه وسيئات أعماله، ويطهر نفسه، ويُظهِر طيب نفسه بكير الامتحان؛ كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بكير النيران، ولذلك قال ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل: يبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه من خطيئة**»[4].

---

(١) سورة العنكبوت:٢.

(٢) سورة العنكبوت:٢.

(٣) سورة آل عمران:١٧٩.

(٤) سبق تخريجه.

٣. الابتلاء سنة من سنن الله الجارية في الأمم الخالية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[1] لكل عبد في هذه الحياة الدنيا نصيبه من البلاء شاء أم أبى، وإذا علِم العبد حقيقة هذه الحياة فلن يخاصم فيها، ولن ينازع في نعيمها، ولن يبكي على ما فاته منها، لأنه يعلم علمًا يقينًا أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، لذلك هو على ثقة أن الله عَزَّوَجَلَّ ما ابتلاه إلا ليختبره؛ لأنه يحبه.

٤. الابتلاء مقدمة التمكين، لما كان الابتلاء ضرورة إيمانية؛ فإن المؤمن يحصل له الألم ابتداء، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، وسئل الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيهما أفضل للرجل أن يُمَكَّن أو يبتلى؟ فقال: لا يُمَكَّن حتى يبتلى، وقد ابتلى الله المؤمنين؛ فلما صبروا مكّنهم في الأرض واستخلفهم ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2]، ولا يشترط للتمكين أن يوصل العبد معه إلى الملك، لأن أعظم تمكين أن يوفقك الله بالاشتغال بكتابه حفظًا وتدبرًا وعملًا، وأن يرزقك الرضا عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والسرور بالبلاء وهذا غاية التمكين. فلا يظن عاقل أن أحدًا يخلص من الألم ألبتة، وإنما يتفاوت أهل الألم في العقول؛ فأعقلُهم من باع ألمًا مستمرًّا عظيمًا بألم منقطع يسير، ثم تَعْقُبُهُ لذة في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة العنكبوت:٣.

(٢) سورة السجدة:٢٤.

٥. أن الابتلاء علامة خير للعبد، قال رسول الله ﷺ: «**من يُرد الله به خيرًا يصب منه**»(١).

٦. الابتلاء علاج للنفوس التي اشتكت تأخير النصر، لنرجع إلى حال النبي ﷺ مع أصحابه الذين زلزلوا، ورأوا العذاب خاصة في يوم الأحزاب، ومع ذلك كان النبي ﷺ يوصيهم بالصبر، ويوصيهم بحسن الظن بالله جل في علاه، فعن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ -وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة- قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟! قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض؛ فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار؛ فيوضع على رأسه؛ فيشق باثنتين؛ وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»(٢).

٧. الابتلاء سنة كونية، ومن استقرأ آيات الكون، وتاريخ الأمم، وجد أنه لا يسلم أحد من البلاء، يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾(٣).

هذه البشارة لك أن تتخيل ما تحمل وراءها من المعاني، يكفي أن

---

(١) صحيح البخاري: ٥٦٤٥.

(٢) صحيح البخاري: ٣٦١٢.

(٣) سورة البقرة: ١٥٥.

قاسمًا الجُوعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمّا فسّر هذه الآية قال: «كل يُعطى أجره بمقدار إلا الصابر يغرف له غرف».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مفسرًا قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾[1]: «لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان».

يأتي الشيطان أحدنا فيقول له: إذا كان شدة البلاء متعلّقة بشدة إيمانك فلعلك تجعل في إيمانك نقصًا حتى لا يعظم بلاؤك!

وهذا لا حول ولا قوة إلا بالله من خيبة العبد، أنه يُحدِث نقصًا في علاقته مع ربه خوفًا من البلاء، ومن علِم أن البلاء لا يحيد عنه أحد علِم أن البلاء يُستجلب معه من الله الصبر في حال الضراء، والشكر في حال السرَّاء؛ فيثبت الله عباده الذين حفظوه في السراء ليحفظهم في الضراء ولينزل عليهم الصبر والرضا والسلوان والعوض الكبير في الدنيا والآخرة.

٨. لأن الإنسان قد يبتلى بأهله وولده وقرابته فيرى منهم جفاءً وغلظةً وظلمًا، وليعلم العبد أن ذلك الشر الذي يجده من أهله وقرابته، أو من حوله بلاء وفتنة يستصحب معها الصبر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة العنكبوت:٢.

(٢) سورة الفرقان:٢٠.

أقسام الناس حين نزول البلاء:

الأول: محروم من الخير يقابل البلاء بالتسخط وسوء الظن بالله واتهام القدر.

الثاني: موفق يقابل البلاء بالصبر وحسن الظن بالله.

الثالث: راض يقابل البلاء بالرضا والشكر وهو أمر زائد على الصبر.

أحوال عظيمة مع الابتلاء:

أمرنا الله بالصبر، وجعله من أسباب العون والمعيّة الإلهية؛ فقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[1].

ثم أخبر مؤكّدًا أنّ الحياة محل الابتلاء بالخوف والجوع ونقص الأرزاق والأموال والأنفس والثمرات، وأطلق البشرى للصابرين، وأخبر عن حالهم عند المصائب، وأثبت جزاءهم؛ فقال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[2].

فالصبر سبب بقاء العزيمة، ودوام البذل والعمل، وما فات لأحد كمال إلا لضعف في قدرته على الصبر والاحتمال، وبمفتاح عزيمة الصبر تُعالج مغاليق الأمور، وأفضل العُدَّة الصبر على الشدَّة.

---

(١) سورة البقرة:١٥٣.

(٢) سورة البقرة:١٥٥-١٥٧.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جرَّبْنا وجرَّب المجرِّبون فلم نر شيئًا أنفع من الصبر، به تداوى الأمور، وهو لا يُداوى بغيره». «وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر»، وكان أمر المؤمن -من بين الناس- أمرًا عجيبًا؛ لأنّه «إنْ أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له».

• **محمد** ﷺ:

الأنبياء أعرف الناس بالله وأفقههم بما أراد منهم وأحسن الناس ظنًّا به ولعل في مذاكرة قصصهم سلوى وإعانة على فقه الابتلاء.

وفي تأمُّل حاله ﷺ عظة وسلوى وعزاء؛ فقد كانت حياته كلها صبرًا وجهادًا؛ ففي فترة وجيزة مات عمه أبو طالب الذي كان يمنع المشركين من أذاه، وماتت زوجته الوفيّة الصابرة خديجة، ثمّ ماتت بعض بناته، ومات ابنه إبراهيم، فلم يزد على أنْ قال -وقد دمعت عيناه-: «**إنّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يَرْضَى ربُّنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(١).

حُبس بالشِّعب، وطرد من مكة، ثم لمّا استقر في المدينة تسلَّط عليه المنافقون، ومات الكثير من أصحابه الذين أحبَّهم وأحبّوه، فما فَتَّ ذلك في عضُدِه، ولا قلَّل من عزيمته وصبره.

فاملأ قلبك بحب الله وحسن الظن به، وتأمل حال المصطفى ﷺ في غزوة أُحد لمّا اشتد عليه الكرب، وتقاطرت أمام عينيه الدماء، يقول عنه أبو بكر: «أشفقت على رسول الله من شدّة مناشدته لربّه» لك أن تتصور ذاك الهم المثقل على كاهله ﷺ، وذاك الغم الذي على محياه، مع أن الأمر

(١) صحيح البخاري: ١٣٠٣، وصحيح مسلم: ٢٣١٥.

في ظاهره أن دعاءه لم يُجب، ولم يزل مع ذلك شديد المناشدة لربه طامعًا في إجابته واثقًا بعطائه، وسرُّ ذلك كله قلب عظيم امتلأ حسن ظنٍّ بالله تعالى.

الله عَزَّوَجَلَّ أعظم وأعلى وأجل من أن يُراجع في قضائه، أو أن يشك عبدٌ فقير ضعيف في قدره لحظة، والدليل أن النبي ﷺ وقف يوم أُحد حتى سقط رداؤه من على كتفيه، وهو يبكي ويسأل الله جل وعلا أن ينصره، هل أُوتي النصر؟! لم يؤته، ولكن هل خالط قلب النبي ﷺ شك في ربه ولو لحظة؟ حاشا وكلا أن يكون ذلك من قلب محمد ﷺ.

• **يوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ:

لكل مكروب اقرأ سورة يوسف، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[1] تخيل حال طفل صغير ينقل من بين أحبابه وأخوته وأقرب الناس إليه ليودع في الجب، في مكان مهلِك، لكن جاءه الوحي رحمةً من ربّه، ومن أُلقي في غيابة جبِّ الهم والحزن والألم كيف سيأتيه الوحي؟! سيأتيه وحيٌ من باب ثقته بالله، وحسن ظنه بالله أنه سينجز له وعده، فيصبر جزاء هذا الموعود، والتمكين ستتعرف عليه بتتبع قصة يوسف، قصته في السجن، ثم مع ملك مصر، ثم مع التمكين، وقصته مع إخوته لما أذّن المؤذن، إلى أن كانت النتيجة ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[2].

---

(١) سورة يوسف: ١٠

(٢) سورة يوسف: ١٠٠.

ثم تأمل حال يعقوب عليه السلام وهو يضرب أروع أمثلة الصبر على البلاء، وانتظار الفرج ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾[1] ثم تأمل الثقة التي ملأت قلبه عليه السلام ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[2].

• **صبر أم موسى عليه السلام:**

تبتلى في ابنها موسى الكليم عليه السلام فلا تجد بدًّا من إلقائه في اليم، وقلبها يتفطر حزنًا عليه، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾[3].

ثم يبتلى موسى الكليم بقتلة الأنبياء من بني إسرائيل من جهة، وبالفراعنة الأشداء من جهة أخرى، فيهدد بالقتل، ويخرج من بلدته خائفًا يترقب، والملأ يأتمرون به ليقتلوه، وتتوالى عليه الأيام؛ وهي حبلى بالأحداث وصنوف البلاء بعد بعثته، من ملاحقة فرعون وملئه لموسى ومن معه إلى اليمّ، إلى ارتداد قومه واتخاذهم العجل، حتى لا تكاد تخلو صفحة من صفحات سيرته التي كادت تذهب بالقرآن لكثرة أحداثها، من صنف من صنوف الابتلاء.

---

(١) سورة يوسف: ٩٤.

(٢) سورة يوسف: ٨٦.

(٣) سورة القصص: ٧، ٨.

• **إبراهيم الخليل** عليه السلام:

ابتلي إبراهيم عليه السلام في أبيه الذي كان يصنع أصنامًا تعبد من دون الله، وابتلي في جسمه فقذف في النار، وابتلي في ولده وفلذة كبده فأمر بذبحه، وابتلي إلى ذلك بابتلاء من نوع خاص، وهو تحميله أمانة الإمامة، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[1].

ويا لها من أمانة ثقيلة وابتلاء عظيم على من تصدر له فأناط بعنقه مسؤولية أمة أو طائفة من العباد.

• **أيوب** عليه السلام:

يقول الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾[2].

بقي في البلاء ثماني عشرة سنة، قال ابن كثير رحمه الله: «يذكر الله سبحانه وتعالى عن أيوب عليه السلام ما كان قد أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرون، ومنازل مرضية. فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، ولم يبقَ من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته، وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك».

---

(١) سورة البقرة: ١٢٤.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٣-٨٤.

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن في أمر أيوب عليه السلام وما ذكره الله تعالى من شأنه ههنا وفي غيره من القرآن من العبر والدلائل ما ليس في غيره، لأنه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله مما كان عبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك وتعريفًا لهم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها، ويجتهد في القيام بحق الله تعالى ويصبر على حالتي الضراء والسراء».

- **يونس** عليه السلام:

لما ابتلاه الله بالتقام الحوت له ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[1] اعترف بالألوهية لله وحده، ونزهه عن العيب وأضاف الظلم إلى نفسه قال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أُجيب من سميع الدعاء ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[2] وكذلك ننجي كل مؤمن اغتم أو أهمه أمر كذلك ننجيه إذا قال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

- **عروة بن الزبير** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

ابتلي في موضع واحد بقطع رجله مع موت ابنه، فلم يزد على أنْ قال: «اللهمّ كان لي بنون سبعة فأخذتَ واحدًا، وأبقيتَ لي ستة، وكان لي أطراف أربعة؛ فأخذت طرفًا وأبقيت ثلاثة؛ ولئن ابتلَيْتَ لقد عافيت، ولئن أخذتَ لقد أبقيت».

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٧.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٨.

- **عمر بن عبدالعزيز** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

مات ابنه عبد الملك فدفنه أبوه، ثم استوى على قبره قائمًا، فقال وقد أحاط به الناس: «رحمك الله يا بُنيّ! قد كنت برًّا بأبيك، والله ما زلتُ مذ وهبكَ الله لي مسرورًا بك، ولا والله ما كنتُ قطّ أشدَّ بك سرورًا، ولا أرجى بحظي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيك منذ وضعتك في هذا المنْزل الذي صيَّرك الله إليه».

وروي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «اعلموا أنّ الصبر من الإيمان بمنْزلة الرأس من الجسد، ألا وإنه لا إيمان لمن لا صبر له».

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما تجرَّع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب، وجرعة صبر عند المصيبة». وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه، فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوَّضه خيرًا مما انتزعه».

كيف أرتقي إلى منزلة فقه الابتلاء؟!

١. تعرف على الله جل وعلا بأسمائه وصفاته:

فلا شيء يخفف وطأة البلاء على القلب كمعرفته بالله وأسمائه وصفاته، فالله عَزَّوَجَلَّ قد يبتليك ليعلمك معنى اسم من أسمائه.

قيل للحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: يا أبا سعيد، من أين أُتي هذا الخلق؟ قال: من قلّة الرضا عن الله، قيل: ومن أين أتي قلّة الرضا عن الله؟ قال: مِن قلة المعرفة بالله.

ولمّا جيء بسعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الحجّاج ليقتلَه بكى رجلٌ فقال له سعيد: ما يبكيك؟ قال: لما أصابك، قال سعيد: فلا تبكِ إذًا؛ لقد كان في عِلم الله أن يكونَ هذا الأمر ثمّ تلا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ

أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ (١)

والعبد إذا حقق مقام العبودية فيحسن به أن يتأمل في كل حال ضيق وهم حال السعة التي كان فيها.. وكيف يحقق من خلالها عبوديته لله ويفقه ماذا أراد الله منه بالبلاء؟؟

ليعلم:

- أن من وسع عليه في الأولى سيوسع عليه في الآخرة.
- ليجمع بين مقامَي الصبر والشكر، الصبر على بلاء هو فيه، والشكر لنعمة كان فيها.
- حتى يحسن الظن بربه.
- ليتيقن أن الله قد يضيق على عبده حتى يعلّمه معنى اسم من أسمائه فافهم!! الواسع، الجبار، الفتاح، اللطيف، الحكيم....
- يتذكر نعم الله السابقة، إذ لا محسن على الحقيقة سوى الله عَزَّوَجَلَّ.
- ولأن الله يحب العبد الملحّ، يقول الحكيم الترمذي: «وإنما صار الملحّ محبوبًا، لأنه لا ينقطع رجاؤه يسأل ولا يرى إجابة، ثم يسأل ولا يرى إجابة، ثم يسأل ولا يرى إجابة، لا يدخله اليأس، فذلك لعلمه بالله، وصحة قلبه، وصدق عبوديته».

٢. يقينك القوي بأن ما قدّره الله كائنٌ لا محالة:

فالعاقل الحصيفُ يوقن حتمًا أن الأقدار كلَّها قد فُرِغ منها، وأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدّر صغيرها وكبيرَها، وعلم ما كان وما سيكون وأن لو كان كيف يكون، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن

(١) سورة الحديد: ٢٢.

شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ [1]، يقول الرسول ﷺ: «**أوّلَ ما خلق الله القلمَ قال له: اكتب، قال: ربِّ، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقاديرَ كلّ شيء حتى تقوم الساعة**»[2].

٣. استشعار أن هذا البلاء اختيار واصطفاء من الله تعالى لك:

وهو من علامة حب الله للعبد، ففي الحديث يقول ﷺ: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أحب عبدًا ابتلاه ليسمع صوته**» ويقول ﷺ: «عظم الجزاء مع عظم البلاء، و إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».

٤. أن هذا البلاء تكفير لما كان منك من التقصير:

في الحديث يقول ﷺ: «**ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها**». وفي الحديث عنه ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**».

هل الابتلاء من الله علامة محبةٍ أو عقوبة؟؟

قال ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**».

قال المناوي في فيض القدير: «**إذا أحب الله قومًا ابتلاهم**» بأنواع البلايا حتى يمحصهم من الذنوب ويفرغ قلوبهم من الشغل بالدنيا خوفًا عليهم

---

(١) سورة الأنعام: ٣٨.

(٢) سنن أبي داود: ٤٧٠٠، وسنن الترمذي: ٢١٥٥.

أن يقعوا فيما يضرهم في الآخرة، وجميع ما يبتليهم به من ضنك المعيشة وكدر الدنيا وتسليط أهلها ليشهد صدقهم معه وصبرهم في المجاهدة قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[1].

وجاء في شرح مشكاة المصابيح: تعليقًا على حديث «**إذا أحب الله قومًا ابتلاهم**» قال: «البلاء للوُلاة، والابتلاء للأولياء، وللحديث محمل آخر وهو أن نزول البلاء علامة المحبة فمن رضي بالبلاء صار محبوبًا».

والقول الفصل في هذه المسألة ذكره في «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» فقال: «المصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصٍ أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو جوع حصل له من الجزع والنفاق ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضررًا في دينه. فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة كانت في حقه نعمة دينية. فهي بعينها فعل الرب عَزَّوَجَلَّ ورحمة للخلق، والله تبارك وتعالى محمود عليها، فمن ابتلي فرُزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه وحصل له مع ما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[2]».

---

(١) سورة محمد: ٣١.

(٢) سورة البقرة: ١٥٧.

٥. أنه بهذا البلاء تكون منزلتك العالية في الجنة:

في الحديث يقول ﷺ: «إن الرجل لتكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها». من أراد الله به خيرًا ابتلاه بالمصائب؛ ليثيبه عليها؛ لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يُرد الله به خيرًا يصب منه**».

٦. بالبلاء يفتح الله للعبد من الذل والانكسار بين يدي الله وتقوى صلته بالله تعالى من حيث لا يشعر:

قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يقضي الله لمؤمنٍ قضاءً إلا كان خيرًا له**» أحيانًا يغيب عن العبد هذا الخير المذكور، ولا تراه عينه، لكن الخير الذي يتأتى ويحصل من انكسار القلب، ومن اتهام النفس، والرجوع عليها باللائمة، ومن إحداث توبة، ومن الاستمرار في عمل صالح وفقه الله هذا أعظم الخير، الذي قد يكون ما رآه العبد رأي العين، لكن القلب عاشه، والروح تنفسته، وهذا مقام لا يوصل الله عَزَّوَجَلَّ إليه إلا من أحب من أوليائه.

٧. بهذا البلاء يُعلم يقينًا أن الدنيا لا تساوي شيئًا:

ولو كانت شيئًا يُذكر لما جعل الله عَزَّوَجَلَّ أصلها وأساسها البلاء، قال تعالى: ﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[1]، فجعل أصل الدنيا البلاء والعافية طارئة عليها.. ومن علم هذا العلم لم يحزن على فوات حظه منها؛ لأن الموعد جنة عرضها السموات والأرض، يقول من دخلها ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾[2].

---

(١) سورة الإنسان: ٢.

(٢) سورة فاطر: ٣٥.

ثمرات الابتلاء:

١. تكفير السيئات ورفع الدرجات:

الابتلاءات التي تصيب المؤمن فيصبر عليها سبب لتطهيره من السيئات كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾[1] أي: تنقيتهم من الذنوب بالابتلاءات، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**».

وقال النبي ﷺ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن في جسده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة**».

وأما رفع الدرجات، فقد قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكره للحِكم والغايات المحمودة من ابتلاء يوم أُحد: «أنه ﷻ هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها».

٢. تحقيق العبودية لله تعالى في السرَّاء والضرَّاء:-

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء وفيما يحبون وما يكرهون وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقًّا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية».

---

(١) سورة آل عمران: ١٤١.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾[1].

قال مجاهد وقتادة وغيرهما -رحمهم الله: {عَلَىٰ حَرۡفٖ} على شك، وقال غيرهم: على طرف، ومنه حرف الجبل أي طرفه، أي دخل في الدين على طرف فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر. عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: إن ديننا هذا لصالح، فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط، قالوا: ما في ديننا هذا خير، فأنزل الله على نبيه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ الآية.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان أحدهم إذا قدم المدينة وهي أرض وبيئة، فإن صح بها جسمه ونُتِجت فرسه مُهرًا حسنًا وولدت امرأته غلامًا رضي به، واطمأن إليه، وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيرًا، ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ والفتنة البلاء، أي وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرًّا، وذلك الفتنة».

وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية.

---

(١) سورة الحج: ١١-١٣.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر. وقال مجاهد في قوله: {ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ} أي ارتد كافرًا.

وقوله: {خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ} أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة، ولهذا قال تعالى: {ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ} أي هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة[1].

٣. تمحيص المؤمنين الصادقين، وفضح الأدعياء الكاذبين:

ففي الابتلاءات تتميز الصفوف، ويظهر كل واحد على حقيقته كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[2] قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق كما ميزهم بالمحنة يوم أحد». فالتمحيص نوعان: تمحيص للصفوف، وتمحيص للذنوب.

٤. محق الكافرين:

ففي الابتلاءات التي تقع بالمؤمنين إهلاك لأهل الكفر إما بقتلهم بأيدي المؤمنين أو بطغيانهم ومبالغتهم في أذى المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥٦.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٩.

وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾[1] ثم قال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2].

٥. الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار:

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما نزل بلاء إلا بذنب، وما رفع إلا بتوبة».

ولولا البلاء ما سُمعت أصوات يختلط معها البكاء، لولا البلاء لما قام أُناسٌ الليل يحققون عبوديتهم لرب الأرض والسماء، لولا البلاء لما خرجت الصدقات، ولما رجع العبد إلى نفسه بالمحاسبة، ولولا البلاء لما ارتفعت الدرجات، وما صعدت الدعوات، فالله الله إذا ابتلاك الله أسْمِعْه صوتك، وأره صبرك ورضاك.

٦. تربية النفوس وصقل الشخصية المسلمة:

ولابد من البلاء ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان يعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد، والبلاء يجعل في القلب كسرًا وفقرًا يحبه الله من عبده، بل هو سبب من أسباب إجابة الدعاء .

٧- الدعاء:

أن يجعلك الله عند النعماء من الشاكرين وعند البلاء من الصابرين.

قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٤١.

(٣) سورة النمل: ٦٢.

٨- انتظار الفرج:

وتأمل معي هذا المثال رجل يزرع مزرعة ويرعى نخله انتظر الثمر فلما تأخر الثمر قام إلى نخله فأحرقه، فماذا يقال عنه؟!

من سلك طريق سفر ثم عاد حين بقي على بلوغ مراده دقائق وولى راجعًا إلى نقطة البداية فلم يبلغ مرادًا ولم يصل إلى مبتغى فيا لعظيم خسارته.

عوامل الثبات عند الابتلاء:

١- الصبر والتصبر:

والدنيا لا تقطع بشيء أحبّ إلى الله من الصبر، وكما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنا وجدنا خير عيشنا الصبر».

وفي الحديث يقول ﷺ: «ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر».

وإذا أصابتك المصيبة فاحمد الله عَزَّوَجَلَّ أن جعل هذه المصيبة في دنياك ولم يجعلها في دينك، ثم احمد الله أن رزقك الصبر عليها، ثم استعن عليها بالصبر والصلاة، وتأمل حال من حولك ممن هم أكبر منك مصابًا وأكثر منك صبرًا.

والصبر على المصيبة ينشأُ من أسباب عديدة:

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مقدرة في أُم الكتاب قبل أن يخلق؛ فلا بد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاءً.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوى، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأُمة، أو الصبر والرضا على أحد القولين، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى، فلا بد له منه وإلا تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾[1]، فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فيشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة.

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية بالصبر عليها.

٢- اللجوء إلى الله وسؤاله الثبات:

فكلما اقترب العبد من ربه كان أكثر الناس تعرضًا لرحمات الله، ومن رحماته تثبيت الذين آمنوا كما أخبر بذلك سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[2] ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**».

٣- الدعاء وقوته في دفع البلاء:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مكانة الدعاء وأثره في دفع البلاء:

«الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عن الداعي إما لضعفه في نفسه بأن يكون الدعاء لا يحبه

---

(١) سورة الشورى: ٣٠.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٧.

الله لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًّا فإن السهم يخرج منه ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها... والدعاء من أنفع الأدوية وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع وقوعه ويرفعه أو يخففه فله مع البلاء ثلاثة مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منها صاحبه، اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وثمرة الدعاء مضمونة بإذن الله، فإذا أتى الداعي بشروط الإجابة فإنه سيحصل على الخير وسينال نصيبًا وافرًا من ثمرات الدعاء ولا بد، قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل داع يستجاب له لكن تتنوع الإجابة فتارة تقع بعين ما دعا به، وتارة بعوضه».

عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع فيما نزل وفيما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء، فيعتلجان إلى يوم القيامة**».

٤- معرفة طبيعة الطريق:

إنه طريق طويل شاق، كثير العقبات، عظيم التبعات، فلا بد من توطين النفس على الصبر، ولو كانت الدنيا كما نحب لما تمنينا الجنة، لكنه طريق لابد من السير فيه والثبات عليه لمن أراد منازل السعداء.

٥- ذكر الله تعالى:

وهو من أعظم أسباب الثبات عند البلاء ومن معينات الصبر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

٦- حسن الظن بالله تعالى:

وأن الله أراد من البلاء رفع درجاتك وتكفير سيئاتك، بل إن لك منزلة لا تبلغها إلا بالبلاء، يحب ﷻ أن يسمع صوتك، ويرى فقرك.

٧- القرب من الصالحين:

قرب المسلم من إخوانه وإحاطة نفسه بهم من أعظم أسباب الثبات عند الابتلاءات والمحن، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2].

٨- الأخذ بعلاج الهم والحزن:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «فصلٌ في هديه ﷺ في علاج الكرب والهم والغم والحزن..

أخرجا في الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض رب العرش الكريم**».

---

(١) سورة الأنفال: ٤٥.

(٢) سورة الكهف: ٢٨.

(٣) زاد المعاد: ٤/ ١٨٠.

وفي جامع الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر قال: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**».

وفيه: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا أهمه الأمر رفع طرفه إلى السماء فقال: «**سبحان الله العظيم**» وإذا اجتهد في الدعاء قال: «**يا حي يا قيوم**».

وفي سنن أبي داود عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت».

وفيها أيضًا عن أسماء بنت عميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب أو في الكرب: الله ربي لا أشرك به شيئًا**» وفي رواية أنها تقال سبع مرات.

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ما أصاب عبدا هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أَمَتِك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبدله مكانه فرحًا».

وفي الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له**».

وفي رواية: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه: كلمة أخي يونس**».

وفي سنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فقال: يا أبا أمامة، ما لي أراك في المسجد في غير وقت الصلاة؟ فقال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله، فقال: ألا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله عَزَّوَجَلَّ همك وقضى دينك؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**» قال: ففعلت ذلك فأذهب الله عَزَّوَجَلَّ همي وقضى عني ديني.

وفي سنن أبي داود عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**».

وفي المسند أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (١).

وفي السنن: «**عليكم بالجهاد؛ فإنه باب من أبواب الجنة يدفع الله به عن النفوس الهم والغم**».

ويذكر عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «**من كثرت همومه وغمومه فليكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله**».

---

(١) سورة البقرة: ٤٥.

وثبت في الصحيحين: «**أنها كنز من كنوز الجنة**».

وفي الترمذي: «**أنها باب من أبواب الجنة**».

هذه الأدوية تتضمن خمسة عشر نوعًا من الدواء، فإن لم تقو على إذهاب داء الهم والغم والحزن، فهو داء قد استحكم وتمكنت أسبابه ويحتاج إلى استفراغ كلي:

الأول: توحيد الربوبية، لا بد للعبد أن يعلم أن الله كما هو المتصرف بالكون، يأمر السحب فتمطر، والرياح فتهب، فكذا الله تعالى قادر أن يأمر الهم فيُزاح من قلب العبد.

الثاني: توحيد الإلهية، ومتى ما حقق العبد هذا التوحيد بصرفه العبادة لله وحده، يعلم بعد ذلك أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن ما يصيب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات، بتعرف العبد على معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

الرابع: تنزيه الرب تعالى عن أن يظلم عبده أو يأخذه بلا سبب من العبد يوجب ذلك.

الخامس: اعتراف العبد بأنه هو الظالم.

السادس: التوسل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء وهو أسماؤه وصفاته ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات: الحي القيوم.

السابع: الاستعانة به وحده.

الثامن: إقرار العبد له بالرجاء.

التاسع: تحقيق التوكل عليه والتفويض إليه والاعتراف له بأن ناصيته في يده يصرفه كيف يشاء وأنه ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه.

العاشر: أن يرتع قلبه في رياض القرآن ويجعله لقلبه كالربيع وأن يستضيء به في ظلمات الشبهات والشهوات وأن يتسلى به عن كل فائت ويتعزى به عن كل مصيبة ويستشفي به من أدواء صدره، فيكون جلاء حزنه وشفاء همه وغمه.

الحادي عشر: الاستغفار.

الثاني عشر: التوبة.

الثالث عشر: الجهاد.

الرابع عشر: الصلاة.

الخامس عشر: البراءة من الحول والقوة وتفويضهما إلى من هما بيده.

إن الابتلاء تاريخ وقصة طويلة منذ أن نزلت «لا إله إلا الله» على هذه الأرض، فابتلي الأنبياء والصادقون، وكذلك الأئمة الموحدون. فمن جرد نفسه لحمل كلمة «لا إله إلا الله» ونصرها وإقامتها في الأرض عليه أن يدفع تكاليف هذا التشريف من تعب ونصب وبلاء فإنه موعود بحسن الجزاء.

فأين أنت؛ والطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمِيَ في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبيعَ يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونُشِرَ بالمنشار زكريا، وذُبِحَ السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ... وتزهى أنت باللهو واللعب؟!

والله تعالى يبتلي بعض الخلق ببعض، ويبتلي المؤمن بالكافر، كما يبتلي الكافر بالمؤمن، وهذا النوع من الابتلاء هو قاسم مشترك بينهم جميعًا، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ (١).

(١) الملك: ٢.

المعراج التاسع عشر

قلوب بيضاء



لا نكافئ من عصى الله فينا
إلا أن نطيع الله فيه

المعراج التاسع عشر

قلوب بيضاء



سلامة الصدر هي خلوُّه من آفاته وسلامته من أمراضه كالحقد والحسد وسوء الظن بالناس والشك بالله.

إن الحديث عن القلب وأحواله حديث بالغ الأهمية في وقت انشغل فيه الناس بالظواهر، واستهانوا بأمر القلوب والبواطن.

لمَ الحديث عن سلامة الصدر؟

سلامة الصدر لها عند الله شأن عظيم بل هي الشأن كله حيث قال تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1].

فلن ينجو في ذلك اليوم إلا صاحب القلب الطاهر السليم، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر، وحب الدنيا والرئاسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، ومن كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله، والقلوب هي محل نظر الرحمن كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» انتهى كلامه.

---

(١) سورة الشعراء: ٨٨-٨٩.

ولأن القلب هو ملك الأعضاء المتحكم فيها، وإليه يعود صلاح العمل وفساده، قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذا الحديث: «فبين أن صلاح القلب مستلزم لصلاح الجسد؛ فإذا كان الجسد غير صالح، دل على أن القلب غير صالح، والقلب المؤمن صالح؛ فعلم أن من يتكلم بالإيمان، ولا يعمل به، لا يكون قلبه مؤمنًا، حتى إن المكره إذا كان في إظهار الإيمان؛ فلابد أن يتكلم مع نفسه، وفي السر مع من يأمن إليه، ولابد أن يظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه. وأما إذا لم يظهر أثر ذلك لا بقوله، ولا بفعله قط؛ فإنه يدل على أنه ليس في القلب إيمان، وذلك أن الجسد تابع للقلب؛ فلا يستقر شيء في القلب إلا ظهر موجبه ومقتضاه على البدن، ولو بوجه من الوجوه».

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده**»(٢).

ويقول الرسول ﷺ: «**إن لله تعالى آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها**»(٣).

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن ثلاثة أعمال عظيمة يستحق بها أصحابها الجنة، فعن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «... **وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل**

(١) سبق تخريجه.

(٢) السلسلة الضعيفة: ٤٠٧٤.

(٣) السلسلة الصحيحة: ١٦٩١.

رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»[1].

مكانة سلامة الصدر في الإسلام وثمرتها:

حرص الإسلام على تأليف قلوب المسلمين فلا تكون بينهم إلا المحبة والإخاء، وفي الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تباغضوا ولا تقاطعوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**»[2].

١- سلامة الصدر وإصلاح ذات البين من لوازم التقوى، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[3].

٢- دخول الجنّـة لا يكون إلا بالصفـاء والمحبة بين المؤمنين؛ قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشـوا السلام بينكـم**»[4].

٣- سلامة الصدر علامة للإخلاص حيث قال ﷺ: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخـلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»[5].

٤- أفضل الناس من سلم صدره، كما شهد له رسول الله ﷺ: «قيل يا رسول الله: أي الناس أفضل؟! قال: كل مخموم القلب صدوق

---

(١) صحيح مسلم: ٢٨٦٥.

(٢) صحيح البخاري: ٦٠٦٥، وصحيح مسلم: ٢٥٥٨.

(٣) سورة الأنفال: ١.

(٤) سنن ابن ماجه: ٣٠٥٦.

(٥) سنن ابن ماجه: ٣٠٥٦.

اللسان، قالوا: (صدوق اللسان) نعرفه، فما مخموم القلب؟! قال: «**التقي النقي، الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد**»(١). فإن ثمرة التقوى هي نقاوة القلب وسلامته من الإثم والبغي والغل والحسد، والإصلاح بين الناس الذي هو من أعظم أسباب تطهير القلوب وتأليفها كما أخبر بذلك النبي ﷺ حيث قال: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين**» (٢).

٥- سلامة الصدر من صفات أهل الجنة؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾(٣).

٦- ويصل بها إلى درجة المحسنين حيث قال تبارك وتعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾(٤).

٧- سلامة الصدر راحة في الدنيا وغنيمة في الآخرة لأن صاحب النية الخبيثة لا يحصل له شيء مما تمنّاه، بل يتعجل لنفسه الشقاء والهم والتعب مع عظيم الإثم الموجب للنار في الآخرة، ولو صفت نيته وصح قلبه لحصلت له الراحة والتفرغ لمصالحه مع ما يحصل من عظيم الأجر وحسن العاقبة، قال قاسم الجوعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «أفضل العبادة مكابدة الليل، وأفضل طريق للجنّة سلامة الصدر»..

---

(١) السلسلة الصحيحة.

(٢) سنن أبي داود: ٤٩١٩، وسنن الترمذي: ٢٥٠٩.

(٣) سورة الحجر: ٤٧.

(٤) سورة آل عمران: ١٣٤.

وقال السقطي: «من أجلّ أخلاق الأبرار سلامة الصدر للإخوان والنصيحة لهم».

٨- أن صاحب العفو ذو حظ عظيم ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

٩- سبب لعزّ العبد في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**»[2].

أسباب إيغار الصدور:

١- **طاعة الشيطان**: قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾[3].

وقال ﷺ: «إن الشيطان قد أيسَ أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»[4].

٢- **الغضب**: فالغضب مفتاح كل شر وقد أوصى ﷺ رجلًا بالبعد عن الغضب فقال: «**لا تغضب**» فرددها مرارًا. فإن الغضب طريق إلى التهكم بالناس والسخرية منهم وبخس حقوقهم وإيذائهم وغير ذلك مما يولد البغضاء والفرقة.

٣- **النميمة**: وهي من أسباب الشحناء وطريق إلى القطيعة والتنافر ووسيلة إلى الوشاية بين الناس وإفساد قلوبهم، قال تعالى ذامًّا أهل

---

(١) سورة فصلت: ٣٤.

(٢) صحيح مسلم: ٢٥٨٨.

(٣) سورة الإسراء: ٥٣.

(٤) صحيح مسلم: ٢٨١٢.

هذه الخصلة الذميمة ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾[1]. وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة قَتَّاتٌ» وهو النمام[2].

٤- **الحسد**: وهو تمني زوال النعمة عن صاحبها وفيه تعدٍّ وأذى للمسلمين، ونهى الله تعالى عنه ورسوله، قال ﷺ: «**إياكم والحسد؛ فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[3].

والحسد يولد الغيبة والنميمة والبهتان على المسلمين والظلم والكبر. وكثير من الناس اليوم يتورع عن أكل الحرام أو النظر الحرام ويترك قلبه يرتع في مهاوي الحقد والحسد والغل والضغينة.

٥- **التنافس على الدنيا**: خاصة في هذا الزمن حيث كثر هذا الأمر واسودت القلوب، فهذا يحقد على زميله لأنه نال رتبة أعلى، وتلك تغار من أختها لأنها حصلت على ترقية وظيفية، والأمر دون ذلك فكل ذلك إلى زوال، في الحديث يقول ﷺ: «**فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[4].

وبعض الناس يظن أن سلامة القلب تعني سهولة غشه وخداعه والضحك عليه وهذا خلاف المقصود، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفرق بين سلامة الصدر والبله والتغفل: أن سلامة القلب تكون من إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعلم به، وهذا بخلاف

---

(١) سورة القلم: ١١.

(٢) صحيح البخاري: ٦٠٥٦، وصحيح مسلم: ١٠٥.

(٣) السلسلة الضعيفة: ١٩٠٢.

(٤) صحيح البخاري: ٤٠١٥، وصحيح مسلم: ٢٩٦١.

البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يُحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه. والكمال أن يكون عارفًا بتفاصيل الشر سليمًا من إرادته قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لست بالخِبِّ، ولا الخب يخدعني» وكان عُمر أعقل من أن يُخدع وأورع من أن يَخدَعَ.

نماذج للعفو:

هذا سيد ولد آدم أجمعين عليه صلوات رب العالمين، يذهب إلى الطائف عارضًا نفسه على وجهائها وأهلها، فلم يجبه منهم أحد، فانطلق مهمومًا، وإذا هو بسحابة قد أظلته فيها جبريل، ومعه ملك الجبال فناداه ملك الجبال: «**إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين** (جبلا مكة جبل قُعَيْقِعَانَ، وجبل أبي قبيس)، فقال صاحب الصدر السليم ﷺ: **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**». ثم تأمل حاله ﷺ حين ضربه قومه فأدموه (أسالوا دمه) فمسح الدم وهو يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، واستحضر معي حالة المشركين معه ﷺ في مكة وقد آذوه وسعوا في قتله حتى خرج من بين أظهرهم وكان الأمر كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[1] فلما مكن الله له ودخل مكة فاتحًا، ما انتقم ولا آذى بل قال لقومه: «**لا تثريب عليكم اليوم**». والأمثلة من حياته صَلى الله عليه وسلم كثيرة. ولا أدَلَّ على هذا من قراءة سيرته.

---

(١) سورة الأنفال: ٣٠.

نبي الله يوسف عليه السلام: وقصته مع إخوته أنموذج رائع لسلامة الصدر فبعد أن ألقوه في الجب وفرقوا بينه وبين أبيه ثم دخوله السجن إلى غير ذلك مما هو معروف، مكن الله له وجعله على خزائن مصر فلما ترددوا عليه وعرفوه قالوا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾[1]. فما كان منه إلا أن قال: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾[2]. ما حمل غلًا، ثم لما جاء أبوه مع إخوته: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[3] فلم يقل: أخرجني من الجب؛ كي لا يُخجلهم (وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ)، ولم يقل: رفع عنكم الجوع والحاجة؛ حفظًا للأدب معهم. (مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) فأضاف ما جرى إلى السبب ولم يضفه إلى المباشر (إخوته).

ثم تأمل معي موقف الصِّدِّيق رضي الله عنه مع مسطح بن أثاثة إذ كان الصديق ينفق على مسطح فلما كانت حادثة الإفك كان مسطح ممن خاضوا فيها فأقسم الصديق ألا ينفق على مسطح فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[4] فما

---

(١) سورة يوسف: ٩١.

(٢) سورة يوسف: ٩٢.

(٣) سورة يوسف: ١٠٠.

(٤) سورة النور: ٢٢.

كان من الصديق إلا أن أعاد النفقة على مسطح.

ثم استمع إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يقول: «إني لأسمع أن الغيث قد أصاب بلدًا من بلدان المسلمين فأفرح به، وما لي به سائمة».

أما أبو دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد دُخل عليه وهو مريض فرأوا وجهه يتهلل فكلموه في ذلك فقال: «ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، والأخرى كان قلبي سليمًا للمسلمين».

أما عُلبة بن زيد: فإنه لما دعا النبي ﷺ إلى النفقة ولم يجد ما ينفقه بكى وقال: «اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به، اللهم إني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس، فقال النبي ﷺ: «**أين المتصدق بعرضه البارحة؟**» فقام عُلبة رَضي الله عنه، فقال: النبي ﷺ: «**أبشر فوالذي نفسُ محمد بيده لقد كُتبت في الزكاة المتقبلة**».

ومن أجمل العبارات التي كان يرددها السلف لمن أخطأ في حقهم: «لا نكافئ من عصى الله فينا إلا أن نطيع الله فيه».

وهذا أحمد بن حنبل يسطر مثلًا رائعًا في سلامة الصدر، دخل عبد الله على أبيه أحمد بن حنبل وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾[1] فقال: يا أبت، ما يبكيك؟ قال: يا بني تذكرت وقوف المعتصم بين يدي الله يسأله: لم فعلت ذلك بأحمد؟ اللهم إني عفوت عنه اللهم اغفر له، واجعلها له كفارة. فتأمل -رعاك الله- كيف رباهم القرآن وهذّب أخلاقهم.

---

(١) سورة الشورى: ٤٠.

وجاء رجل كبير السن يهادي بين رجلين فانكبّ على الإمام أحمد يقبل رأسه قال: «يا إمام لعلك لم تعرفني، قال الإمام أحمد: ما عرفتك، قال: أنا ممن جلدك وقت الفتنة اعفُ عني، فقال عبد الله: يا أبتِ، لا تعفُ عمن جلدك، قال: يا بني وما ينفعك أن يعذب الله مسلمًا بسببك؟ إني سمعت في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أن مناديًا ينادي يوم القيامة ثلاثًا: «من كان أجره على الله فليقم فليأخذ أجره بلا حساب».

ما أجمل العفو، وما ألذّ عاقبته.

إذا ما الذنب وافى باعتذار ... فقابله بعفو وابتسام

ولا تحقد وإن ملئت غيظًا ... فإن العفو من شيم الكرام

واستحلت أم حبيبة عند موتها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: «يا عائشة إنه يكون بيني وبينك ما يكون بين الضرائر، عفا الله عنك وعني»، فقالت عائشة: «بل عفا الله عنك وغفر لك وتجاوز عنك، فقالت لها أم حبيبة: سرّك الله كما سررتِني».

سابّ رجل الإمام الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «إن كان فيّ ما تقول، غفر الله لي، وإن لم يكن فيّ غفر الله لك».

وهل أتاك نبأ الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ مع ذلك الرجل من الخرج؟ فقد تولى الشيخ القضاء في مدينة الخرج وجاءه رجل في قضية فسب الرجل الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، وشاع الخبر في المدينة وخرج الشيخ إلى الحج، وبينما كان الشيخ في الحج مرض الرجل ومات، فلما قُدِّم الرجل ليُصلَّى عليه، أبى الإمام الصلاة عليه بسبب سبه للشيخ ابن باز، وصلَّى غيره، فلما رجع الشيخ وأُخبر الخبر عاتب الإمام جدًّا على فعله، ولم يرض ما صنع، ثم إنه سأل عن قبر الرجل فأتاه وصلَّى عليه ودعا له. فأين نحن من هؤلاء؟!

خطورة فساد ذات البين وعدم سلامة الصدر:

١- فوات الفضائل والخيرات، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال: خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعرض الأعمال في كل يوم خميس واثنين، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئًا، إلا امرأً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: اتركوا هذين حتى يصطلحا، اتركوا هذين حتى يصطلحا**»[٢].

٢- الغيبة، فمن في قلبه غل وحقد وحسد لا يستريح حتى يستشفي من صاحبه بالغيبة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[٣]. وجاء في الحديث العظيم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: أتدرون ما المفلس قالوا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع قال رسول الله ﷺ: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته

---

(١) السلسلة الصحيحة.

(٢) السلسلة الصحيحة.

(٣) سورة الحجرات: ١٢.

قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[1].

٣- سوء الخاتمة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار**»[2].

٤- تتبع العثرات، قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته**»[3].

٥- ما يحصل من الأمراض المعنوية والعضوية كأمراض الضغط والسكر[4] والقلق والتوتر الدائم بسبب كثرة التفكير والرغبة في الانتقام والاشتغال بما لا يعني، قال ﷺ: «**من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه**»[5].

وعن هشام بن عامر الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يصارم مسلمًا فوق ثلاث، فإنهما ناكبان عن الحق ما داما على صرامهما، وإن أولهما فيئًا يكون كفارته عند سبقه بالفيء، وإن ماتا على صِرامهما لم يدخلا الجنة جميعًا أبدًا، وإن سلَّم عليه فأبى أن يقبل تسليمه وسلامه، رد عليه الملك، ورد على الآخر الشيطان**»[6].

---

(١) صحيح مسلم: ٢٥٨١.

(٢) صحيح الجامع: ٧٦٥٩.

(٣) سنن أبي داود: ٤٨٨٠.

(٤) لايعني أن من يشتكي من هذا المرض أنه غير سليم الصدر، ولكنها سبب من الأسباب، وكلٌّ أعلم بحاله.

(٥) السلسلة الصحيحة: ٩٢٨.

(٦) السلسلة الصحيحة: ١٢٤٦.

الأسباب المعينة على سلامة الصدر:

١- قراءة القرآن وتدبره:

فهو دواء لكل داء، والمحروم من لم يتداو بكتاب الله، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[١]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٢] قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصحيح أن (من) ها هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]. فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية وأدواء الدنيا والآخرة».

٢- أن يعلم العبد أن ذلك الشر الذي يجده من أهله وقرابته هو من البلاء الذي يستجلب معه الصبر وأن هذه الفتنة ترد بالصبر على الأذى، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[٤].

٣- معرفة الأجر العظيم وما ينتظر العافين:

قال ﷻ مخبرًا بهذا الجزاء العظيم: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٥]، يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي يجزيه أجرًا عظيمًا، وثوابًا كثيرًا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو

---

(١) سورة فصلت: ٤٤.

(٢) سورة الإسراء: ٨٢.

(٣) سورة يونس: ٥٧.

(٤) سورة الفرقان: ٢٠.

(٥) سورة الشورى: ٤٠.

عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذا الحال لا يكون مأمورًا به، وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فليعف عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل».

ثم تأمل هذا الحديث العظيم قال رسول الله ﷺ: «يأتي عبدان بين يدي الله يوم القيامة، فيقول أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ للظالم: أعط أخاك مظلمته، فيقول الآخر: يا رب فنيت حسناتي، فيقول الله تعالى: فنيت حسنات أخيك، فيقول الآخر،: يا رب، فليحمل من أوزاري فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: هل لك في خير من ذلك؟ فيقول المظلوم: وما ذاك يا رب؟ فيقول الرب: ارفع رأسك.....فيرفع رأسه فيرى قصرًا من أجمل ما يكون فيقول: لمن هذا يا رب؟ لنبي هذا؟ أم لشهيد؟ فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: بل هو لك! فيقول: كيف ذلك؟! فيقول الله تبارك وتعالى: بعفوك عن أخيك! فيقول: عفوت يا رب!.....فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: خذ بيد أخيك وادخلا الجنة»[1].

هذا أجر من عفا عفوًا اضطراريًّا أي اضطره النعيم إلى العفو، فكيف بمن عفا عفوًا اختياريًّا في حياته وبإرادته، وقال مبشرًا بجزاء لا حد له ولا علم لأحد به: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[2] ويقول سبحانه: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[3] فكأنه علّق نتيجة عفوه عنا، بعفونا عن الناس.

(١) ضعيف الترغيب والترهيب: ١٤٦٩.

(٢) سورة السجدة: ١٧.

(٣) سورة النور: ٢٢.

٤- الدعـاء والاستعانة بالله واللجوء إليه:-

فإنه من أعظم الأسباب لتحقيق المقصود، وكان من دعاء نبينا ﷺ: «**وأسألك قلبًا سليما**»(١)، فمن رزق الدعاء فإن الإجابة معه. فيدعو العبد ربه دائمًا أن يجعل قلبه سليمًا على إخوانه، وأن يدعو لهم أيضًا، فهذا دأب الصالحين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾(٢) وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم اسلل سخيمة قلبي**» و«**اللهم ارزقني قلبًا طاهرًا**».

٥- الصدقـة:

فهي تُطهر القلب، وتُزكي النفس، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾(٣). وقد قال النبي ﷺ: «**داووا مرضاكم بالصدقة**»(٤). وإن أحق المرضى بالمداواة مرضى القلوب، وأحق القلوب بذلك قلبك الذي بين جنبيك.

٦- حُسن الظن وحمل الكلمات والمواقف على أحسن المحامل:

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملًا». وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: من أراد أن يقضي له

---

(١) صحيح ابن حبان: ١٩٧٤.

(٢) سورة الحشر: ١٠.

(٣) سورة التوبة: ١٠٣.

(٤) صحيح الجامع: ٣٣٥٨.

الله بخير فليحسن ظنه بالناس. ولما دخل عليه أحد إخوانه يعوده قال: قوّى الله ضعفك، فقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو قوى ضعفي لقتلني، قال الزائر: والله ما أردت إلا الخير، فقال الإمام: أعلم أنك لو سببتني ما أردت إلا الخير.

فهذا الربيع بن خثيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يترصده رجل فيرميه بحجر فيشج رأسه وهو يمسح الدم ويقول: اللهم اغفر له فإنه لم يتعمدني.

وهذا ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما سرقت صرة أمواله وهو في طريقه إلى السوق، وقد وضعها في عمامته، فقال له الناس: ادع على السارق، قال: اللهم إن كان محتاجًا فبارك له فيها، وإن كان أخذها معصية فاجعلها آخر معاصيه.

٧- التماس الأعذار وإقالة العثرات والتغاضي عن الزلات:

التمس لأخيك سبعين عذرًا؛ يقول ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا فإن لم تجد فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه يا أخي من المعصوم من الخطأ والزلات؟!.. قال بعضهم: الفتوة التجاوز عن زلات الإخوان. تذكَّر سوابق إحسانه فإنه مما يعين على التماس العذر وسلامة الصدر، واعلم أن الرجل من عُدَّت سقطاته، استحضر أن المؤمن يلتمس المعاذير، والمنافق يلتمس العثرات، تذكر أن من تنفث عليه سُمُومك، وتناله بسهامك هو أخ مُسلم ليس يهوديًّا ولا نصرانيًّا، بل يجمعك به رابطة الإسلام، فلِمَ توجه الأذى نحوه؟ فالمؤمن يبحث عن أعذار إخوانه، والمنافق يبحث عن عثراتهم.

٨- ضبط النفس في كل ميدان وإرغامها على الإيمان بالقدر والإيمان بحكمة الله في قسم الأرزاق:

فإن العبد إذا آمن أن الأرزاق مقسومة مكتوبة رضي بما هو فيه ولم يجد في قلبه حسدًا لأحد من الناس على خير أعطاه الله إياه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرضا: «إنه يفتح للعبد باب السلامة، فيجعل قلبه نقيًّا من الغش والدغل والغل، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم، كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا، وكلما كان العبد أشد رضا كان قلبه أسلم، فالخبث والدغل والغش: قرين السخط، وسلامة القلب وبره ونصحه: قرين الرضا، وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا».

٩-صيام ثلاثة أيام من كل شهر:

يقول ﷺ: «**ألا أخبركم بما يذهب وحر الصدر؟ صيام ثلاثة أيام من كل شهر**»[1].

١٠- النصيحة:

فالفاجر يهتك الستر ويعيّر، والمؤمن ينصح ويعفو، أولا تحب عندما تكون في خطأ أن يوجه أحدهم لك نصيحة توقظ إيمانك وتوجهك للخير، فكذلك الناس.

---

(١) سنن النسائي: ٢٣٨٥، صحيح الجامع: ٢٦٠٨.

١١-أن تحب لإخوانك ما تحبه لنفسك:

كلنا ذو خطأ وأصحاب تقصير وزلل، وبلا شك أنك تحب أن يُعفى عنك ويُتغاضى عن زلتك، فكذلك إخوانك المسلمون، فقد جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**من أحب أن يلقى الله وهو عليه راضٍ، فليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يُؤتى إليه**».

١٢- الدعاء لمن ظلمك:

وستجد أثرها من سكينة واطمئنان، ألم يقل الله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] جرب ولن تخسر، فالملَك يقول: ولك مثل ذلك، وما دفعت سيئاته بأحسن من دعائك له، فلكل من ظلمك قل: «اللهم إن خطأهم علي بذنب قد أحدثته بيني وبينك، اللهم فاغفر لي ما كان بيني وبينك، واغفر لهم مغفرة من عندك تسلل بها سخيمة قلبي وقلوبهم» أو نحوه من الدعاء.

١٣-منهج القرآن العظيم فتبينوا:

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾[2] تأمل حمنة بنت جحش لما جاءت لزينب بنت جحش وكانت ممن تكلم في حادثة الإفك، فقالت: أسمعت ما يقوله الناس في عائشة، فلله درها ما شهدت على عائشة إلا خيرًا، فقالت: قومي عني ما علمت عن أختي إلا خيرًا إنها صوامة قوامة.

---

(١) سورة الفتح: ٢٦.

(٢) سورة الحجرات: ٦.

وهذه قصة صفية بنت حيي واتهام الجارية لها عند عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنها تحب اليهود، وتحب يوم السبت، فنهج عمر رضي الله عنه وأرضاه منهج القرآن فتبين من صفية، قالت: يا أمير المؤمنين أما أنا فلا أحب إلا يوم الجمعة، وأما حبي لليهود فإني لي أخوال وأعمام أزورهم وأصلهم.

فكم من حق ضاع وباطل انتهض والسبب هجرنا لأمر ربنا.

١٤- الهدية:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**تهادوا تحابوا**»[١] فالهدية تؤلف القلوب، وتنقي سخائم الصدور، وتذهب الغل، وتغني عن كثير من الكلام والاعتذار، وهي برهان على صفاء القلب ومودته.

١٥- تذكر حال النبي ﷺ ومواقفه في العفو:

وأخيرًا.. اعلم أنه لن يدخل الجنّة من كان في قلبه غل أو حقد أو حسد، يقول تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[٢].

فسارع إلى تنقية قلبك في الدنيا لتنال الدرجات العلى في الجنّة، وهنيئًا لأصحاب القلوب البيضاء الذين امتثلوا فعل أبي ضمضم وكانوا بمثل جُوده، أولئك الذين إذا أصبح أحدهم قال: «اللهم إني لا أجد ما أتصدق به من مال أو متاع، اللهم إني تصدقت بعرضي على كل من سبّني أو شتمني أو استهزأ بي، اللهم اجعلها له كفارة» وأثنى عليه النبي ﷺ حين قال: «**أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضمضم؟**».

---

(١) صحيح الجامع: ٣٠٠٤.

(٢) سورة الحجر: ٤٧.

فالمتأمل في واقع مجتمعاتنا -والله المستعان- يجد مبالغة في الانتقام لأمور الدنيا التي قلّ من يتعامل معها بكلمة التقوى، سواء مع الأهل أو الأصدقاء أو حتى الأزواج، وهذه صفة نفاق (وإذا خاصم فجر) يعرفها الإنسان من نفسه في عدد من الأحيان، فالتقوى هي سفينة النجاة يوم القيامة، فهل حقًّا ألزمنا أنفسنا كلمة التقوى؟

من الآن ومن هذا المنطلق سامح كل من أخطأ عليك أو ظلمك، وليكن لك من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1] حظ ونصيب.

رزقنا الله وإياكم صدورًا سليمة لا تحمل غلًّا ولا حسدًا ولا حقدًا.

(١) سورة فصلت: ٣٤.

المعراج العشرون

الثبات



على قدر ثباتكَ على دين الله اليوم

سيكون ثباتكَ على الصراط غدًا فتأهب

المعراج العشرون

الثبات



قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]

حين يتراكم غبار الغفلة على القلوب، تجد ما تبقى فيها من الحياة يسعى لإزاحة هذا الغبار عنها حرصًا على سلامة الدين ونجاةً بالقلب من ألوان المرض التي تفضي به إلى الموت لا محالة -إلا أن يتداركه الله برحمته- لذا تجد أن الأمر جد خطير حين يجد العبد نفسه على مفترق الطرق بين أن يراقب قلبه ويسعى للحفاظ عليه دومًا من مؤثرات الفتن مهما اشتدت عليه استعارًا حتى يسلم بدينه وينجو من عذاب يوم المحشر، وبين أن يهمل قلبه ويتركه هملًا دون مراقبة أو خشية، معرِّضًا إياه لألوان الفتن التي تزيده ظلمة وقسوة حتى تأتيه ساعة الرحيل فتكون حسن الخاتمة أبعد ما تكون منه، فالثبات على دين الله مطلب أساس لكل مسلم صادق يريد سلوك الصراط المستقيم بعزيمة ورشد.

معنى الثبات:

الاستقامة على الهدى، والتمسك بالتقى، وإلجام النفس وقسرها على سلوك طريق الحق والخير، وعدم الالتفات إلى صوارف الهوى والشيطان،

(١) سورة إبراهيم: ٢٧.

ونوازع النفس والطغيان، مع سرعة الأوبة والتوبة حال ملابسة الإثم أو الركون إلى الدنيا.

لمَ الحديث عن الثبات؟

* لأن طريق العبادة والطاعة والدعوة شاق ومحفوف بالمحن والابتلاءات، وطويل لا ينتهي إلا بنهاية الحياة؛ قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾[1] لذلك لا بد من الثبات على الطريق والاستمرار فيه مهما طال، ومقاومة المعوقات وتخطي العقبات مهما كثرت.

* لأن العبرة عند الله بالخواتيم، فلا يكفي أن يستقيم الإنسان فترة من الزمن ثم ينكص على عقبيه، لذلك جاء التوجيه الرباني للمؤمنين بالثبات على الإسلام حتى الممات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[2] وهذا يخوف القلب الحي، يناديهم في بداية الآية بالإيمان ثم يوصيهم في ختامها بأن يثبتوا على دينهم ولا يرضوا أن يموتوا على غيره، وفي الحديث عنه ﷺ: «**وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»[3].

* ما نراه من تنازل البعض وتراجعهم عن طريق الاستقامة إلا من رحم الله بعد أن كان بعضهم في يوم من الأيام شعلةً تتوقد حماسًا للالتزام بالإسلام والدعوة إليه، وفجأة انطفأت تلك الشمعة واختفت تلك الجذوة،

---

(١) سورة الحجر: ٩٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٣) صحيح البخاري: ٣٣٣٢، وصحيح مسلم: ٢٦٤٣.

وهو ما ينبئك عن سر تكرار ذلك الدعاء النبوي الذي لهج به قلب رسولنا ولسانه ﷺ: «**اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك**».

* خفة القلب وسرعة تحوله وتقلّبه حتى شبهه بالريشة في خفته، فعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما سمي القلب من تقلبه، إنما مثل القلب مثل ريشة بالفلاة، تعلقت في أصل شجرة، يقلبها الريح ظهرًا لبطن**» [(١)]. فاللهم نسألك الثبات على دينك.. وحديث آخر يجعل القلب في وجل ويسأل الله الثبات وحسنَ الختام، وهو ما رواه أحمد عن المقداد بن الأسود قال: لا أقول في رجل خيرًا أو شرًّا حتى أنظر ما يختم له، بعد حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «**لقلب ابن آدم أشد انقلابًا من القدر إذا استجمعت غليانها**»[(٢)]. يا رب رحماك! ولما كان القلب بهذه الخفة، وبهذه التقلبات، فقد كان رسول الله ﷺ -وهو أعلم الناس بربه وأتقى الناس له وأثبت الناس على دينه- يسأل ربه أن يثبته، فعن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله يكثر أن يقول: «**اللهم ثبت قلبي على دينك**» فقال رجل: يا رسول الله أتخاف علينا، وقد آمنا بك وصدقناك بما جئت به؟! فقال: «**إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن** عَزَّوَجَلَّ **يقلبها**»[(٣)]، وروى الترمذي عن شهر بن حوشب قال: «قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، قالت: فقلت: يا رسول الله، ما لأكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال: «يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من

(١) صحيح الجامع: ٢٣٦٥.

(٢) السلسلة الصحيحة: ١٧٧٢.

(٣) سنن ابن ماجه: ٣٨٣٤.

أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ» فتلا معاذ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾[1] [2].

* ومما يدعونا أيضًا للحديث عن الثبات كثرة الفتن، وشدة التضييق والمحن -في عصرنا هذا- تدعو إلى ضرورة التواصي بين المؤمنين بالثبات على الحق الذي التزموه، والتمسك بالمنهج الذي ساروا عليه مهما عظمت التبعات وكثرت التضحيات؛ ولهذا كانت وصية رسول الله ﷺ لأتباعه وجنوده عند اشتداد الفتن: «**يا عباد الله اثبتوا**»[3]. وعباد الله يتواصون لعل في تواصيهم نجاة من الخسارة ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[4] يقول الشافعي عن هذه الآية: لو ما أنزل الله على هذه الأمة غير هذه الآية لكفتهم.

* **تشاغل كثير من الناس عن طلب العلم، وانكبابهم على الدنيا** وتنافسهم فيها، خصوصًا في هذا الزمن الذي لا ينجو من فتنه إلا من رحم الله، والنبي ﷺ قال في الحديث: «**تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين: قلب أسود مُرْبَادًّا كالكوز مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض**»[5].

---

(١) سورة آل عمران: ٨.

(٢) السلسلة الصحيحة: ٢٠٩١.

(٣) سنن ابن ماجه: ٤٠٧٥، وسنن الترمذي: ٢٢٤٠.

(٤) سورة العصر: ٣.

(٥) صحيح مسلم: ١٤٤.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذا الحديث في كتابه إغاثة اللهفان: «فشبه عرض الفتن على القلوب شيئًا فشيئًا كعرض عيدان الحصير، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين: قلب إذا عرضت عليه فتنة أُشْرِبها، كما يشرب الإسفنج الماء، فتُنكَت فيهِ نُكتةٌ سَوداءُ، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، وهو معنى قوله: كالكوز مجخيا؛ «أي مكبوبًا منكوسًا، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك: أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلًا والباطل حقًا، الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ وانقياده للهوى واتباعه له.

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها، فازداد نوره وإشراقه وقوته.

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، فإن الغي والضلال، وفتن المعاصي والبدع، وفتن الظلم والجهل. فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد». انتهى كلامه.

كيف يعرف العبد أنه قد أصابته الفتنة؟؟!

سُئل حذيفة بن اليمان: كيف يعرف الرجل منا هل أصابته فتنة أم لا؟ قال: «إن كنت ما تراه حرامًا بالأمس تراه حلالًا اليوم فقد فُتنـــت..».

ثمرات الثبات:

الثبات شجرة راسخة الجذور وفرعها في السماء شامخ، تؤتي ثمارها كل حين بإذن ربها، إليك بعض ثمارها اليانعة لتكون لك زادًا في طريق دعوتك:

❖ النصر على الأعداء:

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[1] «إن سؤالهم: مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ليُصور مدى المحنة التي تزلزل تلك القلوب الموصولة، ولن تكون إلا محنة فوق الوصف، تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب « مَتَى نَصْرُ اللَّهِ»، وعندما ثبتت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة، عندئذ تتم كلمة الله، ويجيء النصر من الله: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ إنه مدخَر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون إلى النهاية، الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة، الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله».

❖ التثبت عند الموت وعند السؤال وعلى الصراط والوقوف بين يدي الله:

وإذا تحقق نصر المرء على نفسه وهواه والشيطان فقد تحقق نصره العظيم على مستوى الأمة، وعلى قدر ثبات العبد على الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثباته على الصراط المنصوب على

---

(١) سورة البقرة: ٢١٤.

متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط في الدنيا يكون سيره على ذلك الصراط فمنهم من يمر مر البرق ومنهم من يمر مر كالطرف ومنهم كالريح ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من يحبو حبوًا ومنهم المخدوش ومنهم من يسقط في جهنّم، وهل تجزون إلا ما كنتم تعملون، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**فيمر أولكم كالبرق، قال: قلت: بأبي أنت وأمي، أي شيء كمر البرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمر، ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وأشد الرجال تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط، يقول: رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفًا، قال: وفي حافتي الصراط كلاليب**[1] **معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به؛ فمخدوش ناج، ومكدوس في النار**»[2]. ولذا نحن في اليوم مرات ومرات ندعو الله أن يثبّتنا على الصراط المستقيم ونقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[3].

❖ الجزاء العظيم ودخول الجنة:

فلكل من استطال الطريق عندما تعلم أن نهاية أي طريق شاق هو الجنة فإنك لا شك ستصبر لأن النهاية مشرقة ومثمرة، ويا لها من ثمرة شمّر لها المشمرون، وسعى إليها العاملون، وهي مدخرة لأصحاب

---

(١) جمع كَلُّوب حديدة معطوفة الرأس.

(٢) صحيح مسلم: ١٩٥.

(٣) سورة الفاتحة: ٦-٧.

الثَّبات الذين ثبتوا على عقيدتهم ودعوتهم لم تزعزعهم شدة، ولم تغرّهم شهوة، ولم يهنوا لمحنة أو لفتنة، مضوا على الدرب مجاهدين، وعلى عقباته ومصاعبه صابرين، باعوا أنفسهم لله عَزَّوَجَلَّ ففازوا بوعد الله لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[1] فالثبات شرط لا بد من التحقق منه قبل دخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[2]، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمعنى: أحسبتم يا من انهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الذين قُتلوا وصبروا على ألَم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم؟ لا؛ حَتَّى ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء.

❖ حسن الخاتمة:

ومن ثمرات الثبات حسن الخاتمة والتي هي مطلب كل مؤمن قبل الرحيل من هذه الدار، وقد ذُكر عن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان حين احتضاره يغمى عليه فيسمعونه يقول: لا بعد، لا بعد، فلما أفاق قيل له: يا أبا عبد الله ما قولك: لا بعد، لا بعد؟ قال: إن الشيطان يتمثل أمامي يقول: فُتّني يا أحمد فُتّني يا أحمد، فأقول له: لا بعد، لا بعد؛

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٢.

يعني: لم أَفُتْك؛ لأن الإنسان لا ينجو من الشيطان إلا إذا مات، إذا مات انقطع عمله ولا رجاء للشيطان فيه إن كان مؤمنًا، فيقول الإمام أحمد: إني أقول: لا بعد، لا بعد؛ أي لم أفتك لجواز أن يحصل من الشيطان فتنة عند موت الإنسان.

❖ تحقيق الهدف وبلوغ الغايات:

الثبات من أكبر أسباب نجاح المرء في مهمته، وبلوغ غايته، فمع العمل الجاد، والصبر والمثابرة، يصل المرء إلى ما يصبو إليه من الأهداف والغايات، ويرقى إلى ما يطمح إليه من الدرجات والأمنيات، وإلا فهي أوهام الكسالى وبضاعة الحمقى.

لا تحسبن المجد تمرًا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصَّبِرا

وكيف للمؤمن أن يتميز في إيمانه، ويبلغ غايته ويحقق أمنيته، دون أن يصل إلى نهاية الطريق!! وليس ذلك إلا بالثبات..

❖ الإعانة على الطاعات:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1] يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «علق ﷻ الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد: جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته الهدى بحسب ما عطل من الجهاد».

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٩.

❖ التفاؤل والنظرة المختلفة للحياة:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم»(١).

روي بفتح الكاف وضمها: «أهلكُهم وأهلكَهم»؛ أهلكُهم أشدهم هلاكًا، أهلكَهم: تسبب في إهلاكهم، في الحديث ذم التشاؤم وتقنيط النفس، واليأس، لا تقنطوا من روح الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (٢) ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (٣).

ودعاة الخير أولى الناس بالاجتناب عن هذا الأمر والحذر والبعد عنه، قال رجل للإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما ذكر ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المناقب: يا إمام ظهر الباطل على الحق، لما قامت المعتزلة بالفتنة، قال: كلا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعدُ لازمةٌ للحق. فبعض الناس ينظر إلى الخير الكبير بمنظار صغير، وينظر إلى الشر الصغير بمنظار كبير، كلما أخبر بخير زهَّد فيه وهوَّن من شأنه، ولو كان الخير عظيما، وكلما بلغته شائعة عن شيء عن أمر سوء ضخمه وأشاعه وأذاعه، وزاد نفسه وغيره تقنيطًا وتيئيسًا، إن دخل بيته فأخطأ أحد أولاده أو أهله في أمر، رماهم بأسوأ الألفاظ بالبعد عن الخير، بالفسق، بالفجور، ولو أحسنوا ما أحسنوا واجتهدوا لم يبال بهم، ينظر إلى الناس بمنظار مظلم، منظار شؤم، هذا

(١) صحيح مسلم: ٢٦٢٣.

(٢) سورة يوسف: ٨٧.

(٣) سورة الزمر: ٥٣.

لا يعيش عيشة هنيئة، هذا لا يرتاح في عبادته، ولا يطمئن في تلاوته ولا في دعائه؛ لأن الشيطان قد غلبه وقيده وأسره فأصبح مأسورًا مقادًا تابعًا لا متبوعًا، تابعا للشر للشيطان لا متبوعًا في الخير.

فمن تحلى بالتفاؤل أصبحت حياته مشرقة سعيدة، بعيدة عن الآلام والهموم وذلك لحسن ظنه بالله..

ثقة الناس بدعوة الداعية الثابت:

يثق الناس في الثابت الراسخ، ويعظم أثره فيهم، حيث إنه يشيع فيهم الطمأنينة إلى حاله والركون إليه، بينما القلق المتقلب قلما يُركن إليه ويُوثق به، وهو عامل خوف واضطراب فيمن حوله.

معينات على الثبات:

الثبات على الحق مطلب كل مؤمن، وهمّ كل داعية، لا سيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه الابتلاءات والفتن، وتنوعت وسائل الإضلال والمحن حتى أصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر؛ لهذا لا بد من بذل أسباب الثبات، وفعل ما يقويه في القلوب، ويرسخه في النفوس، ولعلي أذكر بعض ما يعين على الثبات في الدعوة إلى الله وكذلك الثبات على دينه.

الارتباط بالقرآن الكريم:

الارتباط بكتاب الله تلاوة وحفظًا، تدبرًا وعملًا، من أعظم أسباب الثبات، فهذا غراس الإيمان، يثبت الله به الأقدام، ويربط على القلوب ويذهب به رجس الشيطان، قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ

﴿بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[1] يثبت قلوب المؤمنين بالحق الذي جاء فيه، وبالهدى الذي يهديهم إليه، وبالبشائر التي يبشرهم بها.

- يرى فيه المؤمنون ثبات الأنبياء ورسوخ الأصفياء على مبادئهم ودعوتهم، وإن تعرضوا للإساءة والأذى.. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[2] فيزداد ثباتًا.
- ويقرأ المؤمن فيه وصية الله له كلما أصابه قرح: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾[3]؛ فيزداد شموخًا.
- ويسمع المؤمن في آياته أخبار إخوانه ممن سبقوه في طريق الدعوة، وكيف ثبتوا وصبروا ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[4]؛ فيزداد رسوخًا.

فعل الخيرات والاشتغال بالصالحات والمداومة عليها:

النفس إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالباطل؛ ولهذا كان من أسباب الثبات دوام فعل الخيرات، وشغل النفس بالصالحات؛ حتى لا تألف الدعة والركود والتثاقل والجمود، وهي خطوات تقود إلى النكوص والسقوط،

(١) سورة النحل: ١٠٢.
(٢) سورة هود: ١٢٠.
(٣) سورة محمد: ٣٥.
(٤) سورة آل عمران: ١٤٦.

وإثباتها. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»[1].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه الحث على المداومة على العمل، وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خيرًا من الكثير المنقطع؛ لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق عَزَّوَجَلَّ، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة».

وكذلك مما ينبغي شغل النفس به الدعوة إلى الله، فهي وظيفة الرسل، فيها تتفجر الطاقات، وتنجز المهمات، قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[2] طعم الدعوة رائع لا يتذوقه إلا من عمل به.

ومن ذلك الدعوة إلى المنهج الصحيح ببذل الوقت وكد الفكر، وسعي الجسد، وانطلاق اللسان، بحيث تصبح الدعوة همّ المسلم وشغله الشاغل، ويقطع الطريق على محاولات الشيطان بالإضلال والفتنة، وكذلك ما يحدث في نفس الداعية من الشعور بالتحدي تجاه العوائق والمعاندين وأهل الباطل، وهو يسير في مشواره الدعوي؛ فيرتقي إيمانه، وتقوى أركانه؛ فتكون الدعوة بالإضافة لما فيها من الأجر العظيم «**وسيلة من وسائل الثبات والحماية من التراجع والتقهقر**» لأن الذي يهاجم لا يحتاج للدفاع، والله مع الدعاة يثبتهم ويسدد خطاهم؛ والداعية كالطبيب يحارب المرض بخبرته وعلمه، وبمحاربته في الآخرين فهو أبعد من غيره عن الوقوع فيه.

---

(١) صحيح البخاري: ٦٤٦٤، وصحيح مسلم: ٢٨١٨.

(٢) سورة الشورى: ١٥.

الدعـاء:

التثبيت نعمة إلهية، ومنحة ربانية، يربط الله بها على قلوب أحبابه، ويرسخ بها أقدام أوليائه، وقد امتن الله على رسوله ﷺ بنعمة التثبيت فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾[1]، ولهذا لهج الأنبياء والصالحون، وعباد الله المتقون، بسؤال الله تثبيتهم، لا سيما أيام الفتن والكروب، فهؤلاء الربيون يدعون الله ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾[2]، والقلة المؤمنة الصابرة من جنود طالوت يقولون متضرعين: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾[3]، وهذا سيد البشر ﷺ كان يكثر من قول: «اللهم ثبت قلبي على دينك» وربما جهر بدعائه بالثبات له ولأصحابه فقال في غزوة الأحزاب وهو ينقل التراب مع أصحابه: «**لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزلن سكينة علينا، وثبت الأقدام إن لاقينا، إن الأُلى قد بغوا علينا، إذا أرادوا فتنةً أبينا**»[4]. وتأمل الحديث العظيم الذي يقول فيه المصطفى ﷺ: «**إذا كنزَ الناسُ الذهبَ والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكرَ نعمتك، وأسألك حُسْنَ عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، وأسألك لسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت**

---

(١) سورة الإسراء: ٧٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٠.

(٤) صحيح البخاري: ٢٨٣٧، وصحيح مسلم: ١٨٠٣.

علام الغيوب»[1]. وقد أمَّنَ النبي ﷺ على دعاء ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسماه العلماء دعاء الثبات: «اللهمَّ إنِّي أسألُك إيمانًا لا يرتَدُّ، ونعيمًا لا ينفَدُ، ومرافقةَ محمَّدٍ ﷺ في أعلى جنَّةِ الخُلدِ»[2].

الارتباط بالصحبة الصالحة:

إن معايشة الأخيار وصحبة الأبرار من أكبر الأسباب المعينة على الثبات لما فيها من التعاون على الخير، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وشغل الوقت بما يقرب الإنسان إلى ربه ويعينه على نفسه؛ ولهذا أمر الله رسوله ﷺ بمعايشتهم وصحبتهم مع الصبر عليهم فيما قد يبدو منهم من تقصير في حقه أو أذى لشخصه فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[3] وقال ﷺ: « **المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**»[4]. وإذا كانت صحبة الصالحين من أسباب الثبات، فإن صحبة غير الصالحين من أكبر أسباب النكوص والفتور؛ ولهذا حذرنا الحق عَزَّوَجَلَّ من هذا المنزلق في كتابه فقال: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾[5] وكم كانت غواية البعض بسبب صداقات قديمة في جاهليتهم أحيوها في فترة فتور؛ فكانت

---

(١) السلسلة الصحيحة: ٣٢٢٨.

(٢) السلسلة الصحيحة: ٢٣٠١.

(٣) سورة الكهف: ٢٨.

(٤) السلسلة الصحيحة: ٩٢٧.

(٥) سورة الفرقان: ٢٩.

سببًا في فتنتهم وانحرافهم، والعياذ بالله.

ومن اللطائف أن صديقًا لابن المنكدر رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يقول: إذا كسلت عن الطاعة زرت ابن المنكدر، فتقويت على الطاعة أسبوعًا.

لا تعرض نفسك للفتنة:

فهذا كعب بن مالك لما جاءه كتاب ملك الشام عندما هجرهم الرسول ﷺ وأصحابه، قال له في الكتاب: «إنا بلغنا أن صاحبك قد جفاك - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - فالحق بنا نواسك»؛ أي ائت إلينا نواسك ونجعلك في مقام تحمده، ولكنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لقوة إيمانه لما أتاه هذا الكتاب مزقه ثم عمد إلى التنور فسجره به وأحرقه وصبر وإلا فإن الفرصة مواتية له لو كان يريد الدنيا لكنه يريد الآخرة، فكانت النتيجة هذه النتيجة العظيمة التي تعتبر من أعظم المفاخر أنزل الله **فيهم قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة:** ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [1].

قراءة السيرة النبوية وسير السلف الصالح:

لقد قص الله على نبيه ﷺ سير إخوانه من الأنبياء، فذكر له صبرهم وثباتهم، وقال له: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [2] وقال

---

(١) سورة التوبة: ١١٧-١١٨.

(٢) سورة الأنعام: ٩٠.

عز من قائل: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[1]. فالوقوف على سيرة الرسول ﷺ وسير الصالحين، ومعرفة ما كانوا عليه من إيمان وعزيمة ويقين مما يبعث الثبات في القلب؛ ولهذا عندما قسَم النبي ﷺ قَسْمًا، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله.. قال النبي ﷺ عندما علم بذلك: «يرحم الله موسى، قد أُوذي بأكثر من هذا فصبر»[2] فاستشهد النبي ﷺ بسيرة نبي قبله ليعين نفسه على الثبات والصبر. وكان النبي ﷺ يقص على أصحابه سير السابقين، ويخبرهم عن صبرهم وثباتهم، وتمسكهم بدين الله على الرغم من شدة الابتلاء ليتأسوا بهم، قال خباب: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا! فقال ﷺ: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُه ذلك عن دينه**»[3].

ثقة الداعية بدعوته وبنصر الله لدينه:

ثقة الداعية فيما يدعو إليه، وإيمانه بصدق دعوته، وسموِّ عقيدته، وأصالة مبادئه، من أكبر العوامل التي تزيده ثباتًا على دعوته مهما أعرض عنها الغافلون، أو افترى عليها الأفّاكون؛ فلا يزيده ذلك إلا رسوخًا

---

(١) سورة هود: ١٢٠.

(٢) صحيح البخاري: ٣١٥٠، وصحيح مسلم: ١٠٦٢.

(٣) صحيح البخاري: ٦٩٤٣.

وشموخًا، فلا ييأس لقلة المستجيبين له، فله أسوة حسنة في أنبياء الله الذين أخبرنا الله عنهم في كتابه، ومنهم نوح عليه السلام الذي قال الله في شأنه: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾[1]. فحصيلة دعوة نوح وجهاده بالليل والنهار لألف سنة إلا خمسين عامًا كانت اثني عشر مؤمنًا كما تذكر بعض الروايات، بل هناك من الأنبياء من لم يستجب لهم أحد، ومع هذا ظلوا على منهجهم ودعوتهم ثابتين، قال رسول الله ﷺ: «**عُرضت عليّ الأمم، فجعل يمر النبي ومعه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي ومعه الرهط، والنبي ليس معه أحد**»[2].

ومن أمثلة تلك السير المشرّفة:

ثبات بلال بن رباح رضي الله عنه:

ثبت على دينه أمام تلك الصخور العظيمة التي توضع على ظهره وصدره إذا حميت الظهيرة في رمضاء مكة وهو يقول: «أحد، أحد»، فلما سأله الصحابة: كيف تحملت هذا العذاب؟ قال مقالة الواثق في موعود ربه: «والله لقد ذقت حلاوة الإيمان وارتفع الإيمان في قلبي حتى إنني لم أشعر بمرارة العذاب».

ثبات عبد الله بن حذافة السهمي:

فها هو يضرب أروع أمثلة العزة والثبات على دين الله حيث دفع هرقل عبد الله إلى أحد رجاله وأوصاه أن يجيعه، ثم يطعمه لحم خنزير، فأجاعه الرجل وكان كل يوم يأتيه بلحم خنزير فيضعه أمامه ليأكله، ولكن عبد

(١) سورة هود: ٤٠.

(٢) صحيح البخاري: ٥٧٥٢، وصحيح مسلم: ٢٢٠.

الله كان يُعرض عنه، ويقول: هذا طعام لا يحل لنا أكله، ومضت على ذلك أيامٌ حتى شارف على الهلاك، فأخبر الرجل هرقل بذلك، فقال له: أطعمه ما يريد، ثم أعطشه، وأعطه خمرًا ليشربها بدلًا من الماء، ففعل الرجل ذلك، لكن ما ظنكم بصاحب رسول الله ﷺ أيُشمِت به الروم؟ كان يعرض عن الخمر ويقول: هذا شراب لا يحل لنا شربه، حتى أوشك على الهلاك، فأخبر الرجل هرقل بذلك، وقال له: إن كانت لك في الرجل حاجة فأطعمه ما يريد ودعه يشرب ما يريد قبل أن يهلك، فقال هرقل: دعه يأكل ويشرب ما يريد، إنني بلوته بالضراء وسأبلوه بالسراء، أرسلوا إليه أفخر الطعام والشراب والثياب و.... ففعل الرجل ذلك؛ ولكن عبد الله ما كان يلتفت إلى شيء بل كان لا يأكل إلا قوتًا، ولا يشرب إلا كفافًا، ولا يبدل ثوبه إلا إذا اتسخ، عند ذلك أرسل إليه هرقل وقال له: قد بلوتك بالضراء وبالسراء فصبرت، فهل لك أن تقبّل رأسي وتنجو بنفسك؟ قال:لا، لا أقبّل رأسك لأنجو بنفسي فقط.

فقال له: فهل لك أن تقبّل رأسي وأدفع لك كل أسير من المسلمين عندي؟ قال: نعم. وقبّل عبد الله بن حذافة رضي الله تعالى عنه رأس هرقل، ودفع إليه هرقل جميع أسارى المسلمين الذين عنده (و كانوا ثمانين رجلًا) فعاد بهم إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. وعندما قصّ القصة على عمر قام وقبّل رأسه وقال: حقٌّ على كل من رأى عبدالله أن يقبل رأسه، ثم قال له: يرحمك الله، ما منعك إذ بلغ بك الجهد ما بلغ أن تأكل لحم الخنزير، وأن تشرب الخمر؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين، لقد علمت أن ذلك موسَّعٌ لي فيه، ولكنني كرهت أن يشمت الروم وهرقل بالإسلام وأهله.

- **ثبات الإمام أحمد بن حنبل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شهدت حياة الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولاية المأمون بن هارون الرشيد، الذي مال إلى رأي المعتزلة بالقول أن القرآن مخلوق، وأيده ودعا الناس إليه، بل وامتحنهم عليه مهددًا متوعدًا، فأجابه إلى ما طلب علماء كثيرون مكرهين، ولم يبقَ على الحق إلا أقل القليل، في مقدمتهم الإمام أحمد الذي رأى أن تركه للحق -ولو مكرهًا- في ظل سكوت الجميع؛ يؤدي إلى ضياع الحق، وإضلال عوام الأمة، فأظهر صلابة وشدة في التمسك بالحق مهما كانت عواقب ذلك، ولم يُجب المأمون إلى ما طلب، ولكن المأمون لم يطل به العمر، فجاء من بعده «المعتصم» على نفس منهجه، فضرب الإمام أحمد بين يديه ضربًا شديدًا؛ أشرف به على الهلاك، فلم يتراجع، وناظره علماء المعتزلة، فلم يزد على الاستدلال بالكتاب والسنة، والرد على شبهاتهم المبنية على الخطأ في فهم كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وهو في ذلك لا يلتفت إلى استدلالاتهم العقلية، طالبًا منهم الدليل على ما يدَّعونه من كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، وهيهات!! ثم سجنه المعتصم، وحبسه حبسًا طويلًا. فلما خلفه الخليفة العباسي «الواثق» استمر الابتلاء حيث ألزم الإمام بالبقاء بداره، فلما تولى من بعده «المتوكل» خالف من سبقوه حيث أطلقه من حبسه بداره، وأظهر القول الحق بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وكشف عن الأمة ما كانت فيه من الغمة، وكرَّم الإمام أحمد، وأحسن إليه. فكان ثبات هذا الإمام الجليل على الحق، وتحمل العذاب الشديد، والحبس الطويل، وتمسكه بمنهج السلف بالاستدلال

بالكتاب والسنة، وتقديم النقل على العقل من أسباب تسميته رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإمام أهل السنة والجماعة، وهو بهذا الاسم جدير، فجزاه الله عن الأمة خيرًا.

- **ثبات ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أرسل إلى السلطان في مصر وحثه على الجهاد، وحرض أهل الشام على الجهاد - التتار يرعبون الدول التي يصلون إليها - فكان يقسم أن النصر حليف المسلمين، فيقولون له: قل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا وذهب إلى قائدهم فزجره وانتهره ورماه بالكفر ومعه وفد كلهم على يقين أن ابن تيمية سيقتله السلطان بعد كل ما قال له وانتهى الموقف وقال الرجل لابن تيمية: سننظر فيما قلت، وتركه يخرج من عنده سليمًا فقال الوفد لابن تيمية لن نسير معك في طريق بعد اليوم كدنا نقتل بسببك من السلطان، وتركوه وحده يعود من طريق وهم من طريق آخر. وكان يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»، ولما حبسوه في سجن القلعة قال: «ما يصنع بي أعدائي؟! جنتي وبستاني في صدري، أنى رحت لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة». وكان يقول: «المأسور من أسره هواه، والمحبوس من حبس عن ربه». وعند دخوله السجن نظر إلى سوره قائلًا: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾[1].

(١) سورة الحديد: ١٣.

التربية الراسخة الشاملة:

تربية إيمانية تلبي حاجات الروح بزاد إيماني يحيي القلب ويوقظه، ويغرس فيه حب الله وخشيته ودوام مراقبته، وحب الطاعات والحرص عليها من صيام وقيام؛ فكان ذلك الزاد حصنًا يستجنُّ به من زيغ الشهوات.

تربية ثقافية تعطي العقل حقه من العلم الشرعي، الذي يبدد غبش الشبهات، ويفرق به صاحبه بين الحق والباطل، ويكشف له زيغ البدع والضلالات، فيسير في دعوته على بصيرة، ثابتًا، لا تجرفه شهوة، ولا تزيغه شبهة.

تربية دعوية تدعو صاحبها للعمل على نشر الخير بين الناس، وإصلاح ما أفسده إبليس وجنوده بالحكمة والموعظة الحسنة، وتحارب الدعة والقعود والتكاسل والركود، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ وَأَعَدَّ..﴾[1] وتربي صاحبها على اتخاذ الأسباب من إعداد عدة، وتخطيط وتنظيم، ومعرفة بالواقع ومخططات الأعداء، مع التوكل على الله «**اعقلها وتوكل**» وتربية أيضًا على الصبر على عقبات الطريق، والاحتساب على ما يلقاه في سبيل دعوته من المشقة والتضييق، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾[2]، وفي الجملة هي تربية تثمر لنا شخصية إسلامية متكاملة، وكلما كان نصيب الداعية من هذه التربية موفورًا، كان عطاؤه وثباته كبيرًا، ومن شكر الدعوة الثبات على الدين، وأن يألف العبد ما يدعو له من الطاعات.

---

(١) سورة التوبة: ١٠٥.

(٢) سورة لقمان: ١٧.

تذكر وعود النصر والتمكين:

إن مما يعزز الثبات في القلوب: تذكُّر البشائر التي وعدها الحق عَزَّوَجَلَّ لأهل الحق في النصر والتمكين والفتح المبين، ولهذا عندما شكا بنو إسرائيل إلى موسى عليه السلام ما يلقونه من فرعون من فتنة وبلاء؛ أخذ عليه السلام يذكرهم بعاقبة أهل التقوى، وتمكين الله لهم في الأرض واستخلافهم فيها، ويلوّح لهم بالأمل في هلاك عدوهم، مع وصيته لهم بالصبر والثبات والاستعانة بالله على ذلك، كما قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[1] قال سيد قطب: «إن العاقبة للمتقين، طال الزمن أم قصر، فلا يخالج قلوب الداعين إلى رب العالمين قلق على المصير، ولا يخايل لهم تقلب الذين كفروا في البلاد، فيحسبونهم باقين».

وكذلك فعل سيد الأنبياء ﷺ عندما شكا إليه أصحابه ما يلقونه من بلاء على أيدي صناديد قريش، فأخذ يبشرهم بالنصر والتمكين فقال: «والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[2].

ويقول ﷺ مبشرًا بانتصار الإسلام وانتشاره في الأرض: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلًّا يذل الله به الكفر**»[3]. وهذه البشارة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ

(١) سورة الأعراف: ١٢٨.

(٢) صحيح البخاري: ٣٦١٢.

(٣) السلسلة الصحيحة: ٣.

بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ (١).

قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد يظن بعض الناس أن ذلك تحقق في عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، وليس كذلك؛ فالذي تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق».

تذكر أجر الثابتين وعاقبة الصابرين:-

لقد أشاد الله في كتابه بالثابتين، الذين لا يضطربون ولا يتزلزلون، وعن مبادئهم لا يتنازلون، وبدينهم يتمسكون مهما أجلب الناس حولهم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ (٢).

ويعظم أجر الثابتين مع عظم البلاء والفتنة؛ فكلما كان البلاء أشد والفتنة أكبر، كان الأجر أعظم، قال ﷺ: «**إن من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم**»، **قالوا: يا نبي الله، أو منهم؟ قال: « بل منكم**»(٣).

والداعية الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ويثبت على دعوته إياهم على الرغم من تنكرهم له وإعراضهم عنه، خير من مؤمن قد اعتزل الناس ولم يصبر على أذاهم، قال ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على**

---

(١) سورة التوبة: ٣٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٣- ١٧٤.

(٣) السلسلة الصحيحة: ٤٩٤.

أذاهم، أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[1].

تذكر نعمة الهداية وشقاء الغواية:

لا يشعر بعظم نعمة الهداية إلا من اكتوى بنار الغواية، ولا يقدر منّة الله عليه في الإيمان إلا من ذاق ويلات الفسوق والعصيان من ضياع وحيرة واضطراب، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[2] فمن أدرك قدر هذه النعمة عزّ عليه فراقها، ومن تذوق حلاوة هذه المنّة كره مرارة البعد عنها كما يكره أن يُلقى في النار، وتذكرُ نعمة الهداية مما يعزز في القلب الثبات عليها وطلب أسباب بقائها، وفي الحديث: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان**» وذكر منها: «**وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»[3]، ولذلك يذكّر الله عَزَّوَجَلَّ عباده بنعمته هذه، فيقول: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[4] ويقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾[5].

---

(١) السلسلة الصحيحة: ٩٣٩.

(٢) سورة الحجرات: ١٧.

(٣) صحيح البخاري: ١٦، وصحيح مسلم: ٤٣.

(٤) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٥) سورة الإسراء: ٧٤.

وهناك أسباب أخرى تعين على الثبات على وجه الاختصار:

- الذكر.
- تعلم العلم الشرعي.
- معرفة حقيقة الباطل وعدم الاغترار به، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾[1].
- التأمل في نعيم الجنة وعذاب النار.
- تذكر الموت والخوف من سوء الخاتمة.
- الصبر على طاعات الله وعن معصيته وعلى أقداره.

عوائق في طريق الثبات:

طريق الثابتين مليء بالمعوقات، كثير العقبات؛ ولكنه طريق ينتهي إلى الجنة، وقد قال ﷺ مخبرًا عن تلك العوائق: «**حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره**»[2]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح الحديث: «قال العلماء: هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أوتيها ﷺ من التمثيل الحسن، ومعناه لا يوصل الجنة إلا ارتكاب المكاره والنار بالشهوات، وكذلك هما محجوبتان بهما؛ فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات، فأما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات، والمواظبة عليها والصبر على مشاقها، وكظم الغيظ، والعفو، والحلم، والصدقة، والإحسان إلى المسيء، والصبر على الشهوات ونحو ذلك..

---

(١) سورة الأنعام: ٥٥.

(٢) صحيح البخاري: ٦٤٨٧، وصحيح مسلم: ٢٨٢٢ - ٢٨٢٣.

وأما الشهوات التي النار محفوفة بها فالظاهر أنها الشهوات المحرمة: كالخمر، والزنا، والغيبة، ونحو ذلك، وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه».

ومن هذه المعوقات:

ذنوب الخلوات:

ولأهمية هذا الأمر وخطره على الإيمان والثبات حري بنا أن نراقب الله في خلواتنا، وإياك إياك أن يكون الله تعالى أهون الناظرين إليك، تخالف أوامره، وتستجيب للشيطان وداعيه، يقول سحنون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إياك أن تكون عدوًّا لإبليس في العلانية، صديقًا له في السر»... إن هذه الذنوب التي تكون في الخلوات من أعظم المهلكات، ومحرقةٌ للحسنات، جاء عنه ﷺ أنه قال: «**لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضًا، فيجعلها الله** عَزَّوَجَلَّ **هباءً منثورًا**»، قال ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله صِفهم لنا، جَلِّهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «**أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها!!**»[1]، أترضى لنفسك يا رعاك الله أن تكون واحدًا من هؤلاء المحرومين الذين كان حظهم من أعمالهم التعب والمشقة، والآخرون في فضائل الله يتقلبون، ومن عظيم ما أعده ينهلون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾[2] ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[3] إذا أغلقت دونك الباب وأسدلت

(١) السلسلة الصحيحة: ٥٠٥.

(٢) سورة الملك: ١٢.

(٣) سورة النازعات: ٤٠-٤١.

على نافذتك الستار وغابت عنك أعين البشر، فتذكر مَنْ لا تخفى عليه خافية، تذكر من يرى ويسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، جل شأنه وتقدس سلطانه، اخشَ بارك الله فيك أن تَزِلَّ بك القدم بعد ثبوتها، وأن تنحرف عن الطريق بعد أن ذقت حلاوته، وأَشرب قلبك بلذته، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع العارفون بالله بأن ذنوب الخلوات هي أصل الانتكاسات، وأن عبادات الخفاء هي أعظم أسباب الثبات»، فهل يفرط موفق بصيد اقتنصه، وكنز نادر حَصَّله؟ احذر سلمك الله، فقد تكون تلك الهفوات المخفية سببًا لتعلق القلب بها حتى لا يقوى على مفارقتها فيختم له بها فيندم ولات ساعة مندم؛ يقول ابن رجب الحنبلي عليه رحمة الله: «خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس». فالله الله بإصلاح الخلوات، والصدق مع رب البريات، لنجد بذلك اللذة في المناجاة، والإجابة للدعوات، وأبشر يا صاحب الخشية والمراقبة في السر والعلانية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

حب الدنيا والإغراق في مباحاتها:

إن التثاقل إلى الأرض بالركون إلى متاعها والإكثار من شهواتها وشغل القلب بهمّ الدنيا: من أكبر أسباب النفور من الطاعة، والنكوص عن الهدى، وإيثار العاجلة على الآجلة؛ ولهذا جاءت النصوص الكثيرة في التحذير من هذا العائق، ومن ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ

(١) سورة الرحمن: ٤٦.

إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾[1] ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾[2] ويقول ﷺ: «**من كان همُّه الآخرة، جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا راغمة؛ ومن كانت نيته الدنيا فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ الله له**»[3].

حب الانفراد والانعزالية ونبذ لزوم الجماعة:

المؤمن قوي بإخوانه ضعيف بنفسه؛ ولهذا أدرك ذلك العالم الرباني أثر الاجتماع بالصالحين والعيش في كنفهم في ثبات المرء واستقامته فقال للذي قتل مئة نفس، وقد سأل: هل له من توبة؟ فقال: «نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟! انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء»[4]. وذلك لما لمخالطة الصالحين من أثر في تقوية الإيمان والبعد عن نزغات الشيطان؛ لأن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، وما أكثر الذئاب اليوم، وما أشد فتكها بعقائد المنفردين وأخلاقهم.

❖ **كثرة الخلافات والمنازعات:**

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[5].

يجب أن يقوم كل داعية بدوره في هداية الناس وإصلاحهم، وأن يبصرهم بشر التنازع والفرقة والاختلاف، فلا خير في أمة يفترق أهلها.

(١) سورة التوبة: ٣٨.

(٢) سورة النساء: ٧٧.

(٣) السلسلة الصحيحة: ٤٠٤، و٩٥٠.

(٤) صحيح مسلم: ٢٧٦٦.

(٥) سورة الأنفال: ٤٦.

❖ **كثرة الشبهات:**

لقد وُظّفت فئات لبست لبوس أهل العلم ودعاته لإثارة الشبهات بين شباب الدعوة وترويج الاتهامات الكاذبة، والافتراءات الظالمة؛ للحط من الدعاة الصادقين، والعلماء العاملين؛ وذلك لمحاربة الدعوة الإسلامية نفسيًّا، والتشكيك في صدق دعاتها، والحد من امتدادها بين الناس، ولذلك ينبغي أن تُعرف أساليب هؤلاء المرتزقة؛ للكشف عن زيفهم.

❖ **مصاحبة المثبطين والاستماع إلى المتخاذلين:**

في المجتمع أناس لا همّ لهم إلا تثبيط العاملين، وتخذيل القائمين بالدعوة إلى الله، وإشاعة اليأس، ونشر عبارات القنوط على طريقة (هلك الناس). وفي التحذير من هذه الفئة المتخاذلة المخذّلة يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢﴾[1].

وقال في الآية الأخرى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨﴾[2].

❖ **الآفات القلبية:**

تلك الدسائس الخفية التي لا تبدو للناس، ولكنها تعمل في قلب صاحبها حتى تضله كما قال ﷺ: «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما**

---

(١) سورة النساء: ٧١- ٧٢.

(٢) سورة الأحزاب: ١٨.

يبدو للناس، وهو من أهل الجنة»[1]. قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله ﷺ: (فيما يبدو للناس) إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره، فتوجب له حسن الخاتمة» والأمراض التي قد تعترض الثابتين كثيرة، منها: الرياء، والنفاق، والعجب، والغرور، والكبر، والحقد والحسد، والخوف على الآجال والأموال.

هذا عمر بن الخطاب يسأل حذيفة: أنشدك بالله أعدّني رسول الله من المنافقين؟ ومن هنا كان الصحابة، ومن بعدهم من السلف الصالح، يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه؛ فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة، فيخرجه إلى النفاق الأكبر.

❖ **الاستعجال واستطالة الطريق:-**

قد أمر الله نبيه ﷺ بالاقتداء بالثابتين الصابرين من الأنبياء السابقين، ونهاه عن الاستعجال فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[2].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:- «من استطال الطريق ضعف مشيه».

---

(١) صحيح البخاري: ٢٨٩٨، وصحيح مسلم: ١١٢.

(٢) سورة الأحقاف: ٣٥.

الثبات عند الممات:

إن كان الثبات في حياة المرء مطلبًا مهمًّا يسعى إلى تحقيقه، فإن ثباته عند احتضاره أهم وأخطر، ذلك لأن الأعمال بالخواتيم، والسعيد من ثبته الله في حال احتضاره، حيث قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[1] قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد خذل كثير عند الموت فمنهم من أتاه الخذلان من أول مرضه، فلم يستدرك قبيحًا مضى، وربما أضاف إليه جورًا في وصيته، ومنهم من فاجأه الخذلان في ساعة اشتداد الأمر فمنهم من كفر، ومنهم من تبرم وتسخط نعوذ بالله من الخذلان، وهذا معنى سوء الخاتمة، وهو: أن يغلب على القلب عند الموت الشك أو الجمود فتقبض النفس على تلك الحالة، ودون ذلك أن يتسخط الأقدار».

ومن صور الثابتين عند الاحتضار:

معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

قال معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند موته لمن حوله: أجلسوني. فأجلسوه.. فجلس يذكر الله..، ثم بكى.. وقال: الآن يا معاوية جئت تذكر ربك بعد الانحطام والانهدام، أما كان هذا وغض الشباب نضير ريان؟! ثم بكى وقال: يا رب، يا رب، ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي.. اللهم أقل العثرة واغفر الزلة.. وجُدْ بحلمك على من لم يرج غيرك ولا وثق بأحد سواك... ثم فاضت روحه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٧.

ختامًا.. إن أهل الحق في كل زمان ومكان هم أعظم الناس صبرًا على أقوالهم ومعتقداتهم، وإن أصابهم في سبيل ذلك ما أصابهم، وهذا هو الثبات على الحق، ولقد كان الثبات على الحق سيما أهل الحق منذ بزوغ فجر الدعوة الإسلامية المباركة حين جهر النبي ﷺ بدعوته فاستجاب له نفر قليل، فابتُلوا وعُذِّبوا وساومهم الأعداء ليرتدوا عن دينهم، فما زادهم ذلك إلا ثباتًا واستمساكًا بالحق الذي هداهم الله إليه.

هذا والله أعلم وصل اللهم وسلم على نبيك محمد ﷺ.



الخاتمة

الخاتمة



الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعونه وفضله تزيد المكرمات له الحمد على ما أولى من نعمة، وما أعطى من منحة لهذه الكلمات سياحة القلب في وظائفه وأعماله على لذاته وحقائقه التي بها يبلغ العبد أن يصلح حاله ويقطع سيره إلى الله بقلبه ليصل أسرع من غيره وأوثق في سيره، فما كان فيها من صواب فمن فضل الله المنان، وما كان فيها من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله يتقبله ونعوذ بالله من الخذلان.

وصلى الله وسلم على النبي العدنان.

انتهى الكتاب جمعًا ومراجعة عصر السبت ١٧ / ٥/ ١٤٣٩هـ.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
تمهيد: أمراض القلوب	٧
المعراج الأول: أهمية أعمال القلوب	٣١
المعراج الثاني: الإخلاص	٣٧
المعراج الثالث: الإحسان	٧١
المعراج الرابع: الخوف	٩٣
المعراج الخامس: الرجاء	١٠٧
المعراج السادس: التوكل	١١٩
المعراج السابع: المحبة	١٣١
المعراج الثامن: التقوى	١٤٧
المعراج التاسع: الصبر	١٧١
المعراج العاشر: الرضا	٢٢٧
المعراج الحادي عشر: الشكر	٢٥٧
المعراج الثاني عشر: الخشوع	٢٧٩

الموضوع	الصفحة
المعراج الثالث عشر: المحاسبة	٣٠١
المعراج الرابع عشر: الصدق مع الله	٣١١
المعراج الخامس عشر: الحياء من الله	٣٣٣
المعراج السادس عشر: حسن الظن بالله	٣٥٧
المعراج السابع عشر: حقيقة العبودية	٣٨٣
المعراج الثامن عشر: فقه الابتلاء	٤١٣
المعراج التاسع عشر: قلوب بيضاء	٤٤٥
المعراج العشرون: الثبات	٤٦٧
الخاتمة	٥٠٥
الفهرس	٥٠٧

